النجوم الزاهرة

في

ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤ هـ

جلد ٨

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

بسم الله الرحمن الرحیم

النجوم الزاهره فی ملوک مصر والقاهره

کاتب:

جمال‌الدین ابی‌المحاسن یوسف‌بن تغری بردی الاتابکی

نشرت فی الطباعة:

وزاره الثقافه والارشادالقومی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ المجلد ۸

اشارهٔ

سرشناسه : ابن تغری بردی، یوسف بن تغری بردی، ۸۱۳-۸۷۴ق.

عنوان و نام پدیدآور : النجوم الزاهره فی ملوك مصر والقاهره/ تالیف جمال‌الدین ابی‌المحاسن یوسف‌بن تغری بردی الاتابکی.

وضعیت ویراست : [ویراست ؟].

مشخصات نشر : قاهره: وزاره الثقافه والارشادالقومی، الموسسه المصریه العامه، ۱۳۴۲.

سال چاپ: ۱۳۹۲ ه. ق

نوبت چاپ: اول

موضوع: شرح حال

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱۶

مشخصات ظاهری : ۱۶ج. (درسه مجلد).

یادداشت : عربی.

یادداشت : جلد سیزدهم تاجلد شانزدهم توسط فهیم محمد شلتوت، جمال‌الدین شیال و ابراهیم علی طرخان تصحیح‌شده توسط الهیئه‌المصریه‌العامه للتالیف و النشر منتشر گردیده است.

یادداشت : ج.۱، ۲، ۳، ۴، ۷ ، ۸ ، ۱۱ و ۱۲ (چاپ ؟: ۱۳).

یادداشت : ج. ۱۵ (چاپ؟: ۱۳۹۱ق. = ۱۹۷۱م. = ۱۳۵۰).

یادداشت : ج.۱۶ (چاپ؟ = ۱۳۹۲ق. = ۱۹۷۲م. = ۱۳۵۱).

یادداشت : بالای عنوان: تراثنا.

یادداشت : کتابنامه.

عنوان دیگر : تراثنا.

موضوع : مصر -- شاهان و فرمانروایان

موضوع : مصر -- تاریخ -- ۱۹ – ۸۹۷ق.-- سالشمار.

شناسه افزوده : شلتوت، فهیم محمد، مصحح

شناسه افزوده : شیال، جمال‌الدین، مصحح

شناسه افزوده : طرخان، ابراهیم علی، مصحح

رده بندی کنگره : DT۹۵/الف۲ن۳ ۱۳۴۲

رده بندی دیویی : ۹۶۲/۰۲

شماره کتابشناسی ملی : م۷۵-۵۵۴۷

تقدیم

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم و صلّی اللّه علی سیّدنا محمد و آله و صحابته و المسلمین الجزء الثامن من کتاب النجوم الزاهرهٔ فی ملوک

مصر و القاهرة

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۰]

ذكر ولاية الملك الأشرف خليل على مصر

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفىّ الصالحىّ النّجمىّ، جلس على تخت الملك يوم وفاة أبيه فى يوم الأحد سابع ذى القعدة سنة تسع و ثمانين و ستمائة. و كان والده قلاوون قد سلطنه فى حياته بعد موت أخيه الملك الصالح علىّ بن قلاوون فى سنة سبع و ثمانين و ستمائة، و المعتدّ به جلوسه الآن على تخت الملك بعد موت أبيه. و جدّد له الأمراء و الجند الحلف فى يوم الاثنين ثامن ذى القعدة المذكور. و طلب من القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر تقليده، فأخرجه إليه مكتوبا بغير علامة الملك المنصور، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴

ابن عبد الظاهر قد قدّمه إليه ليعلّم عليه فلم يرض، و تقدّم طلب الأشرف و تكرّر؛ و ابن عبد الظاهر يقدّمه إلى الملك المنصور، و المنصور يمتنع إلى أن قال له:

يا فتح الدين، أنا ما أولّى خليلا على المسلمين! و معنى ذلك أنّ الملك المنصور قلاوون كان قد ندم على توليته السلطنة من بعده. فلمّا رأى الأشرف التقليد بلا علامة، قال: يا فتح الدين، السلطان امتنع أن يعطينى و قد أعطانى اللّه! و رمى التقليد من يده و تمّ أمره، و رتّب أمور الديار المصريّة، و كتب بسلطنته إلى الأقطار، و أرسل الخلع إلى النوّاب بالبلاد الشامية.

و هو السلطان الثامن من ملوك الترك و أولادهم. ثم خلع على أرباب وظائفه بمصر، و الذين خلع عليهم من الأعيان: الأمير بدر الدين بيدرا المنصورىّ نائب السلطنة بالديار المصريّة، و وزيره و مدبّر مملكته شمس الدين محمد بن السّلعوس الدّمشقىّ، و هو فى الحجاز الشريف. و على بقيّة أرباب وظائفه على العادة و النوّاب بالبلاد الشاميّة يوم ذاك. فكان نائبه بدمشق و ما أضيف إليها من الشام الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ. و نائب السلطنة بالممالك الحلبيّة و ما أضيف إليها الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ. و نائب الفتوحات الساحليّة و الأعمال الطرابلسيّة و القلاع الإسماعيليّة الأمير سيف الدين بلبان السّلحدار المعروف بالطّبّاخى.

و نائبه بالكرك و الشوبك و ما أضيف إلى ذلك الأمير ركن الدين بيبرس الدّوادار المنصورىّ، صاحب التاريخ المعروف «بتاريخ بيبرس الدوادار». و صاحب حماة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵

و المعرّة الملك المظفّر تقىّ الدين محمود ابن الملك المنصور محمد الأيّوبىّ. و الذين هم تحت طاعته من الملوك صاحب مكّة المشرّفة الشريف نجم الدين أبو نمىّ محمد بن إدريس بن علىّ بن قتادة الحسنىّ، و صاحب اليمن الملك المظفّر شمس الدين يوسف ابن عمر، فهؤلاء الذين أرسل إليهم بالخلع و التقاليد. انتهى.

و لمّا رسخت قدم الملك الأشرف هذا فى الملك أخذ و أعطى و أمر و نهى؛ و فرّق الأموال و قبض على جماعة من حواشى والده، و صادرهم على ما يأتى ذكره.

و لمّا استهلّت سنة تسعين و ستّمائة أخذ الملك الأشرف فى تجهيزه إلى السّفر للبلاد الشاميّة، و إتمام ما كان قصده والده من حصار عكّا، و أرسل إلى البلاد الشاميّة و جمع العساكر و عمل آلات الحصار، و جمع الصّنّاع إلى أن تمّ أمره، خرج بعساكره من الديار المصريّة فى ثالث شهر ربيع الأوّل من سنة تسعين المذكورة، و سار حتّى نازل عكّا فى يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، و يوافقه خامس نيسان، فاجتمع عنده على عكّا من الأمم ما لا يحصى كثرة. و كان المطّوّعة أكثر من الجند و من فى الخدمة. و نصب عليها

المجانيق الكبار الفرنجيّة خمسة عشر منجنيقا، منها ما يرمى بقنطار دمشقىّ و أكبر، و منها دونه. و أمّا المجانيق الشيطانيّة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶

و غيرها فكثيرة، و نقب عدّة نقوب. و أنجد أهل عكّا صاحب قبرس بنفسه و فى ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيرانا عظيمة لم ير مثلها فرحا به، و أقام عندهم قريب ثلاثة أيام، ثم عاد عند ما شاهد انحلال أمرهم و عظم ما دهمهم. و لم يزل الحصار عليها و الجدّ فى أمر قتالها إلى أن انحلّت عزائم من بها و ضعف أمرهم و اختلفت كلمتهم.

هذا و الحصار عمّال فى كلّ يوم، و استشهد عليها جماعة من المسلمين.

فلمّا كان سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ركب السلطان و العساكر و زحفوا عليها قبل طلوع الشمس، و ضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة و حسّ عظيم مزعج، فحال ملاصقة العسكر لها و للأسوار هرب الفرنج و ملكت المدينة بالسيف، و لم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلّا و قد استولى المسلمون عليها و دخلوها؛ و طلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلاميّة تقتل و تأسر فلم ينج منهم إلّا القليل؛ و نهب ما وجد من الأموال و الذخائر و السلاح و عمل الأسر و القتل فى جميع أهلها، و عصى الدّيويّة و الإسبتار و استتر الأرمن فى أربعة أبراج شواهق فى وسط البلد فحصروا فيها.

فلمّا كان يوم السبت ثامن عشر الشهر، و هو ثانى يوم فتح المدينة، قصد جماعة من الجند و غيرهم الدار و البرج الذى فيه الدّيويّة فطلبوا الأمان فأمّنهم السلطان و سيّر لهم صنجقا، فأخذوه و رفعوه على برجهم و فتحوا الباب، فطلع إليهم جماعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷

كثيرة من الجند و غيرهم، فلمّا صاروا عندهم تعرّض بعض الجند و العوامّ للنهيب، و مدّوا أيديهم إلى من عندهم من النساء و الأصاغر، فغلّق الفرنج الأبواب و وضعوا فيهم السيف، فقتلوا جماعة من المسلمين، و رموا الصّنجق و تمسّكوا بالعصيان و عاد الحصار عليهم. و فى اليوم المذكور نزل من كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان فأمّنهم السلطان على أنفسهم و حريمهم على يد الأمير زين الدين كتبغا المنصورىّ، و تمّ القتال على برج الدّيويّة و من عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر من جمادى الأولى طلب الدّيويّة و من بقى فى الأبراج الأمان، فأمّنهم السلطان على أنفسهم و حريمهم على أن يتوجّهوا حيث شاءوا. فلما خرجوا قتلوا منهم فوق الألفين و أسروا مثلهم، و ساقوا إلى باب الدّهليز النساء و الصّبيان، و كان من جملة حنق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير آقبغا المنصورىّ أحد أمراء الشام كان طلع إليهم فى جملة من طلع فأمسكوه و قتلوه، و عرقبوا ما عندهم من الخيول، و أذهبوا ما أمكنهم إذهابه؛ فتزايد الحنق عليهم. و أخذ الجند و غيرهم من السّبى و المكاسب ما لا يحصى.

و لمّا علم من بقى منهم ما جرى على إخوانهم تمسّكوا بالعصيان، و امتنعوا من قبول الأمان و قاتلوا أشدّ قتال، و اختطفوا خمسة نفر من المسلمين و رموهم من أعلى البرج فسلم منهم نفر واحد و مات الأربعة. ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشرين جمادى المذكورة أخذ البرج الذى تأخّر بعكا، و أنزل من فيه بالأمان، و كان قد غلّق من سائر جهاته. فلمّا نزلوا منه و حوّلوا معظم ما فيه سقط على جماعة من المسلمين المتفرّجين و ممّن قصد النّهب فهلكوا عن آخرهم. ثمّ بعد ذلك عزل السلطان النساء و الصّبيان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸

ناحية و ضرب رقاب الرجال أجمعين و كانوا خلائق كثيرة. و العجب أن اللّه سبحانه و تعالى قدّر فتح عكّا فى مثل اليوم الذى أخذها الفرنج فيه، و مثل الساعة التى أخذوها فيها، فإنّ الفرنج كانوا استولوا على عكّا فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة [سنة سبع و ثمانين و خمسمائة] فى الساعة الثالثة من النهار، و أمّنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدرا، و قدّر اللّه تعالى أنّ المسلمين استرجعوها منهم فى هذه المرّة يوم الجمعة فى الساعة الثالثة من النهار، و وافق السابع عشر من جمادى الأولى، و أمّنهم السلطان ثمّ قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فانتقم اللّه تعالى من عاقبتهم.

و كان السلطان عند منازلته عكّا قد جهّز جماعة من الجند مقدّمهم الأمير علم الدين سنجر الصّوابى الجاشنكير إلى صور لحفظ الطّرق

و تعرّف الأخبار، و أمره بمضايقة صور. فبينما هو فى ذلك لم يشعر إلّا بمراكب المنهزمين من عكّا قد وافت الميناء التى لصور، فحال بينها و بين الميناء؛ فطلب أهل صور الأمان فأمّنهم على أنفسهم و أموالهم و يسلّموا صور فأجيبوا إلى ذلك، فتسلّمها. و صور من أجلّ الأماكن و من الحصون المنيعة، و لم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب فيما فتح من الساحل، بل كان صلاح الدين كلّما فتح مكانا و أمّنهم أوصلهم إلى صور هذه لحصانتها و منعتها، فألقى اللّه تعالى فى قلوب أهلها الرّعب حتّى سلّموها من غير قتال و لا منازلة، و لا كان الملك الأشرف فى نفسه شيء من أمرها البتّة.

و عند ما تسلّمها جهّز إليها من أخربها و هدم أسوارها و أبنيتها، و نقل من رخامها و أنقاضها شيء كثير. و لمّا تيسر أخذ صور على هذه الصورة قوى عزم الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٩

الأشرف على أخذ غيرها. و لمّا كان الملك الأشرف محاصرا لعكّا استدعى الأمير حسام الدين لا چين المنصوريّ نائب الشام، و هو الذى تسلطن بعد ذلك حسب ما يأتى ذكره، و الأمير ركن الدين بيبرس المعروف بطقصو فى ليلة الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى إلى المخيّم و أمسكهما و قيدهما، و جهّزهما فى بكرة نهار الاثنين إلى قلعة صفد، و منها إلى قلعة الجبل. و كان تقدّم قبل ذلك بستّة أيام مسك الأمير سنجر المعروف بأبى خرص و جهّزه إلى الديار المصريّة محتاطا عليه. ثم استقرّ الملك الأشرف بالأمير علم الدين سنجر الشّجاعى المنصوريّ فى نيابة الشام عوضا عن الأمير لاچين المذكور.

و عند ما أمسك الأشرف هذين الأميرين الكبيرين حصل للناس قلق شديد و خشوا من حدوث أمر يكون سببا لتنفيس الخناق عن أهل عكّا، فكفى اللّه تعالى ذلك.

ثم أمسك الأشرف الأمير علم الدين أيدغدى الإلدكزيّ نائب صفد و ما معها لأمر نقمه عليه و صادره، و جعل مكانه الأمير علاء الدين أيدكين الصالحىّ العماديّ، و أضاف إليه مع ولاية صفد عكّا و ما استجد من الفتوحات الأشرفيّة. ثم لما فرغ الأشرف من مصادرة أيدكين المذكور ولّاه برّصفد عوضا عن علم الدين سنجر الصّوابىّ. ثم استدعى الملك الأشرف الأمير بيبرس الدّوادار المنصورى الخطائى المؤرّخ نائب الكرك و عزله، و ولّى عوضه الأمير آقوش الأشرفيّ. ثم رحل الملك الأشرف عن عكّا فى بكرة نهار الاثنين خامس جمادى الآخرة، و دخل دمشق يوم الاثنين ثانى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٠

عشره بعد أن زيّنت له دمشق غاية الزينة، و عملت القباب بالشوارع من قريب المصلّى إلى الباب الجديد، و حصل من الاحتفال لقدومه ما لا يوصف، و دخل و بين يديه الأسرى من الفرنج تحتهم الخيول و فى أرجلهم القيود، و منهم الحامل من سناجق الفرنج المنكّسة، و فيهم من حمل رمحا عليه من رءوس قتلى الفرنج؛ فكان لقدومه يوم عظيم. و أقام الأشرف بدمشق إلى فجر نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رجب. و عاد إلى الديار المصريّة فدخلها يوم الاثنين تاسع شعبان؛ فاحتفل أيضا أهل مصر لملاقاته احتفالا عظيما أضعاف احتفال أهل دمشق، و عند دخوله إلى مصر أطلق رسل صاحب عكّا الذين كانوا معوّقين بالقاهرة. ثم إنّ الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ نائب الشام فتح صيدا بعد حصار كبير بالأمان فى يوم السبت خامس عشر شهر رجب. و لمّا أخذت هذه البلاد فى هذه السنة أمر السلطان أن تخرّب قلعة جبيل و أسوارها بحيث يلحقها بالأرض فخرّبت أصلا؛ ثم أخذت عثليث بعد شهر.

و أمّا أهل أنطرطوس لمّا بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب، فجرّد الأمير سيف الدين بلبان الطّباخى عسكرا، فلمّا أحاطوا بها ليلة الخميس خامس شعبان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١١

ركبوا البحر و هربوا إلى جزيرة أرواد، و هى بالقرب منها، فندب إليها السّعديّ بما كان أحضره من المراكب و الشوانى فأخلوها. و كان فتح هذه المدن الستّ فى ستة شهور.

ثم رسم الملك الأشرف بالقبض على الأمير علم الدين سنجر الدوادار؛ فقبض عليه فى شهر رمضان، و جهّز الى الديار المصريّة بعد أن أحيط على جميع موجوده، ثم أفرج الملك الأشرف على جماعة من الأمراء ممّن كان قبض عليهم و حبسهم.

و هم: الأمير لا چين المنصوريّ الذى تسلطن بعد ذلك، و بيبرس طقصو الناصرىّ، و سنقر الأشقر الصالحىّ، و بدر الدين بيسرى الشمسىّ، و سنقر الطويل المنصورىّ، و بدر الدين خضر بن جودى القيمرىّ. و فى شهر رمضان سنة تسعين و ستمائة المذكورة أنعم السلطان الملك الأشرف على علم الدين سنجر المنصوريّ المعروف بأرجواش خبزا و خلع عليه و أعيد إلى ولاية قلعة دمشق. ثم طلب الملك الأشرف قاضى القدس بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة إلى الديار المصرية و ولّاه قضاءها بعد عزل قاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز. و استمرّ الملك الأشرف بالديار المصريّة إلى أن تجهّز و خرج منها قاصدا البلاد الشامية فى يوم السبت ثامن شهر ربيع الآخر من سنة إحدى و تسعين و ستمائة، و سار حتّى دخل دمشق فى يوم السبت سادس جمادى الأولى. و فى ثامن جمادى الأولى أحضر السلطان الأموال و أنفق فى جميع العساكر المصريّة و الشامية. و وصل الملك المظفر تقىّ الدين صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٢

حماة لتلقّى الملك الأشرف فالتقاه فزاد السلطان فى إكرامه، و استعرض الجيوش عليه و أمر بتسفيرهم قدّام الملك المظفّر المذكور. ثم توجّه الملك الأشرف من دمشق بجميع العساكر قاصدا حلب، فوصلها فى ثامن عشرين جمادى الأولى، ثم خرج منها و نزل على قلعة الروم بعساكره و حاصرها إلى أن افتتحها بالسيف عنوة فى يوم السبت حادى عشر شهر رجب، و كتب البشائر إلى الأقطار بأخذها. ثم عاد السلطان إلى دمشق و ترك بقلعة الروم الشّجاعىّ و عساكر الشام ليعمّروا ما انهدم منها فى الحصار.

و كان دخول السلطان إلى دمشق فى يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان بعد أن عزل الأمير قرا سنقر المنصوريّ عن نيابة حلب بالأمير بلبان الطبّاخى، و ولّى عوضا عن الطّباخى فى الفتوحات طغريل الإيغانى. و لمّا كان السلطان بدمشق عمل عسكره النّوروز كعادتهم بالديار المصريّة، و عظم ذلك على أهل دمشق لعدم عادتهم بذلك.

و فى يوم الجمعة ثامن عشرين شهر رمضان قبض السلطان على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، و على الأمير ركن الدين طقصو، و هرب الأمير حسام الدين لاچين المنصوريّ و نادوا عليه بدمشق: من أحضره فله ألف دينار، و من أخفاه شنق.

ثمّ ركب الملك الأشرف و مماليكه فى طلب لاچين المذكور، و أصبح يوم العيد و السلطان فى البرية مهجّج، و كانوا عملوا السّماط كجارى العادة فى الأعياد، و أطلعوا المنبر إلى الميدان الأخضر و طلع الخطيب موفّق الدين فصلّى فى الميدان بالعوامّ، و عاد السلطان بعد صلاة العصر إلى دمشق، و لم يقع للاچين على خبر. ثم سيّر الملك الأشرف طقصو و سنقر الأشقر تحت الحوطة إلى الديار المصريّة. و أمّا لاچين فإنّ العرب أمسكوه و أحضروه إلى الملك الأشرف فأرسله الملك الأشرف مقيّدا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٣

إلى مصر. و فى سادس شوّال ولّى السلطان الأمير عزّ الدين أيبك الحمويّ نيابة دمشق عوضا عن الشّجاعىّ.

ثم خرج الأشرف من دمشق قاصدا الديار المصريّة فى ليلة الثلاثاء عاشر شوّال، و كان قد رسم الأشرف لأهل الأسواق بدمشق و ظاهرها أنّ كلّ صاحب حانوت يأخذ بيده شمعة و يخرج إلى ظاهر البلد، و عند ركوب السلطان يشعلها؛ فبات أكثر أهل البلد بظاهر دمشق لأجل [الوقدو] الفرجة! فلمّا كان الثّلث الأخير من الليل ركب السلطان و أشعلت الناس الشموع، فكان أوّل الشمع من باب النصر و آخر الوقيد عند مسجد القدم، لأنّ والى دمشق كان قد رتّبهم من أوّل الليل، فكانت ليلة عظيمة لم ير مثلها. و سافر السلطان حتّى دخل الديار المصريّة يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة من باب النصر و خرج من باب زويلة، و احتفل أهل مصر لدخوله احتفالا عظيما، و كان يوم دخوله يوما مشهودا. و لمّا أن طلع السلطان إلى قلعة الجبل أنعم على الأمير قرا سنقر المنصوريّ المعزول عن نيابة حلب بإمرة مائة فارس بديار مصر. ثم أفرج عن الأمير حسام الدين لاچين المنصوريّ و أعطاه أيضا خبز مائة فارس بديار مصر، و سببه أنّ السلطان عاقب سنقر الأشقر و ركن الدين طقصو فاعترفوا أنّهم كانوا يريدون قتله، و أنّ لا چين لم يكن معهم و لا كان له اطّلاع على الباطن

فخنقهم و أفرج عن لاچين بعد ما كان وضع الوتر فى حلقه لخنقه، فضمنه خشداشه الأمير بدر الدين بيدرا المنصورىّ نائب السلطان، و علم الدين سنجر الشجاعىّ و غيرهما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴

قلت و سنقر الأشقر هو الذى كان تسلطن بدمشق فى أوائل سلطنة الملك المنصور قلاوون، و وقع له معه تلك الأمور المذكورة فى عدّة أماكن. و أمّا لاچين هذا فهو الذى تسلطن بعد ذلك و تلقّب بالملك المنصور حسب ما يأتى ذكره.

و كلّما ذكرنا من حينئذ لاچين فهو المنصور و لا حاجة للتعريف به بعد ذلك.

ثم إنهم أخرجوا الأمراء المخنّقين و سلّموهم إلى أهاليهم، و كان السلطان خنق معهما ثلاثة أمراء أخر فأخرجوا الجميع و دفنوا؛ ثم غرّق السلطان جماعة أخرى، و قيل إنّ ذلك كان فى مستهلّ سنة اثنتين و تسعين و ستّمائة. و استمرّ السلطان بمصر إلى أن تجهّز و خرج منها إلى الشام فى جمادى الأولى من سنة اثنتين و تسعين و ستمائة المذكورة، و سار حتّى دخل دمشق فى يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة؛ و نزل بالقصر الأبلق من الميدان الأخضر.

و لمّا استقر ركابه بدمشق شرع فى تجهيز العساكر إلى بلاد سيس و الغارة عليها، فوصل رسل صاحب سيس بطلب الصلح و رضا السلطان عليه، و مهما طلب منه من القلاع و المال أعطاه و شفع الأمراء فى صاحب سيس، و اتّفق الحال على أن يتسلّم نوّاب السلطان من صاحب سيس ثلاث قلاع، و هى:

بهسنا و مرعش و تلّ حمدون ففرح الناس بذلك، لأنه كان على المسلمين من بهسنا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵

أذّى عظيم. و أقام السلطان بدمشق إلى مستهلّ شهر رجب توجّه منها، و صحبته عسكر الشام و الأمراء و بعض عساكر مصر. و أمّا الضعفاء من عسكر مصر فأعطاهم السلطان دستورا بعودتهم إلى الديار المصريّة. و سار السلطان حتّى وصل إلى حمص، ثم توجّه منها إلى سلمية مظهرا أنّه متوجّه إلى ضيافة الأمير حسام الدين مهنّا بن عيسى بن مهنّا أمير آل فضل، و كان خروج السلطان من دمشق فى ثانى شهر رجب، فلمّا كان بكرة يوم الأحد سابع شهر رجب وصل الأمير لاچين و صحبته مهنّا إلى دمشق و هو مقبوض عليه، أمسكه السلطان لمّا انقضت الضيافة و ولّى غوضه شخصا من أولاد عمّه، و هو الأمير محمد بن علىّ بن حذيفة. و فى بقيّة النهار وصل السلطان إلى دمشق، و رسم للأمير بيدرا أن يأخذ بقيّة العساكر و يتوجّه إلى مصر، و أن يركب تحت الصناجق عوض السلطان و بقى السلطان مع خواصّه بدمشق بعدهم ثلاثة أيام؛ ثم خرج من دمشق [فى يوم السبت ثالث عشر رجب] و عاد إلى جهة الديار المصريّة فى العشر الأخير من شهر رجب من سنة اثنتين و تسعين و ستمائة؛ ثم إن السلطان أمر الأمير عزّ الدين أيبك الحمویّ الأفرم أمير جاندار نائب الشام أن يسافر إلى الشوبك و يخرّب قلعتها، فكلّمه الأفرم فى بقائها فانتهره، و سافر من يومه، و توجّه الأفرم إلى الشّوبك و أخربها غير القلعة. و كان ذلك غاية ما يكون من الخطأ و سوء التدبير، و كان أخرب قبل ذلك أيضا عدّة أماكن بقلعة الجبل،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶

و بقلعة دمشق أيضا أخرب عدّة قاعات و مبانى هائلة. و أمّا قلاع السواحل فأخرب غالبها، و كان يقصد ذلك لمعنى يخطر بباله.

ثم فى العشرين من ذى الحجّة نصب السلطان ظاهر القاهرة خارج باب النصر القبق، و صفة ذلك أن ينصب صار طويل و يعمل على رأسه قرعة من ذهب أو فضّة و يجعل فى القرعة طير حمام، ثمّ يأتى الرامى بالنّشّاب و هو سائق فرسه و يرمى عليه، فمن أصاب القرعة و طيّر الحمام خلع عليه خلعة تليق به، ثم يأخذ القرعة. و كان ذلك بسبب طهور أخى الملك الأشرف؛ و هو الملك الناصر محمد بن قلاوون، و طهور ابن أخيه الأمير مظفّر الدين موسى ابن الملك الصالح علاء الدين علىّ بن قلاوون، فآحتفل السلطان لطهورهما و عمل مهمّا عظيما. و كان الطهور فى يوم الاثنين ثانى عشرين ذى الحجّة. و عند ما طهّروهم رموا الأمراء الذهب لأجل النّقوط؛ فإن كان الأمير أمير مائة فارس رمى مائة دينار، و إن كان أمير خمسين فارسا رمى خمسين دينارا، و قس على ذلك سائر الأمراء؛ و رمى

حتى مقدّمو الحلقة و الأجناد، فجمع من ذلك شيء كثير؛ و هو آخر فرح عمله الأشرف هذا.

ثم بعد فراغ المهمّ بمدّة يسيرة، نزل السلطان الملك الأشرف المذكور من قلعة الجبل متوجّها إلى الصّيد فى ثانى المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة و صحبته وزيره الصاحب شمس الدين بن السّلعوس، و نائب سلطنته الأمير بدر الدين بيدرا و جميع الأمراء، فلمّا وصل إلى الطّرّانة فارقه وزيره ابن السّلعوس المذكور و توجّه إلى الإسكندرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٧

و أمّا السلطان فإنّه نزل بالحمّامات لأجل الصّيد، و أقام إلى يوم السبت ثانى عشر المحرّم. فلمّا كان قرب العصر و هو بأرض تروجة حضر إليه الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة و معه جماعة كثيرة من الأمراء؛ و كان السلطان بكرة النهار قد أمره أن يأخذ العسكر و الدّهليز و يمشى عوضه تحت الصناجق و أن يتقدّمه، و يبقى السلطان يتصيّد وحده بقيّة يومه و يعود العشيّة إلى الدّهليز، فتوجّه بيدرا على ذلك؛ و أخذ السلطان الملك الأشرف يتصيّد و معه شخص واحد يقال له شهاب الدين [أحمد بن] الأشلّ أمير شكار، و بينما السلطان فى ذلك أتاه هؤلاء: بيدرا و رفقته، فأنكر السلطان مجيئهم، و كان فى وسط السلطان بند حرير و ليس معه بمجة لأجل الصيد، و كان أوّل من ابتدره الأمير بيدرا فضربه بالسيف ضربة قطع بها يده مع كتفه، فجاء الأمير حسام الدين لاچين، و هو الذى تسلطن بعد ذلك بمدّة، و قال لبيدرا: يا نحس! من يريد ملك مصر و الشام تكون هذه ضربته! ثمّ ضربه على كتفه فحلّها، و وقع السلطان على الأرض، فجاء بعدهما الأمير بهادر رأس نوبة، و أخذ السيف و دسّه فى دبره و أطلعه من حلقه، و بقى يجىء واحد من الأمراء بعد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨

واحد و يظهرون ما فى أنفسهم منه، ثم تركوه فى مكانه و انضموا على الأمير بيدرا و حلفوا له، و أخذوه تحت الصناجق و ركبوا سائرين بين يديه طالبين القاهرة.

و قيل فى قتله وجه آخر.

قال القطب اليونينىّ: «و مما حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفّدار:

كيف كان قتل السلطان الملك الأشرف خليل؟ قال: سألت الأمير شهاب الدين أحمد بن الأشلّ أمير شكار السلطان، كيف كان قتل السلطان الأشرف؟ فقال [ابن] الأشلّ: بعد رحيل الدّهليز (يعنى مدورة السلطان و العساكر) جاء إليه الخبر أنّ بتروجة طيرا كثيرا، فقال السلطان: امش بنا حتى نسبق الخاصّكيّة، فركبنا و سرنا، فرأينا طيرا كثيرا فرماه السلطان بالبندق، فأصرع شيئا كثيرا، ثم إنّه التفت إلىّ و قال: أنا جيعان، فهل معك شىء تطعمنى؟ فقلت: و اللّه ما معى سوى فرّوجة و رغيف خبز، قد ادّخرته لنفسى فى صولقى، فقال لى: ناولنى إيّاه، فأخذه و أكله جميعه، ثم قال لى: أمسك لى فرسى حتّى أنزل و أريق الماء، فقلت له:

ما فيها حيلة! أنت راكب حصانا و أنا راكب حجرة و ما يتفقوا، فقال لى: انزل أنت و اركب خلفى و أركب أنا الحجرة التى لك، و الحجرة مع الحصان تقف، قال:

فنزلت و ناولته لجام الحجرة، ثم إنّى ركبت خلفه، ثمّ إنّ السلطان نزل و قعد يريق الماء، و شرع يولغ بذكره و يمازحنى، ثم قام و ركب حصانه و مسك لى الحجرة، ثم إنّى ركبت. فبينما أنا و إيّاه نتحدّث و إذا بغبار عظيم قد ثار و هو قاصد نحونا، فقال لى السلطان: سق و اكشف لى خبر هذا الغبار، قال: فسقت، و إذا الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٩

بدر الدين بيدرا و الأمراء معه، فسألتهم عن سبب مجيئهم فلم يردّوا علىّ جوابا و لا التفتوا إلى كلامى، و ساقوا على حالهم حتّى قربوا من السلطان، فكان أوّل من ابتدره بيدرا بالضّربة قطع بها يده و تمّم الباقى قتله». انتهى.

و أمّا أمر بيدرا فإنّه لمّا قتل السلطان بايع الأمراء بيدرا بالسلطنة و لقّبوه بالملك الأوحد و بات تلك الليلة، فإنّ قتل الأشرف كان بين الظّهر و العصر.

و أصبح ثانى يومه سار بيدرا بالعساكر إلى نحو الديار المصريّة؛ و بينما بيدرا سائر بعساكره و إذا بغبار عظيم قد علا و ملأ الجوّ و قرب منه، و إذا بطلب عظيم فيه نحو ألف و خمسمائة فارس من الخاصّكيّة الأشرفيّة، و معهم الأمير زين الدين كتبغا، و هو الذى تسلطن بعد ذلك بمدّة على ما يأتى ذكره. و الأمير حسام الدين الأستادار طالبين بيدرا بدم أستاذهم السلطان الملك الأشرف خليل المذكور و أخذ الثّأر منه و من أصحابه. و كان ذلك بالطرّانة فى يوم الأحد أوّل النهار، فما كان غير ساعة إلا و التقوا، و كان بيدرا لمّا رآهم صفّ من معه من أصحابه للقتال، فصدموه الأشرفيّة صدمة صادقة و حملوا عليه حملة واحدة فرّقوا شمله، و هرب أكثر من كان معه؛ فحينئذ أحاطوا ببيدرا و قبضوا عليه و حزّوا رأسه، و قيل: إنهم قطعوا يده قبل أن يحزّوا رأسه؛ كما قطعت يد أستاذهم الملك الأشرف بضربة السيف، و لمّا حزّوا رأسه حملوه على رمح و سيّروه إلى القاهرة، فطافوا به ثم عادوا نحو القاهرة حتى وصلوا برّ الجيزة، فلم يمكّنهم الأمير علم الدين سنجر الشّجاعىّ من التعدية إلى برّ مصر، لأنّ السلطان الملك الأشرف كان قد تركه فى القلعة عند سفره نائب السلطنة بها، فلم يلتفتوا إليه و أرادوا التعدية؛ فأمر الشجاعىّ المراكب و الشوانى فعدّت إلى برّ القاهرة، و بقى العسكر و الأمراء على جانب البحر مقيمين حتى مشت بينهم الرّسل على أن يمكّنهم الشجاعىّ من العبور حتّى يقيموا عوض السلطان أخاه الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٠

الناصر محمد بن قلاوون و هو صغير، تسكينا لما وقع و إخمادا للفتنة، فأجلسوه على تخت الملك بقلعة الجبل فى رابع عشر المحرّم من سنة ثلاث و تسعين و ستمائة المذكورة، و أن يكون نائب السلطنة الأمير زين الدين كتبغا، و الوزير الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ، و حسام الدين أستاذ الدار أتابك العساكر.

قلت: و ساق الشيخ قطب الدين اليونينىّ واقعة الملك الأشرف هذا و قتله و قتل بيدرا بأطول من هذا؛ قال الشيخ قطب الدين:

«و حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفّدار أمير جاندار قال: كان السلطان الملك الأشرف قد أنفذنى فى أوّل النهار إلى الأمير بدر الدين بيدرا يأمره أن يأخذ العساكر و يسير بهم، فلمّا جئت إليه و قلت له: السلطان يأمرك أن تسير الساعة تحت الصناجق بالأمراء و العسكر، قال: فنفر فىّ بيدرا، ثم قال: السمع و الطاعة؛ قال: و رأيت فى وجهه أثر الغيظ و الحنق و قال: و كم يستعجلنى! فظهر فى وجهه شىء ما كنت أعهده منه؛ ثم إنّى تركته و مشيت حملت الزّردخاناه و الثّقل الذى لى و سرت، فبينما أنا سائر أنا و رفيقى الأمير صارم الدين الفخرىّ و ركن الدين أمير جاندار عند المساء، و إذا بنجّاب سائر، فسألت عن السلطان أين تركته؟ فقال:

طوّل اللّه أعماركم فيه؛ فبينما نحن متحيّرون فى أمره، و إذا بالسناجق التى للسلطان قد لاحت و قربت و الأمراء تحتها، و الأمير بدر الدين بيدرا بينهم و هم محدقون به؛ قال: فجئنا و سلّمنا عليه، فقال له الأمير ركن الدين بيبرس أمير جاندار: يا خوند، هذا الذى فعلته كان بمشورة الأمراء؟ قال: نعم، إنّما قتلته بمشورتهم و حضورهم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢١

وها هم كلّهم حاضرون، و كان من جملة من هو حاضر الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ، و الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورىّ، و الأمير بدر الدين بيسرىّ، و أكثر الأمراء سائقون معه؛ قال: ثم إنّ بيدرا شرع يعدّد سيّئات السلطان و مخازيه و مناحسه و إهماله أمور المسلمين و استهزاءه بالأمراء و مماليك أبيه و وزارته لأبن السّلعوس، قال: ثم إنّه سألنا هل رأيتم الأمير زين الدين كتبغا؟ فقلنا له:

لا، فقال بعض الأمراء: يا خوند، هل كان عنده علم بالقضيّة؟ فقال: نعم، و هو أوّل من أشار بهذا الأمر.

فلمّا كان ثانى يوم و إذا بالأميرين: زين الدين كتبغا و حسام الدين أستاذ الدار قد جاءوا فى طلب كبير فيه مماليك السلطان الملك الأشرف نحو من ألفى فارس و فيهم جماعة من العسكر و الحلقة، فالتقوه بالطّرّانة يوم الأحد أوّل النهار. ثم ساق قطب الدين فى أمر الواقعة نحوا ممّا ذكرناه من أمر بيدرا و غيره، إلى أن قال:

و تفرّق جمع الأمير بيدرا. قال ابن المحفّدار: فلمّا رأينا مالنا بهم طاقة التجأنا إلى جبل هناك شمالىّ، و اختلطنا بذلك الطّلب الذى فيه

كتبغا، و رأينا بعض أصحابنا، فقال [لنا]: شدّوا بالعجلة مناديلكم فى رقابكم إلى تحت آباطكم، فهى الإشارة بيننا و إلّا قتلوكم أو شلحوكم، فعملنا مناديلنا فى رقابنا إلى تحت آباطنا، و كان ذلك سبب سلامتنا، فحصل لنا به نفع كثير من جهة الأمير زين الدين كتبغا و من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و سلمت بذلك أنفسنا و أثقالنا [و أهلونا] و أموالنا؛ ثم ظهر لهم أنّنا لم يكن لنا فى باطن القضيّة علم. قال: و سرنا إلى قلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢

الجبل. و ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون حسب ما نذكره فى ترجمته إن شاء اللّه تعالى فيما يأتى.

قال: و لمّا كان يوم خامس عشرين المحرّم أحضر إلى قلعة الجبل أميران و هما سيف الدين بهادر رأس نوبة و جمال الدين آقوش الموصلىّ الحاجب، فحين حضروا اجتمعوا الأشرفيّة عليهم فضربوا رقابهم و علّقوا رأس بهادر على باب داره الملاصقة لمشهد الحسين بالقاهرة. و بهادر هذا هو الذى حطّ السيف فى دبر الملك الأشرف بعد قتله و أخرجه من حلقه. ثم أخذوا جثّته و جثة آقوش و أحرقوهما فى قمين جير.

و أمّا الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ، و الأمير شمس الدين قرا سنقر فإنّهما اختفيا و لم يظهر لهما خبر، و لا وقع لهما على أثر. ثم أحضر المماليك الأشرفيّة سبعة أمراء، و هم: سيف الدين نوغيه، و سيف الدين ألناق، و علاء الدين ألطنبغا الجمدار، و شمس الدين سنقر مملوك لاچين، و حسام الدين طرنطاى السّاقى، و محمد خواجا، و سيف الدين أروس فى يوم الاثنين خامس صفر إلى قلعة الجبل، فلمّا رآهم السلطان الملك الناصر محمد أمر بقطع أيديهم أوّلا، و بعد ذلك يسمّرون على الجمال و أن تعلّق أيديهم فى حلوقهم ففعل ذلك، و رأس بيدرا أيضا على رمح يطاف به معهم بمصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٣

و القاهرة، و بقوا على هذه الحالة إلى أن ماتوا، و كلّ من مات منهم سلّم إلى أهله و الجميع دفنوهم بالقرافة.

قلت: و قريب ممّا وقع لبيدرا هذا و أصحابه أوائل ألفاظ المقالة الخامسة عشرة من «كتاب أطباق الذهب» للشيخ الإمام الربّانى شرف الدين عبد المؤمن الأصفهانىّ المعروف بشوروة، و هى قوله:

«من الناس من يستطيب ركوب الأخطار، و ورود التّيار، و لحوق العار و الشّنار، و يستحبّ و قد النار، و عقد الزّنّار، لأجل الدينار؛ و يستلذّ سفّ الرّماد، و نقل السّماد، و طىّ البلاد، لأجل الأولاد؛ و يصبر على نسف الجبال، و نتف السّبال، لشهوة المبال؛ و يبدّل الإيمان بالكفر، و يحفر الجبال بالظّفر، للدنانير الصّفر؛ و يلج ما ضغى الأسود، للدراهم السّود؛ لا يكره صداعا، [إذا نال كراعا]؛ و يلقى النوائب بقلب صابر، فى هوى الشيخ أبى جابر؛ و يأبى العزّ طبيعة، و يرى الذّلّ شريعة؛ و إن رزق لعيعة، يراها صنيعة، يؤمّ راسه و ترضّ أضراسه؛ و إن أعطى درهما، يراه مرهما.

و من الناس من يختار العفاف، و يعاف الإسفاف؛ يدع الطعام طاويا، و يذر الشراب صاديا، و يرى المال رائحا غاديا؛ يترك الدنيا لطلّابها، و يطرح الجيفة لكلابها؛ لا يسترزق لئام الناس، و يقنع بالخبز الناس؛ يكره المنّ و الأذى، و يعاف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٤

الماء على القذى؛ إن أثرى جعل موجوده معدوما، و إن أقوى حسب قفاره مأدوما؛ جوف خال، و ثوب بال، و مجد عال؛ و وجه مصفرّ، عليه قرّ؛ و ثوب أسمال، وراء عزّ [و] جمال؛ و عقب مشقوق، و ذيل مفتوق، يجرّه فتى مغبوق. شعر:

للّه تحت قباب العزّ طائفة أخفاهم فى رداء الفقر إجلالا

هم السلاطين فى أطمار مسكنة استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا

غبر ملابسهم شمّ معاطسهم جرّوا على فلك الخضراء أذيالا

هذى المناقب لا ثوبان من عدن خيطا قميصا فصارا بعد أسمالا

هذى المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

هم الـذين جبلوا برآء من التّكلّف، «يحسبهم الجاهل أغنياء من التّعفّف». انتهى ما ذكرناه من المقالـة الخامسـة عشرة و إن كنّا خرجنا عن المقصود من كون غالبها من غير ما نحن فيه، غير أنّنى لم أذكرها بتمامها هنا إلّا لغرابتها. انتهى.

و لمّا مات الملك الأشرف خليل هذا، و تمّ أمر أخيه الملك الناصر محمد فى السلطنة، استقرّ الأمير زين الدين كتبغا المنصورىّ نائب السلطنة، و سنجر الشّجاعىّ مدبّر المملكة و أتابك العساكر، و بقيّة الأمور تأتى فى أوّل سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون بأوضح من هذا

و لمّا قتل الملك الأشرف خليل المذكور بقى ملقى إلى أن خرج والى تروجة من بعد قتله بيومين، و معه أهل تروجة، و أخذوه و غسّلوه و كفّنوه و جعلوه فى تابوت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵

فى دار الوالى إلى أن سيّروا من القاهرة الأمير سعد الدين كوجبا الناصرىّ إلى مصرعه، فأخذه فى تابوت و وصل به إلى القاهرة سحر يوم الخميس ثانى عشرين صفر، فدفن فى تربة والدته بجوار أخيه الملك الصالح علىّ بن قلاوون- رحمهما اللّه تعالى- و رثاه ابن حبيب بقصيدة، أوّلها:

تبّا لأقوام تمالك رقّهم فتكوا و ما رقّوا لحالة مترف

وافوه غدرا ثم صالوا جملة بالمشرفىّ على المليك الأشرف

وافى شهيدا نحو روضات الرّضا يختال بين مزهّر و مزخرف

و مضى يقول لقاتليه تربّصوا بينى و بينكم عراض الموقف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶

و قال النّويرىّ فى تاريخه: كان ملكا مهيبا شجاعا مقداما جسورا جوادا كريما بالمال، أنفق على الجيش فى هذه الثلاث سنين ثلاث نفقات: الأولى فى أوّل جلوسه فى السلطنة من مال طرنطاى، و الثانية عند توجّهه الى عكّا، و الثالثة عند توجّهه الى قلعة الروم. انتهى كلام النّويرىّ باختصار.

و قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدىّ فى تاريخه: «و كان قبل ولاية الملك الأشرف يؤخذ عند باب الجابية بدمشق عن كلّ حمل خمسة دراهم مكسا، فأوّل ما تسلطن وردت إلى دمشق مسامحة بإسقاط هذا، و بين سطور المرسوم بقلم العلامة بخطه: لتسقط عن رعايانا هذه الظّلامة، و يستجلب لنا الدعاء من الخاصّة و العامّة». انتهى كلام الصفدىّ.

و قال الحافظ أبو عبد اللّه الذّهبىّ فى تاريخه، بعد أن ساق من أحواله قطعة جيّدة، فقال: «و لو طالت أيّامه أو حياته لأخذ العراق و غيرها، فإنّه كان بطلا شجاعا مقداما مهيبا عالى الهمّة يملأ العين و يرجف القلب، رأيته مرّات، و كان ضخما سمينا كبير الوجه بديع الجمال مستدير اللّحية، على وجهه رونق الحسن و هيبة السلطنة، و كان إلى جوده و بذله الأموال فى أغراضه المنتهى. و كان مخوف السطوة، شديد الوطأة، قوىّ البطش؛ تخافه الملوك فى أمصارها، و الوحوش العادية فى آجامها. أباد جماعة من كبار الدولة. و كان منهمكا فى اللذات، لا يعبأ بالتحرّز لنفسه لفرط شجاعته، و لم أحسبه بلغ ثلاثين سنة، و لعلّ اللّه عزّ و جلّ قد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷

عفا عنه و أوجب له الجنّة لكثرة جهاده، و إنكائه فى الكفّار». انتهى كلام الذهبى باختصار.

قلت: و كان الأشرف مفرط الشجاعة و الإقدام، و جمهور الناس على أنه أشجع ملوك الترك قديما و حديثا بلا مدافعة، ثم من بعده الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق، و شهرتهما فى ذلك تغنى عن الإطناب فى ذكرهما.

و كانت مدّة مملكة الأشرف هذا على مصر ثلاث سنين و شهرين و خمسة أيام، لأنّ وفاة والده كانت فى يوم السبت سادس ذى

القعدة سنة تسع و ثمانين و ستمائة.

و جلس الأشرف المذكور على تخت الملك فى صبيحة دفن والده فى يوم الاثنين ثامن ذى القعدة. و قتل فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة.

انتهى.

و قال الشيخ قطب الدين البونينىّ: و مات (يعنى الملك الأشرف) شهيدا مظلوما فإنّ جميع من وافق على قتله كان قد أحسن إليه و منّاه و أعطاه و خوّله، و أعطاهم ضياعا بالشام، و لم تتجدد فى زمانه مظلمة، و لا استجدّ ضمان مكس، و كان يحبّ الشأم و أهله، و كذلك أهل الشأم كانوا يحبونه- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه-.

السنة الأولى من سلطنة الملك الأشرف صلاح الدين خليل على مصر و هى سنة تسعين و ستمائة. على أنه حكم من الماضية من يوم الاثنين ثامن ذى القعدة إلى آخرها. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸

فيها (أعنى سنة تسعين و ستمائة) توفّى الشيخ عزّ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن طرخان الأنصارىّ السّويدىّ الطبيب المشهور، و هو من ولد سعد بن معاذ الأوسىّ- رضى اللّه عنه- كان قد تفرّد فى آخر عمره بمعرفة الطبّ، و كان له مشاركة جيّدة فى العربيّة و التاريخ، و اجتمع بأكابر الأطبّاء و أفاضل الحكماء، مثل المهذّب عبد الرحيم بن علىّ الدّخوار و غيره، و قرأ علم الأدب على جماعة من العلماء، و كان له نظم جيّد. من ذلك قوله فى خضاب اللّحية:

لو أنّ تغيير لون شيبى يعيد ما فات من شبابى

لما وفى لى بما تلاقى روحى من كلفة الخضاب

قلت: و يعجبنى قول الشيخ صفىّ الدين عبد العزيز الحلّى فى هذا المعنى:

قالوا اخضب الشيب فقلت اقصروا فإنّ قصد الصدق من شيمتى

فكيف أرضى بعد ذا أنّنى أوّل ما أكذب فى لحيتى

غيره فى المعنى:

يا خاضب اللّحية ما تستحى تعاند الرحمن فى خلقته

أقبح شئ قيل بين الورى أن يكذب الإنسان فى لحيته

و من شعر عزّ الدين صاحب الترجمة [مواليا]:

البدر و السعد ذا شبهك و ذا نجمك و القدّ و اللّحظ ذا رمحك و ذا سهمك

و البغض و الحبّ ذا قسمى و ذا قسمك و المسك و الحسن ذا خالك و ذا عمّك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۹

و فيها توفّى ملك التّتار أرغون بن أبغا بن هولاكو عظيم التّتار و ملكهم، قيل:

إنه اغتيل بالسمّ، و قيل: إنّه مات حتف أنفه، و اتّهم الترك اليهود بقتله فمالوا عليهم بالسيوف فقتلوهم و نهبوا أموالهم، و اختلفت كلمة التّتار فيمن يقيمونه بعده فى الملك، فمالت طائفة إلى بيدو و لم يوافقوا [على] كيختو، فرحل كيختو إلى الروم.

و كان أرغون هذا قد عظم أمره عند التّتار بعد قتل عمّه أحمد، و رسخت قدمه فى الملك، و كان شهما شجاعا مقداما، حسن الصورة، سفّا كاللدماء، شديد الوطأة.

و فيها توفّى الشيخ عفيف الدين أبو الربيع سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن علىّ ابن يس العابدى ثم الكوفىّ ثم التّلمسانىّ المعروف بالعفيف التّلمسانىّ، الصوفىّ الشاعر المشهور، كان فاضلا و يدّعى العرفان، و يتكلّم فى ذلك على اصطلاح القوم.

قال الشیخ قطب الدین: «و رأیت جماعة ینسبونه إلی رقّة الدّین، و توفّی و قد جاوز الثمانین سنة من العمر، و کان حسن العشرة کریم الأخلاق له حرمة و وجاهة، و خدم فی عدّة جهات.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۰

قلت: و قد تقدّم ذکر ولده الأدیب الظریف شمس الدین محمد أنّه مات فی حیاة والده العفیف هذا. انتهی.

و کان العفیف المذکور من الشعراء المجیدین و له دیوان شعر کبیر. و من شعره:

یشکو إلی أردافه خصره لو تسمع الأمواج شکوی الغریق

یا ردفه رقّ علی خصره فإنّه حمّل ما لا یطیق

و له:

إن کان قتلی فی الهوی یتعیّن یا قاتلی فبسیف جفنک أهون

حسبی و حسبک أن تکون مدامعی غسلی و فی ثوب السّقام أکفّن

عجبا لخدّک وردة فی بانة و البان فوق الغصن ما لا یمکن

أدنته لی سنة الکری فلثمته حتی تبدّل بالشّقیق السّوسن

و وردت کوثر ثغره فحسبتنی فی جنّة من وجنتیه أسکن

ما راعنی إلا بلال الخال فو ق الخدّ فی صبح الجبین یؤذّن

قلت: و هذا مأخوذ من قول الحاجری من قصیدة:

أقام بلال الخال فی صحن خدّه یراقب من لآلاء غرّته الفجرا

و منه أیضا أخذ الشیخ جمال الدین محمد بن نباتة المصریّ قوله:

و انظر إلی الخال فوق الثغر دون لمی تجد بلالا یراعی الصبح فی السّحر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۱

قلت: و قد سبق إلی هذا المعنی أمیر المؤمنین عبد اللّه بن المعتزّ بقوله:

أسفر ضوء الصبح من وجهه فقام خال الخدّ فیه بلال

کأنّما الخال علی خدّه ساعة هجر فی زمان الوصال

قلت و قد استوعبنا من ذکر العفیف هذا فی ترجمته فی تاریخنا «المنهل الصافی و المستوفیّ بعد الوافی» نبذة کبیرة فلینظر هناک.

و فیها توفّی الشیخ الإمام العلّامة فقیه الشام تاج الدین أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهیم بن سباع بن ضیاء الفزاریّ البدریّ المصریّ الأصل الدمشقی الشافعیّ المعروف بالفرکاح. ولد فی شهر ربیع الأوّل سنة أربع و عشرین و ستّمائة.

قال الصّفدیّ: تفقّه فی صغره علی الشیخ عزّ الدین بن عبد السلام، و الشیخ تقیّ الدین بن الصّلاح، و برع فی المذهب و هو شابّ، و جلس للاشتغال و له بضع و عشرون سنة، و درّس فی سنة ثمان و أربعین، و کتب فی الفتاوی و قد أکمل الثلاثین.

و لمّا قدم النوویّ من بلده أحضروه لیشتغل علیه، فحمل همّه و بعث به إلی مدرّس الرّواحیّة لیصحّ له بها بیت و یرتفق بمعلومها. و کانت الفتاوی تأتیه من الأقطار.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۲

و إذا سافر لزیارة القدس یترامی أهل البرّ علی ضیافته، و کان أکبر من الشیخ محیی الدین النّوویّ بسبع سنین، و هو أفقه نفسا و أذکی و أقوی مناظرة من الشیخ محیی الدین بکثیر، و قیل إنه کان یقول: إیش قال النّوویّ فی مزبلته! (یعنی عن الروضة)، قال: و کان الشیخ عزّ الدین بن عبد السلام یسمّیه «الدّویک» لحسن بحثه. انتهی کلام الصّفدیّ باختصار.

و من شعره ما كتبه لزين الدين عبد الملك بن العجمى ملغزا فى اسم بيدرا.

يا سيّدا ملأ الآفاق قاطبة بكلّ فنّ من الألغاز مبتكر

ما اسم مسمّاه بدر و هو مشتمل عليه فى اللفظ إن حقّقت فى النظر

و إن تكن مسقطا ثانيه مقتصرا عليه فى الحذف أضحى واحد البدر

و له [أيضا دو بيت]

ما أطيب ما كنت من الوجد لقيت إذ أصبح بالحبيب صبّا و أبيت

و اليوم صحا قلبى من سكرته ما أعرف فى الغرام من أين أتيت

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى مسند العالم فخر الدين علىّ بن البخارىّ المقدسىّ فى ربيع الآخر، و له خمس و تسعون سنة. و المعمّر شهاب الدين غازى بن أبى الفضل [بن عبد الوهاب أبو محمد] الحلاوىّ فى صفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۳

و فخر الدين عمر بن يحيى الكرخىّ فى شهر ربيع الآخر، و له إحدى و تسعون سنة. و العلّامة تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزارىّ الشافعىّ فى جمادى الآخرة، و له ست و ستون سنة. و الشيخ العفيف التّلمسانىّ الشاعر سليمان بن علىّ فى رجب، و له ثمانون سنة. و المقرئ شهاب الدين محمد بن عبد الخالق بن مزهر فى رجب. و القاضى شمس الدين عبد الواسع بن عبد الكافى الأبهرىّ فى شوّال.

و المسند نجم الدين يوسف بن يعقوب بن محمد [بن علىّ] بن المجاور فى ذى القعدة و المسند شمس الدين محمد بن [عبد] المؤمن بن أبى الفتح الصالحىّ فى ذى الحجّة، و هو آخر من سمع من الكندىّ. و الإمام شمس الدين أحمد بن عبد اللّه بن الزّبير الخابورىّ خطيب حلب فى المحرّم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۱]

السنة الثانية من ولاية الملك الأشرف خليل على مصر، و هى سنة إحدى و تسعين و ستمائة.

فيها فى يوم الجمعة رابع عشرين صفر ظهر بقلعة الجبل حريق عظيم فى بعض خزائن الخاصّ، و أتلف شيئا عظيما من الذخائر و النفائس و الكتب و غيرها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۴

و فيها توفّى الصاحب تاج الدين أحمد بن [المولى] شرف الدين سعيد ابن شمس الدين محمد بن الأثير الحلبى الكاتب المنشئ. و أولاد ابن الأثير هؤلاء غير بنى الأثير الموصليّين. و كان تاج الدين هذا بارعا فاضلا معظّما فى الدّول باشر الإنشاء بدمشق ثم بمصر للملك الظاهر بيبرس، ثم للملك المنصور قلاوون، و كان له نظم و نثر و لكلامه رونق و طلاوة. و من عجيب ما اتّفق أنّ الأمير عز الدين أيدمر السّنانىّ النّجيبىّ الدّوادار أنشد تاج الدين المذكور عند قدومه إلى القاهرة فى الأيام الظاهريّة أوّل اجتماعه به، و لم يكن يعلم اسمه و لا اسم أبيه، قول الشاعر:

كانت مساءلة الرّكبان تخبرنى عن أحمد بن سعيد أحسن الخبر

حتّى التقينا فلا و اللّه ما سمعت أذنى بأحسن ممّا قد رأى بصرى

فقال له تاج الدين: يا مولانا، أتعرف أحمد بن سعيد؟ فقال: لا، فقال: المملوك أحمد بن سعيد. و لم يزل تاج الدين هذا يترقّى الى أن ولى كتابة السرّ بمصر بعد موت فتح الدين محمد بن عبد الظاهر الآتى ذكره. و لمّا ولى كتابة السرّ سافر مع السلطان الى الديار

المصریّة فأدرکه أجله فمات بغزّة و دفن هناک؛ و ولی بعده کتابة السرّ ابنه عماد الدین إسماعیل مدّة إلی أن عزل بشرف الدین عبد الوهاب بن فضل اللّه العمریّ.

و کان تاج الدین فاضلا نبیلا، و له ید فی النظم و النثر. و من شعره القصیدة التی أوّلها:

أتتنی أیادیک التی لو تصوّرت محاسنها کانت من الأنجم الزّهر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۵

و فیها توفی القاضی فتح الدین محمد ابن القاضی محیی الدین عبد اللّه بن عبد الظاهر ابن نشوان بن عبد الظاهر الجذامیّ الرّوحیّ المصریّ المعروف بابن عبد الظاهر صاحب دیوان الإنشاء و مؤتمن المملکة بالدیار المصریّة. مولده بالقاهرة فی سنة ثمان و ثلاثین و ستمائة و سمع الحدیث و تفقّه و مهر فی الإنشاء، و ساد فی الدولة المنصوریّة قلاوون برأیه و عقله و حسن سیاسته، و تقدّم علی والده فکان والده من جملة الجماعة الذین یصرفهم أمره و نهیه. و قد تقدّم ذکره فی ترجمة الملک المنصور قلاوون و التعریف بحاله. و من شعر فتح الدین المذکور لمّا توجّه إلی دمشق صحبة السلطان و حصل له توعّک فکتب إلی والده یقول:

إن شئت تبصرنی و تبصر حالتی قابل إذا هبّ النسیم قبولا

تلقاه مثلی رقّة و نحافة و لأجل قلبک لا أقول علیلا

فهو الرسول الیک منی لیتنی کنت اتّخذت مع الرسول سبیلا

و له:

ذو قوام یحور منه اعتدال کم طعین به من العشّاق

سلب القضب لینها فهی غیظا واقفات تشکوه بالأوراق

قلت: و أجاد شمس الدین محمد بن العفیف فی هذا المعنی حیث قال:

قدّه حاز اعتدالا فله فتک و نسک

سلب الأغصان لینا فهی بالأوراق تشکو

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۶

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی سیف الدین عبد الرحمن بن محفوظ الرّسعنیّ فی المحرّم. و خطیب دمشق زین الدین عمر بن مکّی الوکیل فی ربیع الأوّل. و المقرئ رضیّ الدین جعفر بن القاسم [المعروف با] بن دبوقا الرّبعیّ فی رجب. و العدل علاء الدین علیّ بن أبی بکر بن أبی الفتح بن محفوظ [بن الحسن] بن صصرّی الضریر فی شعبان. و الموقّعان: سعد الدین [سعد اللّه] ابن مروان الفارقیّ، و فتح الدین محمد بن محیی الدین عبد اللّه بن عبد الظاهر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم سبع أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزیادة سبع عشرة ذراعا سواء.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۲]

السنة الثالثة من ولایة الملک الأشرف خلیل علی مصر، و هی سنة اثنتین و تسعین و ستمائة.

فیها حصل ببلاد غزّة و الرّملة و قاقون و الکرک زلزلة عظیمة، و کان معظم تأثیرها بالکرک بحیث انهدم ثلاثة أبراج من قلعتها، و بنیان کثیر من دورها و أماکنها.

و کانت الزّلزلة المذکورة فی صفر.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۷

و فيها كانت وفاة الأمير الكبير شمس الدين سنقر بن عبد اللّه العلائىّ، ثم الصالحىّ النّجمىّ المعروف بالأشقر، كان من كبار الأمراء ممّن تملّك الشام فى أوائل سلطنة الملك المنصور قلاوون و دعا لنفسه و تلقّب «بالملك الكامل» و خطب له على منابر الشام، و ضرب الدرهم و الدينار باسمه. و قد أوضحنا من أمره نبذة كبيرة فى عدّة مواضع من ترجمة الملك المنصور قلاوون و غيره. و وقع له مع الملك المنصور أمور أسفرت بعد سنين على أنّه دخل تحت طاعته، و صار من جملة أكابر أمرائه. و استمرّ سنقر على ذلك إلى أن مات الملك المنصور قلاوون و ملك بعده ابنه الملك الأشرف خليل صاحب الترجمة؛ قبض عليه فى هذه السنة و خنقه و خنق معه جماعة من الأمراء لأمر اقتضاه رأيه. و الأمراء الذين قتلوا معه مثل: الأمير ركن الدين طقصو الناصرىّ، و جرمك الناصرىّ و بلبان الهارونىّ؛ و كان معهم الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ الذى تسلطن بعد ذلك، فوضع السلطان الوتر فى رقبته لخنقه فانقطع الوتر؛ فقال لاچين: يا خوند، إيش ذنبى! مالى ذنب إلّا أنّ طقصو حموى و أنا أطلّق بنته، فرقّوا له خشداشيته لأمر سبق فى علم اللّه و قبّلوا الأرض و سألوا السلطان فيه، و ضمنه خشداشه الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة، فأطلقه السلطان و أعاده إلى رتبته، و أخذ سنقر الأشقر هذا و دفن بالقرافة. و كان سنقر المذكور أميرا شجاعا مقداما كريما حسن السياسة مهابا جليلا معظّما فى الدّول، و خوطب بالسلطنة سنين عديدة إلى أن ضعف أمره و نزل من قلعة صهيون بالأمان، و قدم على الملك المنصور قلاوون فأكرمه قلاوون، و دام على ذلك إلى أن مات. و كان سنقر شجاعا أشقر عبل البدن جهورىّ الصوت مليح الشكل. رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٣٨

و فيها توفّى الشيخ الصالح القدوة المعتقد شيخ الشام أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ السيد العارف أبى محمد عبد اللّه الأرموىّ بزاويته بجبل قاسيون بعد الظهر و كانت جنازته مشهودة، رحمه اللّه.

و فيها توفّى الصاحب محيى الدين عبد اللّه بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان ابن عبد الظاهر السّعدىّ الموقّع كاتب الإنشاء بالديار المصريّة. و قد تقدّم ذكر ولده القاضى فتح الدين فى السنة الماضية. كان محيى الدين هذا من سادات الكتاب و رؤسائهم و فضلائهم. و مولده فى سنة عشرين و ستمائة بالقاهرة، و مات يوم الأربعاء ثالث شهر رجب و دفن بالقرافة بتربته التى أنشأها. و هو صاحب النظم الرائق و النثر الفائق. و من شعره قوله:

يا قاتلى بجفون قتيلها ليس يقبر

إن صبّروا عنك قلبى فهو القتيل المصبّر

و له و أجاد إلى الغاية:

نسب الناس للحمامة حزنا و أراها فى الشّجو ليست هنالك

خضبت كفّها و طوّقت الجى د و غنّت و ما الحزين كذلك

و له مضمّنا:

لقد قال كعب فى النّبىّ قصيدة و قلنا عسى فى مدحه نتشارك

فإن شملتنا بالجوائز رحمة كرحمة كعب فهو كعب مبارك

.النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٣٩

و له:

سلّفتنا على العقول السّلافه فتقاضت ديونها بلطافه

ضيّفتنا بالنّشر و البشر و اليس ر ألا هكذا تكون الضّيافه

و قد سقنا من ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى» عدّة أخر غير هؤلاء المقطّعات.

و فيها توفّى الأمير علم الدين سنجر بن عبد اللّه الحلبى، الأمير الكبير أحد الموصوفين بالشجاعة و الإقدام، و قد شهد عدّة حروب، و له

مواقف مشهورة مع العدوّ.

و كان أبيض الرأس و اللّحية من أبناء الثمانين، و كان ولى نيابة دمشق فى آخر سنة ثمان و خمسين و ستمائة. و لمّا تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس لم يبايعه سنجر هذا و دعا لنفسه و حلّف الأمراء و تسلطن بدمشق و لقّب «بالملك المجاهد»، فلم يتمّ له ذلك حسب ما تقدّم ذكره فى أوّل ترجمة الملك الظاهر بيبرس، و قبض الظاهر عليه و حبسه مدّة سنين إلى أن مات. و تسلطن بعده ولده الملك السعيد أفرج عنه و أمّره، فدام على ذلك إلى أن تسلطن الملك المنصور قلاوون، و خرج عليه الأمير سنقر الأشقر المقدّم ذكره و تسلطن بدمشق، ندب المنصور لحربه علم الدين سنجر هذا، و أضاف إليه العساكر المصريّة، فخرج إليه و قاتله و كسره و أخرجه من دمشق، ثمّ عاد إلى الديار المصريّة، فأنعم عليه المنصور قلاوون بأشياء كثيرة، ثم خانه و قبض عليه و حبسه إلى أن مات. فلمّا تسلطن ولده الملك الأشرف خليل أفرج عنه و أكرمه و رفع منزلته. و كان سبب مسك قلاوون له أنّه لمّا كسر سنقر الأشقر عظم فى أعين الناس و لهج بعض الناس بتسميته «بالملك المجاهد» كما كان تلقّب أوّلا لمّا ادّعى السلطنة، فبادره قلاوون و قبض عليه. و كان سنجر هذا من بقايا الأمراء الصالحيّة النّجميّة، رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ۴۰

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الشيخ الزاهد إبراهيم ابن العارف الشيخ عبد اللّه الأرمويّ فى المحرّم. و كمال الدين أحمد بن محمد النّصيبيّ الحلبيّ فى المحرّم. و المقرئ جمال الدين إبراهيم بن داود الفاضليّ فى أوّل جمادى الأولى. و الإمام القدوة تقىّ الدين إبراهيم بن علىّ بن الواسطى الحنبليّ فى جمادى الآخرة، و له تسعون سنة. و السيف علىّ بن الرّضى عبد الرحمن المقدسىّ فى شوّال.

و المحدّث التقى عبيد [بن محمد بن عبّاس] الإسعرديّ. و أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم ابن ترجم المصرىّ راوى التّرمذىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا. انتهت ترجمة الملك الأشرف خليل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ۴۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۳]

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الأولى على مصر

هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحيّ النّجميّ الألفيّ سلطان الديار المصريّة و ابن سلطانها، مولده بالقاهرة فى سنة أربع و ثمانين و ستمائة بقلعة الجبل، و والده الملك المنصور قلاوون يحاصر حصن المرقب، و جلس على تخت الملك بعد قتل أخيه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون فى يوم الاثنين رابع عشر المحرّم، و قيل يوم الثلاثاء خامس عشر المحرّم، من سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، لأنّ الملك الأشرف قتل بتروجة فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم و قتل قاتله الأمير بدر الدين بيدرا فى يوم الأحد ثالث عشر المحرّم، ثم اتّفقوا على سلطنة الملك الناصر محمد هذا عوضا عن أخيه، فتمّ له ذلك.

فتكون سلطنته فى أحد اليومين المذكورين تخمينا لما وقع فى ذلك من الاختلاف بين المؤرّخين. انتهى.

و الملك الناصر هذا هو السلطان التاسع من ملوك التّرك بالديار المصريّة، و لما استقر فى السلطنة رتّبوا الأمير زين الدين كتبغا المنصوريّ نائب السلطنة بالديار المصريّة عوضا عن بيدرا، و الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيرا و مدبّرا للمملكه و أتابك العساكر؛ ثم قبضوا على جماعة من قتلة الملك الأشرف خليل حسب ما تقدّم ذكره، و تمّ ذلك و دام إلى العشرين من صفر. فبلغ

الأمير زين الدين كتبغا أنّ الأمير علم الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۲

سنجر الشجاعىّ يريد الوثوب عليه و قبضه و قتله. و كان الذى أخبره بذلک سيف الدين قنقغ التّتارى، و أعلمه بما فى باطن الشجاعىّ؛ و السبب فى اطّلاعه على ما فى باطن الشجاعىّ أنّ هذا قنقغ هاجر من بلاد التّتار فى زمن الملک الظاهر بيبرس، و أقام بمصر و أقطع فى الحلقة فرزقه اللّه تعالى اثنى عشر ولدا كلّهم ذكور، منهم: ستة أولاد فى خدمة الملک الأشرف، و خمسة فى خدمة الشجاعىّ، و واحد منهم صغير؛ و جميع أولاده شباب ملاح من أجمل الناس صورة. و كان لقنقغ هذا منزلة عظيمة عند الشجاعىّ و كلمته مسموعة، و شفاعته مقبولة؛ و له اطّلاع على أمور الدولة بسبب أولاده، فعلم بما دبّره الشجاعىّ، فحملته الجنسيّة حتّى أعلم الأمير كتبغا على ما فى باطن الشجاعىّ؛ فاحترز كتبغا على نفسه و أعلم الأمراء بالخبر، و كان الأمراء كارهين الشجاعىّ. فلمّا كان يوم الخميس ثانى عشرين صفر ركب الأمير كتبغا إلى سوق الخيل فنزل إليه من القلعة أمير يقال له البندقدارىّ و قال له من قبل الشجاعىّ:

أين حسام الدين لاچين المنصورى؟ أحضره الساعة؛ فقال له كتبغا: ما هو عندى، و كان لاچين من يوم قتل الأشرف قد اختفى، و المماليک الأشرفيّة قد أعياهم أمره

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۳

من كثرة التفتيش عليه، فقال له البندقدارىّ: بلى، لاچين عندک، ثم مدّ يده إلى سيفه ليضربه به، فجدب سيف الدين بلبان الأزرق مملوک كتبغا سيفه و علا به البندقدارىّ من ورائه و ضربه ضربة حلّ بها كتفه و يده، ثم إنّهم تكاثروا عليه و أنزلوه عن فرسه و ذبحوه، و همّ مماليک كتبغا. و ذلک فى وسط سوق الخيل، و مال غالب العسكر من الأمراء و المقدّمين و أجناد الحلقة و التتار و الأكراد إلى كتبغا و انضمّوا عليه، و مالت البرجيّة و بعض الخاصّكيّة إلى سنجر الشجاعىّ، لأنّ الشجاعىّ كان أنفق فيهم فى الباطن فى يوم واحد ثمانين ألف دينار، و اتّفق معهم أيضا أنّ كلّ من جاء برأس أمير كان له إقطاعه؛ و كان الاتّفاق معهم أنّه فى يوم الخميس وقت الموكب لمّا يطلع الأمير كتبغا إلى القلعة و يمدّوا السّماط يمسک هو

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۴

و من اتّفق معه من الأمراء يقبضون عليهم. فاستعجل البندقدارىّ و نزل إلى سوق الخيل و فعل ما ذكرناه.

و لمّا وقع ذلک تحقّق الأمراء صحّة ما نقل إليهم الأمير زين الدين كتبغا عن الشجاعىّ، فاجتمع فى الحال الأمراء عند كتبغا بسوق الخيل و ركبت التّتار جميعهم و جماعة من الشّهرزوريّة و الأكراد و جماعة من الحلقة كراهية منهم فى الشجاعىّ، و خرج الشجاعىّ بمن معه إلى باب القلعة، فإنّ إقامته كانت بالقلعة و أمر بضرب الكوسات فضربت، و بقى يطلب أن يطلع إليه أحد من الأمراء و المقدّمين فلم يجبه أحد؛ و كان قد أخرج صحبته الذهب فى الصّرر و بقى كلّ من جاء إليه يعطيه صرّة؛ فلم يجئ إليه إلّا أناس قليلون ما لهم مرتبة. و شرع كتبغا و من معه فى حصار القلعة و قطعوا عنها الماء و بقوا ذلک اليوم محاصرين. فلمّا كان ثانى يوم نزلت البرجيّة من القلعة على حميّة و تلاقوا مع كتبغا و عساكره و صدموه صدمة كسروه فيها كسرة شنيعة و هزموه إلى بئر البيضاء، و توجّه كتبغا إلى جهة بلبيس؛ فلمّا سمعوا باقى الأمراء بذلک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۵

ركب الأمير بدر الدين بيسرىّ المنصورىّ و الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح و بقيّة العساكر المصريّة، و توجهت الجميع إلى نصرة الأمير كتبغا و أصحابه، و قاتلوا المماليک البرجية حتّى كسروهم و ردّوهم إلى أن أدخلوهم إلى قلعة الجبل؛ ثم جدّوا فى حصار القلعة و من فيها، و عاد الأمير كتبغا و قد قوى عضده بخشداشيته و الأمراء؛ و دام الحصار على القلعة إلى أن طلعت الستّ خوند والدة السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون إلى أعلى السّور و كلّمتهم بأن قالت لهم: إيش هو غرضكم حتى إننا نفعله لكم؟ فقالوا: مالنا غرض إلّا مسک الشجاعىّ و إخماد الفتنة، و نحن لو بقيت بنت عمياء من بنات أستاذنا الملک المنصور قلاوون كنّا

مماليكها لا سيما ولده الملك الناصر محمد حاضر و فيه كفاية. فلمّا علمت ذلك رجعت و اتّفقت مع الأمير حسام الدين لاچين أستاذ الدار، و غلقوا باب القلّة من القلعة و هى التى عليها المعتمد، و بقى الشجاعى بداره بالقلعة محصورا. فلمّا رآه أصحابه أنّه فى أنحس حال شرعوا فى النزول إلى عند الأمير كتبغا، فبقى جمع الشجاعىّ يقلّ و جمع كتبغا يكثر إلى يوم السبت رابع عشرين صفر ضجر الشجاعىّ و طلب الأمان فلم يوافقوه الأمراء؛ و طلع وقت صلاة الظهر بعض الأمراء و جماعة من الخاصّكيّة و فيهم آقوش المنصورىّ إلى عند الشجاعى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۶

يطلبونه إلى عند السلطان و إلى والدته [فى] صورة أنهم يريدون يستشيرونه فيما يعملون، فمشى معهم قليلا و تكاثروا عليه المماليک و جاء آقوش من ورائه و ضربه بالسيف ضربة قطع بها يده، ثم بادره بضربة ثانية أبرى بها رأسه عن جسده، و أخذوا رأسه فى الحال و رفعوه على سور القلعة، ثم عادوا و نزلوا [به] إلى كتبغا و دقّوا البشائر و فتحوا باب القلّة، و أخذوا رأس الشجاعىّ و جعلوه على رمح و أعطوه للمشاعليّة فجبوا عليه مصر و القاهرة، فحصّل المشاعليّة مالا كثيرا لبغض الناس قاطبة فى الشجاعىّ؛ فقيل: إنهم كانوا يأخذون الرأس من المشاعليّة و يدخلونه بيتهم فتضربه النسوة بالمداسات لما فى نفوسهم منه. و سبب ذلک ما كان اشتمل عليه من الظلم و مصادراته للعالم و تنوّعه فى الظلم و العسف حسب ما يأتى ذكره فى الوفيات بأوسع من هذا. و أغلقت القاهرة خمسة أيام إلى أن طلع كتبغا إلى القلعة فى يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر و دقّت البشائر و فتحت الأبواب و جدّدت الأيمان و العهود للملک الناصر محمد بن قلاوون و أن يكون الأمير كتبغا نائب السلطنة.

و لمّا تمّ ذلک قبض كتبغا على جماعة من الخاصّكيّة و البرجيّة المتّفقين مع الشجاعىّ، ثم أفرج عن جماعة من الأمراء كان قبض عليهم فى المخيم، و هم: الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الذى تسلطن بعد ذلک على ما يأتى ذكره، و الأمير سيف الدين برلغى، و الأمير القمامىّ و سيف الدين قبجق المنصورىّ، و الأمير بدر الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۷

عبد اللّه، و الأمير سيف الدين بورى [السلاح دار] و الأمير زين الدين عمر، و الأمير سيف الدين قرمشى، و الأمير علاء الدين مغلطاى المسعودىّ و غيرهم. و أخذ الأمير زين الدين كتبغا و أعطى فى الملک و انفرد بتدبير الأمر و مشى مع الملک الناصر محمد مشى المملوک مع أستاذه.

ثمّ بعث بتقليد نائب الشام على عادته، و هو الأمير أيبک الحموىّ. ثم بعد ذلک نزل السلطان الملک الناصر محمد بن قلعة الجبل فى موكب هائل بأبّهة السلطنة، و توجّه إلى ظاهر القاهرة ثمّ عاد و شقّ القاهرة، و دخل من باب النصر و خرج من باب زويلة عائدا إلى القلعة، و الأمراء مشاة بين يديه حتّى الأمير كتبغا، و كان ذلک فى يوم الأحد رابع عشرين شهر رجب. و لمّا كان سابع عشرين شهر رمضان ظهر الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ من اختفائه و اجتمع بالأمير كتبغا خفية،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۸

فتكلّم كتبغا فى أمره مع الأمراء، فاتّفقوا على إظهار أمره لما رأوا فى ذلک من إصلاح الحال، فطيّب كتبغا خاطر الأمير حسام الدين لاچين و وعده أن يتكلّم فى أمره مع السلطان و المماليک الأشرفيّة. و لا زال كتبغا بالسلطان و الحاشية حتى رضّاهم عليه و طيّب قلوبهم إلى أن كان يوم عيد الفطر، ظهر حسام الدين لاچين من دار كتبغا، و حضر السّماط و قبّل الأرض بين يدى السلطان الملک الناصر محمد، فخلع عليه السلطان و طيب قلبه، و لم يعاتبه بما فعل مع أخيه الملک الأشرف خليل مراعاة لخاطر كتبغا. ثم خلع عليه الأمير كتبغا أيضا، و حملت إليه الهدايا و التّحف من الأمراء و غيرهم؛ كلّ ذلک لأجل خاطر كتبغا. و اصطلحت أيضا معه المماليک الأشرفيّة على ما فى نفوسهم منه من قتل أستاذهم بأمر كتبغا لهم و إلحاحه عليهم فى ذلک حتى قبلوا كلامه. و كانت مكافأة لاچين لكتبغا بعد هذا الإحسان كله بأن دبّر عليه حتّى أخذ الملک منه و تسلطن عوضه على ما يأتى ذكره و بيانه إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ خلع السلطان على الصاحب تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنّا باستقراره فى الوزارة بالديار المصريّة.

ثمّ استهلت سنة أربع و تسعين و ستمائة و الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبو العبّاس أحمد. و سلطان مصر و الشام الملک الناصر محمد بن قلاوون، و مدبّر مملکته الأمير کتبغا المنصورىّ. و لمّا کان عاشر المحرّم ثار جماعة من المماليک الأشرفيّة خليل فى الليل بمصر و القاهرة و عملوا عملا قبيحا و فتحوا أسواق السلاح بالقاهرة بعد حريق باب السعادة، و أخذوا خيل السلطان و خرقوا ناموس الملک، و ذلک کلّه بسبب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۹

ظهور الأمير حسام الدين لاچين و عدم قتله؛ فإنّه کان ممّن باشر قتل أستاذهم الملک الأشرف خليل، فحماه الأمير کتبغا و رعاه، و أيضا قد بلغهم خلع أخى أستاذهم الملک الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة و سلطنة کتبغا فتزايدت وحشتهم و ترادفت عليهم الأمور، فاتّفقوا و وثبوا فلم ينتج أمرهم. فلمّا أصبح الصباح قبض عليهم الأمير کتبغا و قطع أيدى بعضهم و أرجلهم و کحّل البعض و قطع ألسنة آخرين و صلب جماعة منهم على باب زويلة؛ ثم فرّق بقيّة المماليک على الأمراء و المقدّمين، و کانوا فوق الثلاثمائة نفر و هرب الباقون؛ فطلب الأمير زين الدين کتبغا الخليفة و القضاة و الأمراء و تکلّم معهم فى عدم أهليّة الملک الناصر محمد للسلطنة لصغر سنّه، و أنّ الأمور لابدّ لها من رجل کامل تخافه الجند و الرعيّة و تقف عند أوامره و نواهيه.

کلّ ذلک کان بتدبير لاچين فإنّه لمّا خرج من إخفائه علم أنّ المماليک الأشرفيّة لا بدّ لهم من أخذ ثار أستاذهم منه. و أيضا أنّه علم أنّ الملک الناصر محمد متى ترعرع و کبر لا يبقيه لکونه کان ممّن قتل أخاه الملک الأشرف خليلا، فلمّا تحقق ذلک أخذ يحسّن للأمير کتبغا السلطنة و خلع ابن استاذه الملک الناصر محمد بن قلاوون و سلطنته، و کتبغا يمتنع من ذلک فلا زال به لاچين حتّى حذّره و أخافه عاقبة ذلک، و قال له:

متى کبر الملک الناصر لا يبقيک البتّة، و لا يبقى أحدا ممّن تعامل على قتل أخيه الملک الأشرف، و أنّ هؤلاء الأشرفيّة ما دام الملک الناصر محمد فى الملک شوکتهم قائمة، و المصلحة خلعه و سلطنتک. فمال کتبغا إلى کلامه، غير أنّه أهمل الأمر و أخذ فى تدبير ذلک على مهل. فلمّا وقع من الأشرفيّة ما وقع وثب و طلب الخليفة و القضاة حسب ما ذکرناه. و لمّا حضر الخليفة و القضاة و اتّفق رأى الأمراء و الجند على خلع السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون من الملک و سلطنة کتبغا هذا عوضه؛ فوقع ذلک و خلع الملک الناصر محمد من السلطنة و تسلطن کتبغا و جلس على تخت الملک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۰

فى يوم خلع الملک الناصر، و هو يوم الخميس ثانى عشر المحرّم سنة أربع و تسعين و ستمائة بعد واقعة المماليک الأشرفيّة بيومين، و أدخل الملک الناصر محمد بن قلاوون إلى الدور بالقلعة، و أمره کتبغا بألّا يرکب و لا يظهر. و کان عمره يوم خلع نحو العشر سنين.

و کانت مدّة سلطنته فى هذه المرّة الأولى سنة واحدة إلا ثلاثة أيام أو أقلّ. و يأتى بقية ترجمته فى سلطنته الثانية و الثالثة إن شاء اللّه تعالى.

السنة الأولى من سلطنة الملک الناصر محمد الأولى على مصر على أنّه لم يکن له من السلطنة فيها إلّا مجرّد الاسم فقط، و إنّما کان الأمر أوّلا للأمير علم الدين سنجر الشجاعى ثم للأمير کتبغا المنصورىّ، و هى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، على أنّ الأشرف قتل فى أوائلها فى المحرّم حسب ما تقدّم ذکره.

فيها توفّى الصاحب فخر الدين أبو العبّاس إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الشّيبانىّ الإسعردىّ ثم المصرىّ، رئيس الموقّعين بالديار المصريّة، ثم الوزير بها ولى الوزارة مرّتين، و کان مشکور السّيرة قليل الظّلم کثير العدل و الإحسان للرعيّة.

و فى أيام وزارته سعى فى إبطال مظالم کثيرة، و کان يتولّى الوزارة بجامکيّة الإنشاء، و عند ما يعزلونه من الوزارة يصبح يأخذ غلامه

الحرمدان خلفه، و يروح يقعد فى ديوان الإنشاء و كأنّه ما تغيّر عليه شيء، و كان أصله من العدن من بلاد إسعرد و تدرّب فى الإنشاء بالصاحب بهاء الدين زهير حتى برع فى الإنشاء و غيره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۱

قال الذهبىّ: رأيته شيخا بعمامة صغيرة و قد حدّث عن ابن رواح و كتب عنه البرزالىّ و الطّلبة. انتهى. و كان ابن لقمان المذكور فاضلا ناظما ناثرا مترسّلا، و مات بالقاهرة فى جمادى الآخرة و دفن بالقرافة. و من شعره:

كن كيف شئت فإنّنى بك مغرم راض بما فعل الهوى المتحكّم

و لئن كتمت عن الوشاة صبابتى بك فالجوانح بالهوى تتكلّم

أشتاق من أهوى و أعجب أنّنى أشتاق من هو فى الفؤاد مخيّم

يا من يصدّ عن المحبّ تدلّلا و إذا بكى وجدا غدا يتبسّم

أسكنتك القلب الذى أحرقته فحذار من نار به تتضرّم

و فيها قتل الأمير علم الدين سنجر بن عبد اللّه الشّجاعىّ المنصورىّ، كان من مماليك الملك المنصور قلاوون، و ترقّى حتّى ولى شدّ الدواوين، ثم الوزارة بالديار المصريّة فى أوائل دولة الناصر، و ساءت سيرتة و كثر ظلمه، ثم ولى نيابة دمشق فتلطّف بأهلها و قلّ شرّه، و دام بها سنين إلى أن عزل بالأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ، و قدم إلى القاهرة. و كان موكبه يضاهى موكب السلطان من التجمّل، و مع ظلمه كان له ميل لأهل العلم و تعظيم الإسلام، و هو الذى كان مشدّ عمارة البيمارستان المنصورىّ ببين القصرين فتمّمه فى مدّة يسيرة، و نهض بهذا العمل العظيم و فرغ منه فى أيّام قليلة، و كان يستعمل فيه الصنّاع و الفعول بالبندق حتّى لا يفوته من هو بعيد عنه فى أعلى سقالة كان. و يقال إنّه يوما وقع بعض الفعول من أعلى السقالة بجنبه فمات، فما اكترث سنجر هذا و لا تغيّر من مكانه و أمر بدفنه. ثم عمل الوزارة أيضا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۲

فى أوائل دولة الناصر محمد بن قلاوون أكثر من شهر حسب ما تقدّم ذكره، و حدّثته نفسه بما فوق الوزارة، فكان فى ذلک حتفه و قتله حسب ما ذكرناه فى أوّل ترجمة الملک الناصر هذا، و فرح أهل مصر بقتله فرحا زائدا حتّى إنّه لمّا طافت المشاعليّة برأسه على بيوت الكتّاب القبط بلغت اللّطمة على وجهه بالمداس نصفا، و البولة عليه درهما، و حصّلوا المشاعليّة جملا من ذلک.

قلت: و هذا غلط فاحش من المشاعليّة، قاتلهم اللّه! لو كان من الظلم ما كان هو خير من الأقباط النصارى. و لمّا كان على نيابة دمشق وسّع ميدانها أيّام الملک الأشرف، فقال الأديب علاء الدين الوداعىّ فى ذلک:

علم الأمير بأنّ سلطان الورى يأتى دمشق و يطلق الأموالا

فلأجل ذا قد زاد فى ميدانها لتكون أوسع للجواد مجالا

قال الصلاح الصّفدىّ: أخبرنى من لفظه شهاب الدين بن فضل اللّه قال أخبرنى والدى عن قاضى القضاة نجم الدين ابن الشيخ شمس الدين شيخ الجبل قال: كنت ليلة نائما فاستيقظت و كأن من أنبهنى و أنا أحفظ كأنّما قد أنشدت ذلک:

عند الشجاعىّ أنواع منوّعة من العذاب فلا ترحمه بالله

لم تغن عنه ذنوب قد تحمّلها من العباد و لا مال و لا جاه

قال: ثم جاءنا الخبر بقتله بعد أيام قلائل فكانت قتلته فى تلک الليلة التى أنشدت فيها الشعر. انتهى.

قلت: و هذا من الغرائب. و قد ذكرنا من أحوال سنجر هذا فى تاريخنا المنهل الصافى نبذة كبيرة كونه كتاب تراجم و ليس للإطناب لهؤلاء هنا محلّ. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۳

و فيها توفّى قتيلا الملك كيختو ملك التّتار قتله ابن أخيه بيدو.

قلت: و هنا نكتة غريبة لم يفطن إليها أحد من مؤرّخى تلك الأيام، و هى أنّ سلطان الديار المصرية الملك الأشرف خليل بن قلاوون قتله نائبه الأمير بيدرا، و ملك التتار كيختو هذا أيضا قتله ابن أخيه بيدرا، و كلاهما فى سنة واحدة، و ذاك فى الشرق و هذا فى الغرب. انتهى.

و ملك بعد كيختو بيدو المذكور الذى قتله.

قلت: و كذلك وقع للأشرف خليل؛ فإن بيدرا ملك بعده يوما واحدا و تلقّب بالملك الأوحد. و على كلّ حال فإنّهما تشابها أيضا. انتهى. و كان بيدو الذى ولى أمر التّتار يميل إلى دين النّصرانيّة، و قيل إنه تنصّر، لعنه اللّه، و وقع له مع الملك غازان أمور يطول شرحها.

و فيها قتل الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن أبى الرجاء التّنوخيّ الدمشقيّ التاجر المعروف بابن السّلعوس. قال الشيخ صلاح الدين الصّفدى: كان فى شبيبته يسافر بالتجارة، و كان أشقر سمينا أبيض معتدل القامة فصيح العبارة حلو المنطق وافر الهيبة كامل الأدوات خليقا للوزارة تامّ الخبرة زائد الإعجاب عظيم التّيه، و كان جارا للصاحب تقىّ الدين البيّع، فصاحبه و رأى فيه الكفاءة فاخذ له حسبة دمشق، ثم توجّه إلى مصر و توكّل للملك الأشرف خليل فى دولة أبيه، فجرى عليه نكبة من السلطان فشفع فيه مخدومه الأشرف خليل، و أطلقه من الاعتقال، و حج فتملّك الأشرف فى غيبته. و كان محبّا له فكتب إليه بين الأسطر: يا شقير، يا وجه الخير، قدّم السّير. فلمّا قدم وزره. و كان إذا ركب تمشى الأمراء الكبار فى خدمته. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۴

قلت: و كان فى أيام وزارته يقف الشجاعيّ المقدّم ذكره فى خدمته، فلمّا قتل مخدومه الملك الأشرف و هو بالإسكندريّة قدم القاهرة فطلب إلى القلعة فأنزله الشجاعيّ من القلعة ماشيا، ثم سلّمه من الغد إلى عدوّه الأمير بهاء الدين قراقوش [الظاهرىّ] مشدّ الصّحبة، قيل: إنّه ضربه ألفا و مائة مقرعة، ثم تداوله المسعوديّ و غيره و أخذ منه أموالا كثيرة، و لا زال تحت العقوبة حتى مات فى صفر. و لما تولّى الوزارة كتب إليه بعض أحبّائه من الشام يحذّره من الشجاعيّ:

تنبّه يا وزير الأرض و اعلم بأنّك قد وطئت على الأفاعى

و كن بالله معتصما فإنّى أخاف عليك من نهش الشجاعى

فبلغ الشجاعيّ، فلما جرى ما جرى طلب أقاربه و أصحابه و صادرهم، فقيل له:

عن الناظم، فقال: لا أوذيه فإنّه نصحه فىّ و ما انتصح. و قد أوضحنا أمره فى المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى بأطول من هذا. انتهى.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المقرئ شمس الدين محمد بن عبد العزيز الدّمياطيّ بدمشق فى صفر. و قاضى القضاة شهاب الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن خليل الخويّيّ. و السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن قلاوون، فتكوا به فى المحرّم. و نائبه بيدرا قتل من الغد. و وزيره الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن السّلعوس هلك تحت العذاب.

أمر النيل فى هذه السنة– الماء القديم أربع أذرع. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و سبع أصابع. و ثبت إلى سادس عشر توت.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۴]

ذكر سلطنة الملك العادل زين الدّين كتبغا على مصر

هو السلطان الملک العادل زین الدین کتبغا بن عبد اللّه المنصوریّ الترکیّ المغلیّ سلطان الدیار المصریّة؛ جلس علی تخت الملک بعد أن خلع ابن أستاذه الملک الناصر محمد بن قلاوون فی یوم الخمیس ثانی عشر المحرّم سنة أربع و تسعین و ستّمائة باتّفاق الأمراء علی سلطنته. و هو السلطان العاشر من ملوک التّرک بالدیار المصریّة، و أصله من التّتار من سبی وقعة حمص الأولی التی کانت فی سنة تسع و خمسین و ستمائة؛ فأخذه الملک المنصور قلاوون و أدّبه ثم أعتقه؛ و جعله من جملة ممالیکه، و رقّاه حتّی صار من أکابر أمرائه، و استمرّ علی ذلک فی الدولة الأشرفیّة خلیل بن قلاوون إلی أن قتل، و تسلطن أخوه الملک الناصر محمد بن قلاوون فی سنة ثلاث و تسعین و أقام الناصر فی الملک إلی سنة أربع و تسعین و وقع الاتفاق علی خلعه و سلطنة کتبغا هذا، فتسلطن و تلقّب بالملک العادل، و سنّه یوم ذاک نحو الأربعین سنة، و قیل خمسین سنة. و قد تقدّم سبب خلع الملک الناصر محمد و سلطنة کتبغا هذا فی آخر ترجمة الملک الناصر محمد فلا حاجة فی الإعادة.

و قال الشیخ شمس الدین بن الجزریّ قال: حکی لی الشیخ أبو الکرم النّصرانیّ الکاتب، قال: لمّا فتح هولاکو حلب بالسیف و دمشق بالأمان طلب هولاکو نصیر الدین الطّوسیّ و کان فی صحبته، و قال له: اکتب أسماء مقدّمی عسکری، و أبصر أیّهم یملک مصر، و یقعد علی تخت الملک بها حتّی أقدّمه؟ قال: فحسب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۶

نصیر الدّین [أسماء] المقدّمین؛ فما ظهر له من الأسماء اسم من یملک الدیار المصریّة غیر اسم کتبغا. و کان کتبغا صهر هولاکو، فقدّمه علی العساکر فتوجّه بهم کتبغا فآنکسر علی عین جالوت، فتعجّب هولاکو من هذه الواقعة و ظنّ أنّ نصیر الدین قد غلط فی حسابه. و کان کتبغا هذا من جملة من کان فی عسکر هولاکو من التّتار ممّن لا یؤبه إلیه من الأصاغر، و کسبه قلاوون فی الواقعة؛ فکان بین المدّة نحو من خمس و ثلاثین سنة، حتّی قدّر اللّه تعالی بما قدّر من سلطنة کتبغا هذا. انتهی.

و لمّا تمّ أمر کتبغا فی الملک و تسلطن مدّ سماطا عظیما و أحضر جمیع الأمراء و المقدّمین و العسکر و أکلوا السّماط، ثم تقدّموا و قبّلوا الأرض ثم قبّلوا یده و هنّئوه بالسلطنة، و خلع علی الأمیر حسام الدین لاچین و ولّاه نیابة السلطنة بالدیار المصریّة، و ولّی عز الدین الأفرم أمیر جاندار، و الأمیر سیف الدین بهادر حاجب الحجّاب؛ ثم خلع علی جمیع الأمراء و المقدّمین و من له عادة بلبس الخلع [عند تولیة الملک کما جرت العادة]. و فی یوم الخمیس تاسع عشر المحرّم رکب جمیع الأمراء و المقدّمین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۷

و جمیع من خلع علیه و أتوا إلی سوق الخیل و ترجّلوا و قبّلوا الأرض، ثم کتب بسلطنة الملک العادل إلی البلاد الشامیّة و غیرها. و زیّنت مصر و القاهرة لسلطنته.

و لمّا کان یوم الأربعاء مستهلّ شهر ربیع الأوّل رکب السلطان الملک العادل کتبغا بأبّهة السلطنة و شعار الملک من قلعة الجبل و نزل و سار إلی ظاهر القاهرة نحو قبّة النصر، و عاد من باب النصر و شقّ القاهرة حتّی خرج من باب زویلة عائدا إلی قلعة الجبل، کما جرت العادة برکوب الملوک. و لم تطل مدّة سلطنته حتی وقع الغلاء و الفناء بالدیار المصریة و أعمالها؛ ثمّ انتشر ذلک بالبلاد الشامیّة جمیعها فی شوّال من هذه السنة، و ارتفع سعر القمح حتّی بیع کلّ اردبّ بمائة و عشرین درهما بعد أن کان بخمسة و عشرین درهما الإردبّ، و هذا فی هذه السنة، و أما فی السنة الآتیة التی هی سنة خمس و تسعین و ستمائة فوصل سعر القمح إلی مائة و ستین درهما الإردبّ.

و أمّا الموت فإنّه فشا بالقاهرة و کثر، فأحصی من مات بها و ثبت اسمه فی دیوان [المواریث] فی ذی الحجّة فبلغوا سبعة عشر ألفا و خمسمائة. و هذا سوی من لم یرد اسمه فی دیوان المواریث من الغرباء و الفقراء و من لم یطلق من الدیوان. و رحل جماعة کثیرة من أهل مصر عنها إلی الأقطار من عظم الغلاء و تخلخل أمر الدیار المصریّة. و فی هذه السنة حجّ الأمیر أنس بن الملک العادل کتبغا صاحب الترجمة، و حجّت معه والدته و أکثر حرم السلطان، و حجّ بسببهم خلق کثیر من نساء الأمراء

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج‌۸، ص: ۵۸

بتجمّل زائد، و حصل بهم رفق کبیر لأهل مکّة و المدینة و المجاورین، و شکرت سیرة ولد السلطان أنس المذکور و بذل شیئا کثیرا لصاحب مکّة.

ثم استهلّت سنة خمس و تسعین و ستمائة و خلیفة المسلمین الحاکم بأمر اللّه أبو العبّاس أحمد الهاشمیّ البغدادیّ العباسیّ. و سلطان الدیار المصریّة و البلاد الشامیّة و الشمالیّة و الفراتیّة و الساحلیّة الملک العادل زین الدین کتبغا المنصوریّ. و وزیره الصاحب فخر الدین عمر ابن الشیخ مجد الدین بن الخلیلیّ. و نائب السلطنة بالدیار المصریّة الأمیر حسام الدین لاچین المنصوریّ. و صاحب مکّة، شرّفها اللّه تعالی، الشریف نجم الدین أبو نمیّ محمد الحسنیّ المکّی. و صاحب المدینة النبویّة، علی ساکنها أفضل الصلاة و السلام، عزّ الدین جمّاز بن شیحة الحسینیّ.

و صاحب الیمن ممهّد الدین عمر ابن الملک المظفّر شمس الدین یوسف ابن الملک المنصور عمر [بن علیّ] بن رسول. و صاحب حماة بالبلاد الشامیّة الملک المظفّر تقیّ الدین محمود ابن الملک المنصور ناصر الدین محمد ابن الملک المظفّر تقیّ الدین محمود [ابن الملک المنصور محمد بن تقی الدین عمر] بن شاهنشاه بن أیّوب. و صاحب ماردین [الملک السعید شمس الدین داود ابن] الملک المظفّر فخر الدین ألبی أرسلان ابن الملک السعید شمس الدین قرا أرسلان بن أرتق الأرتقیّ. و صاحب الروم السلطان غیاث الدین مسعود ابن السلطان عز الدین [کیکاوس] ابن السلطان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج‌۸، ص: ۵۹

غیاث الدین کیخسرو بن سلجوق السّلجوقی. و ملک التّتار غازان و یقال قازان، و کلاهما یصحّ معناه، و اسمه الحقیقیّ محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاکو، و هو مظهر الإسلام و شعائر الإیمان. و نائب دمشق الأمیر عزّ الدین أیبک الحمویّ المنصوریّ.

و کان الموافق لأوّل هذه السنة عاشر بابه أحد شهور القبط المسمّی بالرومیّ تشرین الأوّل.

و قال الشیخ قطب الدین الیونینیّ: و فی العشر الأوّل من المحرّم حکی جماعة کثیرة من أهل دمشق و استفاض ذلک فی دمشق و کثر الحدیث فیه عن قاضی جبّة أعسال، و هی قریة من قری دمشق، أنّه تکلّم ثور بقریة من قری جبّة أعسال، و ملخّصها: أنّ الثور خرج مع صبیّ یشرب ماء من هناک فلمّا فرغ حمد اللّه تعالی فتعجّب الصبی! و حکی لسیّده مالک الثور فشکّ فی قوله، و حضر فی الیوم الثانی بنفسه، فلمّا شرب الثور حمد اللّه تعالی؛ ثم فی الیوم الثالث حضر جماعة و سمعوه یحمد اللّه تعالی؛ فکلّمه بعضهم فقال الثور: «إنّ اللّه کان کتب علی الأمّة سبع سنین جدبا، و لکن بشفاعة النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم أبدلها بالخصب، و ذکر أنّ النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم أمره بتبلیغ ذلک، و قال الثور: یا رسول اللّه ما علامة صدقی عندهم؟ قال: أن یموت عقب الإخبار. قال الحاکی لذلک: ثم تقدّم الثور علی مکان عال فسقط میتا، فأخذ الناس من شعره للتّبرّک، و کفّن و دفن. انتهی.

قلت: و هذه الحکایة غریبة الوقوع و الحاکی لها ثقة حجّة، و قد قال: إنّه استفاض ذلک بدمشق. انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج‌۸، ص: ۶۰

و أمّا أمر الدیار المصریّة فإنه عظم أمر الغلاء بها حتّی أکل بعضهم المیتات و الکلاب، و مات خلق کثیر بالجوع. و الحکایات فی ذلک کثیرة، و انتشر الغلاء شرقا و غربا. و بینما السلطان الملک العادل کتبغا فیما هو فیه من أمر الغلاء ورد علیه الخبر فی صفر بأنّه قد وصل إلی الرّحبة عسکر کثیر نحو عشرة آلاف بیت من عسکر بیدو ملک التّتار طالبین الدخول فی الإسلام خوفا من السلطان غازان، و مقدّمهم أمیر اسمه طرغای، و هو زوج بنت هولاکو؛ فرسم الملک العادل إلی الأمیر علم الدین سنجر [الدواداری] بأن یسافر من دمشق إلی الرّحبة حتّی یتلقاهم، فخرج إلیهم، ثم خرج بعده الأمیر سنقر الأعسر شادّ دواوین دمشق، ثم ندب الملک العادل أیضا الأمیر قرا سنقر المنصوریّ بالخروج من القاهرة، فخرج حتّی وصل إلی دمشق لتلقی المذکورین، و رسم له أن یحضر معه فی عوده إلی مصر جماعة من أعیانهم، فوصل قرا سنقر إلی دمشق و خرج لتلقّیهم، ثم عاد إلی دمشق فی یوم الاثنین ثالث عشرین شهر ربیع الأوّل، و معه

من أعيانهم مائة فارس و ثلاثة عشر فارسا؛ و فرح الناس بهم و بإسلامهم و أنزلوهم بالقصر الأبلق من الميدان.

و أمّا الأمير علم الدين سنجر الدّوادارى فبقى مع الباقين، و هم فوق عشرة آلاف ما بين رجل كبير و كهل و صغير و امرأة و معهم ماشية كثيرة و رخت عظيم، و أقام قرا سنقر بهم أيّاما، ثم سافر بهم إلى جهة الديار المصرية، و قدموا القاهرة فى آخر شهر ربيع الآخر، فأكرمهم السلطان الملك العادل كتبغا و رتّب لهم الرواتب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج٨؛ ص ٦٠

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٦١

ثمّ بدا للملك العادل كتبغا السفر إلى البلاد الشاميّة لأمر مقدّر اقتضاه رأيه، و أخذ فى تجهيز عساكره و تهيّأ للسفر، و خرج بجميع عساكره و أمرائه و خاصّكيته فى يوم السبت سابع عشر شوّال و سار حتّى دخل دمشق، فى يوم السبت خامس عشر ذى القعدة و خامس ساعة من النهار المذكور و دخل دمشق و الأمير بدر الدين بيسرى حامل الجتر على رأسه، و نائب سلطنته الأمير حسام الدين لاچين المنصورى ماشيا بين يديه، و وزيره الصاحب فخر الدين بن الخليلىّ، و احتفل أهل دمشق لقدومه و زيّنت المدينة و فرح الناس به.

و لمّا دخل الملك العادل إلى دمشق و أقام بها أيّاما عزل عنها نائبها الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ، و ولّى عوضه فى نيابة دمشق مملوكه الأمير سيف الدين أغزلوا العادلى و عمره نحو من اثنتين و ثلاثين سنة، و أنعم على الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ بخبز أغزلو بمصر، و خرجا من عند السلطان و عليهما الخلع، هذا متولّ و هذا منفصل. ثم سافر السلطان الملك العادل من دمشق فى ثانى عشر ذى الحجّة بأكثر العسكر المصرىّ و بقيّة جيش الشام إلى جهة قرية جوسية، و هى ضيعة اشتراها له الصاحب شهاب الدين الحنفىّ فتوجّه إليها، ثم سافر منها فى تاسع عشر ذى الحجّة إلى حمص و نزل عند البحرة بالمرج بعد ما أقام فى البريّة أيّاما لأجل الصيد، و حضر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٦٢

إليه نوّاب البلاد الحلبيّة جميعها؛ ثم عاد إلى دمشق و دخلها بمن معه من العساكر ضحا نهار الأربعاء ثانى المحرّم من سنة ست و تسعين و ستمائة. و أقام بدمشق إلى يوم الجمعة رابع المحرّم ركب السلطان الملك العادل المذكور بخواصّه و أمرائه إلى الجامع لصلاة الجمعة فحضر و صلّى بالمقصورة؛ و أخذ من الناس قصصهم حتى إنّه رأى شخصا بيده قصّة فتقدّم إليه بنفسه خطوات و أخذها منه؛ و لمّا جلس الملك العادل للصلاة بالمقصورة جلس عن يمينه الملك المظفّر تقىّ الدين محمود صاحب حماة، و تحته بدر الدّين أمير سلاح، ثم من تحته نائب دمشق أغزلو العادلىّ؛ و عن يسار السلطان الشيخ حسن بن الحريرى و أخواه، ثم نائب السلطنة لاچين المنصورىّ، ثم تحته نائب دمشق الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ (أعنى الذى عزل عن نيابة دمشق)، ثم من تحته الأمير بدر الدين بيسرى، ثم قرا سنقر المنصورى، ثم الحاج بهادر حاجب الحجّاب؛ ثم الأمراء على مراتبهم ميمنة و ميسرة.

فلمّا انقضت الصلاة خرج من الجامع و الأمراء بين يديه و الناس يبتهلون بالدعاء له، و أحبّه أهل دمشق و شكرت سيرته، و حمدت طريقته. ثم فى يوم الخميس سابع عشر المحرّم أمسك السلطان الأمير أسندمر و قيّده و حبسه بالقلعة. و فى يوم الاثنين حادى عشرين المحرّم عزل السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأعسر عن شدّ دواوين دمشق و رسم له بالسفر صحبة السلطان إلى مصر، و ولّى عوضه فتح الدين ابن صبرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٦٣

و لمّا كان بكرة يوم الاثنين المذكور خرج السلطان الملك العادل من دمشق بعساكره و جيوشه نحو الديار المصريّة، و سار حتى نزل باللّجّون بالقرب من وادى فحمة فى بكرة يوم الاثنين ثامن عشرين المحرّم من سنة ست و تسعين، و كان الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ نائب السلطنة قد اتّفق مع الأمراء على الوثوب على السلطان الملك العادل كتبغا هذا و الفتك به، فلم يقدر عليه لعظم شوكته؛ فدبّر أمرا آخر و هو أنّه ابتدأ أوّلا بالقبض على الأميرين: بتخاص و بكتوت الأزرق العادليين، و كانا شهمين شجاعين عزيزين

عنـد أسـتاذهما الملك العادل المذكور، فركب لاچين بمن وافقه من الأمراء على حين غفلة و قبض على الأميرين المذكورين و قتلهما فى الحال، و قصـد مخيّم السـلطان فمنعه بعض مماليک السـلطان قليلا و عوّقوه عن الوصول إلى الملك العادل. و كان العادل لمّا بلغه هـذا الأمر علم أنّه لاـ قبل له على قتال لاچين لعلمه بمن وافقه من الأمراء و غيرهم و خاف على نفسه، و ركب من خيل النّوبـة فرسا تسـمّى حمامة و ساق لقلّة سعده و لزوال ملكه راجعا إلى الشام، و لو أقام بمخيّمه لم يقدر لاچين على قتاله و أخذه، فما شاء اللّه كان! و ساق حتى وصل إلى دمشق يوم الأربعاء آخر المحرّم قرب العصر، و معه أربعة أو خمسة من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۴

خواصّه. و كـان وصـل إلى دمشق يوم الأربعـاء آخر المحرّم أوّل النهـار أمير شـكار السـلطان، و أخبر نـائب الشـام بصورة الحـال و هو مجروح، فتهيـأ نـائب الشام الأمير أغزلو العادلىّ و استعدّ و أحضـر أمراء الشام عنـد السـلطان و رسم بالاحتياط على نوّاب الأمير حسام الـدين لاچين و على حواصـله بـدمشق، و نـدم الملك العادل على ما فعله مع لاچين هـذا من الخير و المدافعة عنه، من كونه كان أحد من أعانه على قتل الأشرف، و على أنّه ولّاه نيابة السلطنة، و فى الجملة أنّه ندم حيث لا ينفعه الندم! و على رأى من قال ": أشبعتهم سبّا و فازوا بالإبل "و مثله أيضا قول القائل:

من راقب الناس مات غمّا و فاز باللّذة الجسور

ثم إنّ الملك العادل طلب قاضـى قضاة دمشق بدر الدين بن جماعة فحضر بين يدى السلطان هو و قاضى القضاة حسام الدين الحنفىّ، و حضرا عند الملك العادل تجليف الأمراء و المقدّمين و تجديد المواثيق منهم، و وعدهم و طيّب قلوبهم.

و أمّا الأمير حسام الدين لاچين فإنّه استولى على دهليز السـلطان و الخزائن و الحرّاس و العساكر من غير ممانع، و تسلطن فى الطريق و لقّب بالملك المنصور حسام الدين لاچين، و توجّه إلى نحو الديار المصـريّة و ملكها و تمّ أمره، و خطب له بمصر و أعمالها و القدس و الساحل جميعه.

و أمّـا الملـك العـادل فإنّه أقام بقلعـة دمشق هـذه الأيّام كلّها لا يخرج منها، و أمّر جماعـة بـدمشق، و أطلق بعض المكوس بها، و قرئ بذلك توقيع يوم الجمعة سادس عشر صفر بعد صلاة الجمعة بالجامع. و بينما هو فى ذلك ورد الخبر على أهل دمشق بأنّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۵

مدينة صفد زيّنت لسلطنة لاچين و دقّ بها البشائر، و كذلك نابلس و الكرك.

فلمّا بلغ الملك العادل ذلك جهّز جماعة من عسـكر دمشق مقدّمهم الأمير طقصبا الناصرىّ بكشف هذا الأمر و تحقيق الخبر، فتوجّهوا يوم الخميس ثانى عشرين صفر فعلموا بعد خروجهم فى النهار المذكور بدخول الملك المنصور لاچين إلى مصر و سلطنته، فرجعوا و علموا عـدم الفائـدة فى توجّههم. ثم فى الغـد من يوم الجمعـة ثالث عشـرين صـفر ظهر الأمر بدمشق و انكشف الحال و جوهر الملك العادل كتبغا بـذلك، و بلغه أنّه لمّا وصل العسـكر إلى غزّة ركب الأمير حسام الـدين لاچين فى دست السـلطنة، و حمل البيسـرى على رأسه الجتر و حلفوا له، و نعت بالملك المنصور.

ثم فى يوم السـبت رابع عشـرين صـفر وصل إلى دمشق الأمير كجكن و معه جماعـة من الأمراء كانوا مجرّدين إلى الرّحبة، فلم يدخلوا دمشق بـل توجّهوا إلى جهـة ميـدان الحصا، و أعلن الأمير كجكن أمر الملك المنصور لاچين، و علم جيش دمشق بـذلك، فخرج إليه طائفـة بعـد طائفـة، و كان قبل ذلك قـد توجّه أميران من أكابر أمراء دمشق إلى جهة الديار المصـريّة. فلمّا تحقّق الملك العادل كتبغا بـذلك و علم انحلال أمره و زوال دولته بالكليّـة أذعن بالطاعـة لأمراء دمشق، و قال لهم: الملك المنصور لاچين خشداشـى و أنا فى خـدمته و طاعته، و حضـر الأمير سـيف الـدين جاغان الحسامىّ إلى قلعة دمشق إلى عند الملك العادل كتبغا، فقال له كتبغا: أنا أجلس فى مكان بالقلعة حتّى نكاتب السـلطان و نعتمد على ما يرسم به. فلمّا رأى الأمراء منه ذلك تفرّقوا و توجّهوا إلى باب الميدان و حلفوا للملك المنصور لاـچين و أرسلوا البريـد إلى القـاهرة بـذلك، ثم احتفظوا بالقلعـة و بالملك العادل كتبغا، و لبس عسـكر دمشق آلة

الحرب و سيّروا عامّة نهار السبت بظاهر دمشق و حول القلعة؛ و الناس فى هرج

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۶

و اختباط و أقوال مختلفة، و أبواب دمشق مغلّقة سوى باب النصر، و باب القلعة مغلّق فتح منه خوخته، و اجتمع العامّة و الناس من باب القلعة إلى باب النصر و ظاهر البلد حتّى سقط منهم جماعة كثيرة فى الخندق فسلم جماعة و هلک دون العشرة، و أمسى الناس يوم السبت و قد أعلن باسم الملک المنصور لاچين لا يخفى أحد ذلک، و شرع [وقت العصر فى] دقّ البشائر بالقلعة. ثم فى سحر يوم الأحد ذكره المؤذّنون بجامع دمشق، و تلوا قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مالِکَ الْمُلْکِ ... إلى آخرها.

و أظهروا اسم المنصور و الدعاء له، ثم ذكره قارئ المصحف بعد صلاة الصبح بمقصورة جامع دمشق، و دقّت البشائر على أبواب جميع أمراء دمشق دقّا مزعجا، و أظهروا الفرح و السرور و أمر بتزين أسواق البلد جميعها فزيّنت مدينة دمشق، و فتحت دكاكين دمشق و أسواقها و اشتغلوا بمعايشهم، و تعجّب الناس من تسليم الملک العادل كتبغا الأمر إلى الملک المنصور لاچين على هذا الوجه الهيّن من غير قتال و لا حرب مع ما كان معه من الأمراء و الجند، و لو لم يكن معه إلّا مملوكه الأمير أغزلو العادلىّ نائب الشام لكفاه ذلک. على أنّ الملک المنصور لاچين كان أرسل فى الباطن عدّة مطالعات لأمراء دمشق و أهلها و استمال غالب أهل دمشق، فما أحوجه الملک العادل كتبغا لشىء من ذلک بل سلّم له الأمر على هذا الوجه الذى ذكرناه. خذلان من اللّه تعالى.

و أمّا الأمير سيف الدين أغزلو العادلىّ مملوک الملک العادل كتبغا نائب الشام لمّا رأى ما وقع من أستاذه لم يسعه إلا الإذعان للملک المنصور و أظهر الفرح به

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۷

و خلف له. و قال: الملک المنصور لاچين- نصره اللّه- هو الذى كان عيّننى لنيابة دمشق، و أستاذى الملک العادل كتبغا استصغرنى فأنا نائبه. ثم سافر هو و الأمير جاغان الحسامى إلى نحو الديار المصريّة.

و أمّا لاچين فإنّه تسلطن يوم الجمعة عاشر صفر و ركب يوم الخميس سادس عشر صفر و شقّ القاهرة و تمّ أمره. و أمّا الملک العادل كتبغا هذا فإنّه استمرّ بقلعة دمشق إلى أن عاد الأمير جاغان المنصورىّ الحسامىّ إلى دمشق فى يوم الاثنين حادى عشر شهر ربيع الأوّل، و طلع من الغد إلى قلعة دمشق و معه الأمير الكبير حسام الدين الظاهرىّ أستاذ الدار فى الدولة المنصوريّة و الأشرفيّة، و الأمير سيف الدين كحكن، و حضر قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة قاضى دمشق و دخلوا الجميع إلى الملک العادل كتبغا، فتكلّم معهم كلاما كثيرا بحيث إنّه طال المجلس كالعاتب عليهم، ثم إنّه حلف يمينا طويلة يقول فى أوّلها: أقول و أنا كتبغا المنصورىّ، و يكرّر اسم اللّه تعالى فى الحلف مرّة بعد مرّة، أنّه يرضى بالمكان الذى عيّنه له السلطان الملک المنصور حسام الدين لاچين و لا يكاتب و لا يسارر، و أنّه تحت الطاعة، و أنه خلع نفسه من الملک و أشياء كثيرة من هذا النّموذج، ثم خرجوا من عنده. و كان المكان الذى عيّنه له الملک المنصور لاچين قلعة صرخد، و لم يعيّن المكان المذكور فى اليمين. ثم ولّى الملک المنصور نيابة الشام للأمير قبجق المنصورىّ و عزل أغزلوا العادلىّ، فدخل قبجق إلى دمشق فى يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الأوّل، و تجهّز الملک العادل كتبغا و خرج من قلعة دمشق بأولاده و عياله و مماليكه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۸

و توجّه إلى صرخد فى ليلة الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الأوّل المذكور، و جرّدوا معه جماعة من الجيش نحو مائتى فارس إلى أن أوصلوه إلى صرخد. فكانت مدّة سلطنة الملک العادل كتبغا هذا على مصر سنتين و ثمانية و عشرين يوما، و قيل سبعة عشر يوما، و تسلطن من بعده الملک المنصور حسام الدين لاچين حسب ما تقدّم ذكره.

ثم كتب له الملک المنصور حسام الدين لاچين تقليدا بنيابة صرخد، فقبل الملک العادل ذلک و باشر نيابة صرخد سنين إلى أن نقله السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية من نيابة صرخد إلى نيابة حماة. و صار من جملة نوّاب السلطنة، و كتب له

عن السلطان كما يكتب لأمثاله من النوّاب، و سافر فى التجاريد فى خدمة نوّاب دمشق و حضر الجهاد؛ و لم يزل على نيابة حماة حتى مات بها فى ليلة الجمعة يوم عيد الأضحى و هو فى سنّ الكهوليّة. و دفن بحماة، ثم نقل منها و دفن بتربته التى أنشأها بسفح جبل قاسيون دمشق غربىّ الرّباط الناصرى، و له عليها أوقاف. و كان ملكا خيّرا ديّنا عاقلا عادلا سليم الباطن شجاعا متواضعا، و كان يحبّ الفقهاء و العلماء و الصلحاء و يكرمهم إكراما زائدا، و كان أسمر اللون قصيرا دقيق الصّدر قصير العنق، و كان له لحية صغيرة فى حنكه، أسر صغيرا من عسكر هولاكو. و كان لمّا ولى سلطنة مصر و الشام تشاءم الناس به، و هو أنّ النيل قد بلغ فى تلك السنة ست عشرة ذراعا ثم هبط من ليلته فشرقت البلاد و أعقبه غلاء عظيم حتى أكل الناس الميتة. و قد تقدّم ذكر ذلك فى أوّل ترجمته. و مات الملك العادل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۹

كتبغا المذكور بعد أن طال مرضه و استرخى حتى لم يبق له حركة. و ترک عدّة أولاد.

و تولّى نيابة حماة بعده الأمير بتخاص المنصورىّ نقل إليها من نيابة الشّوبک. و قد تقدّم التعريف بأحوال كتبغا هذا فى أوائل ترجمته و فى غيرها فيما مرّ ذكره. و أمر كتبغا هذا هو خرق العادة من كونه كان ولى سلطنة مصر أكثر من سنتين و صار له شوكة و مماليک و حاشية، ثم يخلع و يصير من جملة نوّاب السلطان بالبلاد الشاميّة؛ فهذا شىء لم يقع لغيره من الملوک. و أعجب من هذا أنّه لما قتل الملک المنصور لاچين و تحيّر أمراء مصر فيمن يولّونه السلطنة من بعده لم يتعرّض أحد لذكره و لا رشّح للعود البتّة حتى احتاجوا الأمراء و بعثوا خلف الملک الناصر محمد بن قلاوون من الكرک، و أتوا به و سلطنوه.

قلت: و ما أظنّ أنّ القلوب نفرت منه إلا لما رأوه من دنىء همّته عند ما خلع من السلطنة و تسليمه للامر من غير قتال و لا ممانعة، و كان يمكنه أن يدافع بكلّ ما تصل القدرة إليه و لو ذهبت روحه عزيزة غير ذليلة، و ما أحسن قول عبد المطّلب جدّ نبيّنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و اسمه شيبة الحمد:

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة و إن تسلّت أسلناها على الأسل

لا ينزل المجد إلّا فى منازلنا كالنّوم ليس له مأوى سوى المقل

و قول عنترة أيضا:

أروم من المعالى منتهاها و لا أرضى بمنزلة دنيّه

فإمّا أن أشال على العوالى و إمّا أن توسّدنى المنيّه

و يعجبنى المقالة الثامنة من تأليف العلّامة شرف الدين عبد المؤمن بن هبة اللّه الأصفهانى المعروف بشوروة فإنّ أوائلها تقارب ما نحن فيه، و هى:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۰

رتبة الشرف، لا تنال بالتّرف؛ و السعادة أمر لا يدرک، إلا بعيش يفرک، و طيب يترک؛ و نوم يطرد، و صوم يسرد؛ و سرور عازب، و همّ لازب؛ و من عشق المعالى ألف الغمّ، و من طلب اللآلئ ركب اليمّ؛ و من قنص الحيتان ورد النهر، و من خطب الحصان نقد المهر؛ كلّا أين أنت من المعالى! إنّ السّحوق جبّار و أنت قاعد، و الفيلق جرّار و أنت واحد؛ العقل يناديک و أنت أصلخ، و يدنيک و يحول بينكما البرزخ؛ لقد أزف الرحيل فاستنفد جهدک، و أكثب الصيد فضمّر فهدک؛ فالحذر يترصّد الانتهاز، و الحازم يهيّئ أسباب الجهاز؛ تجرّع مرارة النوائب فى أيّام معدوده، لحلاوة معهودة غير محدوده؛ و إنما هى محنة بائده، تتلوها فائده؛ و كربة نافده، بعدها نعمة خالده، [و غنيمة بارده]؛ فلا تكرهنّ صبرا أو صابا، يغسل عنک أو صابا؛ و لا تشربنّ وردا يعقبک سقاما، و لا تشمّن وردا يورثک زكاما؛ [ما ألين الرّيحان لو لا وخز البهمى، و ما أطيب الماذىّ لو لا حمة الحمى]! فلا تهولنّک مرارات ذاقها عصبه، إنما يريد اللّه ليهديهم بها؛ و لا تروقنّک حلاوات نالها فرقه، إنما يريد اللّه ليعذّبهم بها. انتهى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۱

السنة الأولی من سلطنة الملک العادل کتبغا المنصوریّ علی مصر، و هی سنة أربع و تسعین و ستمائة.

کان فیها الغلاء العظیم بسائر البلاد و لا سیّما مصر و الشام، و کان بمصر مع الغلاء و باء عظیم أیضا و قاسی الناس شدائد فی هذه السنة و استسقی الناس بمصر من عظم الغلاء و الفناء.

و فیها أسلم ملک التّتار غازان و أسلم غالب جنده و عساکره، علی ما حکی الشیخ علم الدین البرزالیّ.

و فیها توفّی السلطان الملک المظفّر شمس الدین أبو المحاسن یوسف ابن السلطان الملک المنصور نور الدین عمر بن علیّ بن رسول التّرکمانیّ الأصل الغسّانیّ صاحب بلاد الیمن، مات فی شهر رجب بقلعة تعزّ من بلاد الیمن، و قیل: اسم رسول محمد ابن هارون بن أبی الفتح بن نوحی بن رستم من ذرّیّة جبلة بن الأیهم، قیل: إنّ رسولا جدّ هؤلاء ملوک الیمن کان انضم لبعض الخلفاء العباسیّة، فاختصه بالرسالة إلی الشام و غیرها فعرف برسول، و غلب علیه ذلک. ثم انتقل من العراق إلی الشام ثم إلی مصر، و خدم هو و أولاده بعض بنی أیّوب، و هو مع ذلک له حاشیة و خدم.

و لمّا أرسل السلطان صلاح الدین یوسف بن أیوب أخاه الملک المعظّم توران شاه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۲

إلی الیمن أرسل الملک المنصور عمر والد صاحب الترجمة معه کالوزیر له و استحلفه علی المناصحة، فسار معه إلی الیمن. فلمّا ملک الملک المسعود أقسیس ابن الملک الکامل محمد بن أبی بکر بن أیّوب الیمن بعد توران شاه قرّب عمر المذکور و زاد فی تعظیمه و ولّاه الحصون، ثمّ ولّاه مکة المشرفة و رتّب معه ثلثمائة فارس، و حصل بینه و بین صاحب مکة حسن بن قتادة وقعة انکسر فیها حسن و دخل المنصور مکة و استولی علیها، و عمّر بها المسجد الذی اعتمرت منه عائشة أمّ المؤمنین رضی اللّه عنها فی سنة تسع عشرة و ستمائة، ثم عمّر فی ولایته لمکة أیضا دار أبی بکر الصدّیق، رضی اللّه عنه فی زقاق الحجر فی سنة ثلاث و عشرین و ستمائة، ثم استنابه الملک المسعود علی الیمن لمّا توجّه إلی الدیار المصریة، و استناب علی صنعاء أخاه بدر الدین حسن بن علیّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۳

ابن رسول. و لمّا عاد الملک المسعود إلی الیمن قبض علی نور الدین هذا و علی أخیه بدر الدین حسن المذکور و علی أخیه فخر الدین و علی شرف الدین موسی تخوّفا منهم لما ظهر من نجابتهم فی غیبته، و أرسلهم إلی الدیار المصریّة محتفظا بهم خلا نور الدین عمر (أعنی الملک المنصور) فإنّه أطلقه من یومه لأنه کان یأنس إلیه، ثم استحلفه و جعله أتابک عسکره؛ ثم استنابه الملک المسعود ثانیا لمّا توجّه إلی مصر، و قال له:

إن متّ فأنت أولی بالملک من إخوتی لخدمتک لی، و إن عشت فأنت علی حالک، و إیاک أن تترک أحدا من أهلی یدخل الیمن، و لو جاءک الملک الکامل. ثم سار الملک المسعود إلی مکة فمات بها. فلما بلغ الملک المنصور ذلک استولی علی ممالک الیمن بعد أمور و خطوب، و استوسق له الأمر، فکانت مدّة مملکته بالیمن نیّفا علی عشرین سنة. و مات بها فی لیلة السبت تاسع ذی القعدة سنة سبع و أربعین و ستمائة، و ملک بعده ابنه الملک المظفّر یوسف هذا، و هو ثانی سلطان من بنی رسول بالیمن؛ و أقام الملک المظفّر هذا فی الملک نحوا من ستّ و أربعین سنة. و کان ملکا عادلا عفیفا عن أموال الرعیّة، حسن السّیرة کثیر العدل، و ملک بعده ولده الأکبر الملک الأشرف ممهّد الدّین عمر فلم یمکث الأشرف بعد أبیه إلا سنة و مات، و ملک أخوه الملک المؤیّد هزبر الدّین داود. و مات الملک المظفّر هذا مسموما سمّته بعض جواریه. و مات و قد جاوز الثمانین. و خلّف من الأولاد الملک الأشرف الذی ولی بعده، و المؤیّد داود و الواثق [إبراهیم] و المسعود [تاج الدین حسن] و المنصور [أیوب]. انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۴

و فیها توفّی العلّامة جمال الدین أبو غانم محمد ابن الصاحب کمال الدین أبی القاسم عمر بن أحمد بن هبة اللّه بن أحمد بن أبی

جرادة الحلبیّ الحنفیّ المعروف بابن العدیم.

مات بمدینة حماة، و کان إماما فاضلا بارعا من بیت علم و ریاسة.

و فیها قتل الأمیر عساف ابن الأمیر أحمد بن حجّیّ أمیر العرب من آل مری، و کان أبوه أکبر عربان آل برمک، و کان یدّعی أنه من نسل البرامکة من العبّاسة أخت هارون الرشید. و قد ذکرنا ذلک فی وفاة أبیه الأمیر شهاب الدین أحمد.

و فیها توفّی الأمیر بدر الدین بکتوت بن عبد اللّه الفارسیّ الأتابکیّ، کان من خیار الأمراء و أکابرهم و أحسنهم سیرة.

و فیها توفّی شیخ الحجاز و عالمه الشیخ محبّ الدین أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن أبی بکر بن محمد بن إبراهیم الطّبریّ المکیّ الشافعیّ فقیه الحرم بمکة- شرفها اللّه تعالی- و مفتیه، و مولده فی سنة أربع عشرة و ستّمائة بمکّة. و کانت وفاته فی ذی القعدة. و قال البرزالیّ: ولد بمکّة فی یوم الخمیس السابع و العشرین من جمادی الآخرة سنة خمس عشرة و ستمائة.

قلت: و نشأ بمکّة و طلب العلم و سمع الکثیر و رحل البلاد.

و قال جمال الدین الإسنائیّ: إنّه تفقّه بقوص علی الشیخ مجد الدین القشیریّ. انتهی.

و ذکر نحو ذلک القطب الحلبیّ فی تاریخ مصر، و حدّث و خرّج لنفسه أحادیث عوالی.

قال أبو حیّان: إنّه وقع له وهم فاحش فی القسم الأول و هو التّساعیّ، و هو إسقاط رجل من الإسناد حتی صار له الحدیث تساعیّا فی ظنّه. انتهی.

قلت: و قد استوعبنا سماعاته و مصنّفاته و مشایخه فی ترجمته من تاریخنا المنهل الصافی، و المستوفی بعد الوافی مستوفاة فی الکتاب المذکور. و کان له ید فی النظم، فمن ذلک قصیدته الحائیّة:

ما لطرفی عن الجمال براح و لقلبی به غذا و رواح

کلّ معنی یلوح فی کلّ حسن لی إلیه تقلّب و ارتیاح

و منها:

فیهم یعشق الجمال و یهوی و یشوق الحمی و تهوی الملاح

و بهم یعذّب الغرام و یحلو و یطیب الثناء و الامتداح

لا تلم یا خلیّ قلبی فیهم ما علی من هوی الملاح جناح

ویح قلبی و ویح طرفی إلی کم یکتم الحبّ و الهوی فضّاح

صاح عرّج علی العقیق و بلّغ و قباب فیها الوجوه الصباح

و القصیدة طویلة کلّها علی هذا المنوال.

و فیها توفّی سلطان إفریقیّة و ابن سلطانها و أخو سلطانها عمر بن أبی زکریّا یحیی ابن عبد الواحد بن عمر الهنتاتیّ الملقّب بالمستنصر باللّه و المؤیّد به، و ولی سلطنة

تونس بعد وفاة أخیه إبراهیم فیما أظنّ، و قتل الدعیّ الذی کان غلب علیها، و ملک البلاد و دام فی الملک إلی أن مات فی ذی الحجّة. و کان عهد لولده عبد اللّه بالملک، فلمّا احتضر أشار علیه الشیخ أبو محمد المرجانی بأن یخلعه لصغر سنّه فخلعه، و ولّی ولد الواثق محمد بن یحیی بن محمد الملقّب بأبی عصیدة الآتی ذکر وفاته فی سنة تسع و سبعمائة. و کان المستنصر هذا ملکا عادلا حسن السیرة و فیه خبرة و نهضة و کفایة و دین و شجاعة و إقدام. رحمه اللّه تعالی.

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی الزاهد القدوة أبو الرجال بن مری بمنین فی المحرّم. و عزّ الدین أبو بکر

محفوظ بن معتوق التاجر ابن البزورىّ فى صفر. و الإمام عزّ الدين أحمد بن إبراهيم بن الفاروثىّ فى ذى الحجة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٧٧

و صاحب اليمن الملك المظفّر يوسف بن عمر فى رجب؛ و كانت دولته بضعا و أربعين سنة. و شيخ الحجاز محبّ الدين الطّبرىّ. و أبو الفهم أحمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسينىّ النقيب فى المحرّم. و العلّامة تاج الدين أبو عبد اللّه محمد بن عبد السلام بن المطهّر بن أبى عصرون التميمى مدرّس الشاميّة الصغرى فى ربيع الأوّل. و محيى الدين عبد الرحيم بن عبد المنعم [بن خلف بن عبد المنعم] بن الدّميرى فى المحرّم، و له تسعون سنة. و الزاهد القدوة شرف الدين محمد بن عبد الملك اليونينىّ المعروف بالأرزونى. و الزاهد المقرئ شرف الدين محمود بن محمد التّادفىّ بقاسيون فى رجب. و العلّامة زين الدين [أبو البركات] المنجّا بن عثمان بن أسعد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٧٨

ابن المنجا الحنبلىّ فى شعبان، و له خمس و ستون سنة. و قاضى القضاة شرف الدين الحسن بن عبد اللّه ابن الشيخ أبى عمر المقدسىّ الحنبلىّ. و ناصر الدين نصر اللّه بن محمد بن عيّاش الحدّاد فى شوّال. و العدل كمال الدين عبد اللّه بن محمد [بن نصر] ابن قوام فى ذى القعدة. و أبو الغنائم بن محاسن الكفرابى. و المقرئ موفّق الدين محمد بن أبى العلاء [محمد بن علىّ] ببعلبكّ فى ذى الحجة. و المقرئ أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الحليم سحنون المالكىّ فى شوّال بالإسكندريّة. و العلّامة الصاحب محيى الدين محمد بن يعقوب [بن إبراهيم بن هبة اللّه بن طارق بن سالم] بن النحّاس الحلبىّ الحنفى فى آخر السنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع و أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا. و كان الوفاء فى سادس أيام النّسىء.

[ما وقع من الحوادث سنة ٦٩٥]

السنة الثانية من ولاية الملك العادل كتبغا المنصورىّ على مصر، و هى سنة خمس و تسعين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٧٩

فيها كان الغلاء العظيم بسائر البلاد، و لا سيّما مصر و الشام؛ و كان بمصر مع الغلاء و باء عظيم أيضا، و قاسى الناس شدائد فى هذه السنة و الماضية.

و فيها ولى قضاء الديار المصريّة الشيخ تقىّ الدين أبو الفتح محمد بن علىّ بن وهب ابن دقيق العيد بعد وفاة قاضى القضاة تقىّ الدين عبد الرحمن بن بنت الأعزّ.

و فيها توفّى الملك السعيد شمس الدين إيلغازى ابن الملك المظفّر [فخر الدين قرا أرسلان] ابن الملك السعيد صاحب ماردين الأرتقىّ، و دفن بتربة جدّه أرتق، و تولّى بعده سلطنة ماردين أخوه الملك المنصور نجم الدين غازى. و كان مدّة مملكة الملك السعيد هذا على ماردين دون الثلاث سنين. و كان جوادا عادلا حسن السّيرة، رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى الأمير بدر الدين بيليك بن عبد اللّه المحسنىّ المعروف بأبى شامة بالقاهرة، و كان من أعيان الأمراء و أكابرهم، رحمه اللّه.

و فيها توفى الأسعد بن السّديد القبطىّ الأسلمىّ الكاتب مستوفى الديار المصريّة و البلاد الشامية و الجيوش جميعها المعروف بالماعز الديوانى المشهور، و كان معروفا بالأمانة و الخير، و كان نصرانيّا ثم أسلم فى دولة السلطان الملك الأشرف خليل ابن قلاوون.

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى- رحمه اللّه-: حكى لى القاضى شهاب الدين محمود رحمه اللّه قال: لمّا مرض المذكور توجّهنا إليه نعوده فوجدناه ضعيفا إلى الغاية، و قد وضعوا عنده أنواعا من الحلىّ و المصاغ المجوهر و العقود

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۰

و فیها العنبر الفائق و أنواع من الطّیب. ثم إنّه قال: ارفعوا هـذا عنّی، و أسرّ إلی خادم کلاما؛ فمضـی و أتی بحقّ ففتحه و أقبل یشـمّه و قمنا من عنده ثم إنه مات، فسألنا ذلک الخادم فیما بعد: ما کان فی ذلک الحقّ؟ قال: شعرة من است الراهب الفلانیّ الذی کان له کذا کذا سنة ما لمس الماء و لا قربه. قال فأنشدت:

ما یقبض الموت نفسا من نفوسهم إلّا و فی یده من نتنها عود

و فیها توفّی الأمیر عزّ الـدین أیبک بن عبـد اللّه الأفرم الکبیر أمیر جانـدار الملک الظاهر و الملک السـعید و الملک المنصور قلاوون. فلمّا تسلطن الملک الأشرف خلیل ابن قلاوون حبسه، و بعد قتل الأشرف خلیل أخرجه أخوه الملک الناصر محمد ابن قلاوون و أعاده إلی مکانته؛ ثم استقرّ فی أیام الملک العادل کتبغا علی حاله إلی أن مات بالقاهرة فی یوم السبت سابع شهر ربیع الأوّل.

قال القطب الیونینیّ: حکی لی الأمیر سیف الدین بن المحفّدار قال: أوصـی الأفرم عند موته أنه إذا توفّی یأخذون خیله یلبسونها أفخر مالها من العـدّة، و کـذلک جمیع ممالیکه و غلمانه یلبسونهم عـدّة الحرب، و أن تضـرب نوبة الطبلخاناه خلف جنازته، کما کان یطلع إلی الغزاة، و ألّا یقلب له سـنجق و لا یکسـر له رمـح، ففعلوا أولاده ما أمر به ما خلا الطبلخاناه، فإنّ نائب السـلطنة حسام الـدین لاچین منعهم من ذلـک، و کانت جنازته حفلـة حضـرها السـلطان و من دونه. و کان دیّنا من وسائط الأخیار و أرباب المعروف. و کان یقال: إنه یدخل علیه من أملاکه و ضماناته و إقطاعاته کلّ یوم ألف دینار خارج عن الغلال.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۱

قلت: و هـذا مسـتفاض بین النـاس. و قصّـهٔ أولاـده لمّـا احتاجوا مع کثرة هـذا المال إلی السؤال مشـهورة. یقال إنه کان له ثمن الـدیار المصریة، و هو صاحب الرّباط و الجسر علی برکة الحبش خارج القاهرة.

قال الشیـخ صلاح الدین الصّفدیّ: «کنت بالقاهرة و قد وقف أولاده و شکا علیهم أرباب الدیون إلی السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون، فقال السلطان:

یا بشـتک، هؤلاء أولاد الأفرم الکبیر صاحب الأملاک و الأموال، أبصر کیف حالهم! و ما سببه إلا أنّ أباهم و کلهم علی أملاکهم فما بقیت، و أنا لأجل ذلک لا أدّخر لأولادی ملکا و لا مالا». انتهی کلام الصّفدی.

قلت: و العجیب أنه کـان قلیـل الظلم کثیر الخیر، و غـالب مـا حصـله من نوع المتـاجر و المزروعـات و المسـتأجرات، و مع هـذا احتاج أولاده و ذریته إلی السؤال.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۲

و فیها توفّی قاضـی القضاة بالدیار المصـریّة و رئیسـها تقیّ الدین أبو القاسم عبد الرحمن ابن قاضـی القضاه تاج الدین أبی محمد عبد الوهـاب ابن القاضـی الأـعز أبی القـاسم خلف [ابن محمود] بن بـدر العلاـمیّ الشـافعی المصـریّ المعروف بـابن بنت الأـعز. مات یوم الخمیس سـادس عشـر جمـادی الأـولی و دفن عنـد والـده بالقرافـة فی تربتهم و هو فی الکهولیـة. و کـان فقیهـا بارعـا شاعرا خیّرا دیّنا متواضـعا کریما، تفقّه علی والده و علی ابن عبد السلام، و تولّی الوزارة و القضاء و مشیخة الشیوخ، و أضیف الیه تدریس الصلاحیّة و الشریفیة بالقاهرة و المشهد الحسینی و خطابة الجامع الأزهر، و امتحن محنة شدیدة فی أوّل الدولة الأشرفیة و عمل علی إتلافه بالکلّیة، و ذلک بسـعایة الوزیر ابن السّلعوس الدّمشقیّ. و قد استوعبنا أمره فی المنهل الصافی، ثم أعید إلی القضاء بعد وفاة الأشرف، فلم تطل أیامه و مات.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۳

و لمّا حج القاضی تقیّ الدین هذا و زار قبر النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم أنشد عند الحجرة [النبویّة] قصیدته التی مطلعها:

الناس بین مرجّز و مقصّد و مطوّل فی مدحه و مجوّد

و مخبّر عمّن روى و معبّر عمّا رآه من العلا و السّودد

و فيها توفّى الشيخ الإمام الأديب البارع المفتنّ سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد ابن الحسين المصرىّ المعروف بالسّراج الورّاق الشاعر المشهور. مولده فى العشر الأخير من شوّال سنة خمس عشرة و ستمائة، و مات فى جمادى الأولى من هذه السنة و دفن بالقرافة. و كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرّفا فى فنون البلاغة، و هو شاعر مصر فى زمانه بلا مدافعة. و من شعره:

فى خدّه ضلّ علم الناس و اختلفوا أ للشقائق أم للورد نسبته

فذاك بالخال يقضى للشقيق و ذا دليله أنّ ماء الورد ريقته

و له:

كم قطع الجود من لسان قلّد من نظمه النّحورا

فهأنا شاعر سراج فاقطع لسانى أزدك نورا

و له:

لا تحجب الطّيف إنّى عنه محجوب لم يبق منى لفرط السّقم مطلوب

و لا تثق بأنينى إنّ موعده بأن أعيش للقيا الطّيف مكذوب

هذا و خدّك مخضوب يشاكله دمع يفيض على خدىّ مخضوب

و ليس للورد فى التشبيه رتبته و إنّما ذاك من معناه تقريب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۴

و ما عذارك ريحانا كما زعموا فات الرياحين ذاك الحسن و الطّيب

تأوّد الغصن مهتزّا فأنبأنا أنّ الذى فيك خلق فيه مكسوب

يا قاسى القلب لو أعداه رقّته جسم من الماء بالألحاظ مشروب

أرحت سمعى و فى حبّيك من عذلى إذ أنت حب إلى العذّال محبوب

و كان السّراج أشقر أزرق العين. و فى ذلك يقول عن نفسه:

و من رآنى و الحمار مركبى و زرقتى للروم عرق قد ضرب

قال و قد أبصر وجهى مقبلا لا فارس الخيل و لا وجه العرب

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة دراعا و إصبع. و كان الوفاء فى رابع عشرين توت.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۶]

ذكر سلطنة الملك المنصور لا چين على مصر

هو السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين بن عبد اللّه المنصورىّ سلطان الديار المصرية، تسلطن بعد خلع الملك العادل كتبغا المنصورىّ كما تقدّم ذكره فى يوم الجمعة عاشر صفر من سنة ست و تسعين و ستمائة. و أصل لا چين هذا مملوك للملك المنصور قلاوون اشتراه و ربّاه و أعتقه و رقّاه إلى أن جعله من جملة مماليكه، فلمّا تسلطن أمّره و جعله نائبا بقلعة دمشق. فلما خرج الأمير سيف الدين سنقر الأشقر عن طاعة الملك المنصور قلاوون و تسلطن بدمشق و تلقّب بالملك الكامل و ملك قلعة دمشق قبض على لا چين

هذا و حبسه مدّة إلى أن انكسر سنقر الأشقر و ملك الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ دمشق أخرجه من محبسه، و دام لا چين بدمشق إلى أن ورد مرسوم الملك المنصور قلاوون باستقرار لاچين هذا فى نيابة دمشق دفعة واحدة؛ فوليها و دام بها إحدى عشرة سنة إلى أن عزله الملك الأشرف خليل بن قلاوون بالشّجاعىّ. ثم قبض عليه ثم أطلقه بعد أشهر، ثم قبض عليه ثانيا مع جماعة أمراء، و هم: الأمير سنقر الأشقر المقدّم ذكره الذى كان تسلطن بدمشق و تلقّب بالملك الكامل. و الأمير ركن الدين طقصو الناصرىّ حمو لاچين هذا. و الأمير سيف الدين جرمك الناصرىّ. و الأمير بلبان الهارونىّ و غيرهم، فحنقوا الجميع و ما بقى غير لاچين هذا، فقدّموه و وضعوا الوتر فى حلقه و جذب الوتر فانقطع، و كان الملك الأشرف حاضرا؛ فقال لاچين: ياخوند، إيش لى ذنب! ما لى ذنب إلا أنّ صهرى طقصوها هو قد هلك، و أنا أطلّق ابنته، فرقّ له خشداشيته و قبّلوا الأرض و سألوا السلطان فيه، و ضمنوه فأطلقه و خلع عليه و أعطاه إمرة مائة فارس بالديار المصرية و جعله سلاح دار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨۶

قلت: (يعنى جعله أمير سلاح) فإنّ أمير سلاح هو الذى يناول السلطان السلاح و غيره. قلت: للّه درّ المتنبّى حيث يقول:

لا تخدعنّك من عدوّك دمعة و ارحم شبابك من عدوّ ترحم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

و ذلك أنّ لاچين لمّا خرج من الحبس و صار من جملة الأمراء خاف على نفسه، و اتّفق مع الأمير بيدرا نائب السلطنة و غيره على قتل الأشرف حتى تمّ لهم ذلك حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمة الملك الأشرف. ثمّ اختفى لاچين أشهرا إلى أن أصلح أمره الأمير كتبغا و أخرجه و خلع عليه الملك الناصر محمد بن قلاوون كما تقدّم و جعله على عادته. كلّ ذلك بسفارة الأمير كتبغا. ثم لمّا تسلطن كتبغا جعله نائب سلطنته بل قسيم مملكته، و استمرّ لاچين على ذلك حتى سافر الملك العادل كتبغا إلى البلاد الشاميّة و أصلح أمورها و عاد إلى نحو الديار المصريّة، و سار حتى نزل بمنزلة اللّجون، اتّفق لاچين هذا مع جماعة من أكابر الأمراء على قتل الملك العادل كتبغا و وثبوا عليه بالمنزلة المذكورة، و قتلوا الأميرين: [سيف الدين] بتخاص و بكتوت الأزرق العادليين، و كانا من أكابر مماليك الملك العادل كتبغا و أمرائه، و اختبط العسكر و بلع الملك العادل كتبغا ذلك ففاز بنفسه، و ركب فى خمسة من خواصّه و توجّه إلى دمشق.

و قد حكينا ذلك كلّه فى ترجمة كتبغا. فاستولى عند ذلك لاچين على الخزائن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨٧

و الدهليز و برك السلطنة، و ساق الجميع أمامه إلى مدينة غزّة. و بايعوه الأمراء بالسلطنة بعد شروط اشترطوها الأمراء عليه حسب ما يأتى ذكرها فى محلّه. و سار الجميع إلى نحو الديار المصريّة حتى دخلوها و ملكوا القلعة بغير مدافع، و جلس لاچين هذا على كرسىّ المملكة فى يوم الجمعة المقدّم ذكره. و تم أمره و خلع على الأمراء بعدّة وظائف، و هم: الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ بنيابة السلطنة بالديار المصريّة عوضا عن نفسه. و خلع على الأمير قبجق المنصورىّ بنيابة الشام عوضا عن الأمير أغزلوا العادلى. و على عدّة أمراء أخر. ثم ركب الملك المنصور لاچين بعد ذلك من قلعة الجبل فى يوم الاثنين العشرين من صفر بأبّهة السلطنة و عليه الخلعة الخليفتيّة، و خرج إلى ظاهر القاهرة إلى جهة قبّة النصر، ثم عاد من باب النصر و شقّ القاهرة إلى أن خرج من باب زويلة، و الأمراء و العساكر بين يديه؛ و حمل الأمير بدر الدين بيسرى الجتر على رأسه و طلع إلى القلعة. و خلع أيضا على الأمراء و أرباب الوظائف على العادة. و استمرّ فى السلطنة و حسنت سيرته، و باشر الأمور بنفسه و أحبّه الناس لو لا مملوكه منكوتمر، فإنّه كان صبيا مذموم السيرة. و لمّا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨٨

كان يوم الثلاثاء منتصف ذى القعدة من سنة ست و تسعين و ستمائة قبض السلطان الملك المنصور لاچين على الأمير شمس الدين

قرا سنقر المنصوریّ نائب السلطنة و حبسه، و ولّى مملوکه منکوتمر المذکور نیابة السلطنة عوضه، فعظم ذلک على أکابر الأمراء فى الباطن. ثم بعد أیام رکب السلطان الملک المنصور لاچین و لعب الکرة بالمیدان فتقنطر به الفرس فوقع من علیه و تهشّم جمیع بدنه و انکسرت یده و بعض أضلاعه و وهن عظمه و ضعفت حرکته، و بقى یعلّم عنه مملوکه و نائبه سیف الدین منکوتمر و أیس من نفسه. کلّ ذلک و الأمراء راضون بما یفعله منکوتمر لأجل خاطره إلى أن منّ اللّه تعالى علیه بالعافیة و رکب، و لمّا رکب زیّنت له القاهرة و مصر و البلاد الشامیّة لعافیته، و فرح الناس بعافیته فرحا شدیدا خصوصا الحرافیش.

فإنه لمّا رکب بعد عافیته قال له واحد من الحرافشة: یا قضیب الذهب، بالله أرنى یدک، فرفع إلیه یده و هو ماسک المقرعة و ضرب بها رقبة الحصان الذى تحته. و کان رکوبه فى حادى عشرین صفر من سنة سبع و تسعین و ستمائة. و لمّا کان لعب الکرة و کبا به فرسه و وقع و انکسرت یده قال فیه الأدیب شمس الدین محمد [المعروف بابن البیّاعة]:

حویت بطشا و إحسانا و معرفة و لیس یحمل هذا کلّه الفرس

و لمّا تعافى الملک المنصور لاچین قال فیه شمس الدین المذکور نثرا و هو: أسفر ثغر صباحه عن محیّا القمر الزاهر، و بطش الأسد الکاسر، وجود البحر الزاخر؛ فیاله یوما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۹

نال به الإسلام على شرفه شرفا، و أخذ کلّ مسلم من السرور العامّ طرفا؛ فملئت کلّ النفوس سرورا، و زیدت قلوب المؤمنین و أبصارهم ثباتا و نورا. ثم أنشد أبیاتا منها:

فمصر و الشام کلّ الخیر عمّهما و کلّ قطر علت فیه التّباشیر

فالکون مبتهج و الخلق مبتسم و الخیر متّصل و الدّین مجبور

و منها:

و کیف لا و عدوّ الدّین منکسر بالله و الملک المنصور منصور

و الشرک قد مات رعبا حیث صاح به التو حید هذا حسام الدین مشهور

ثم بعد ذلک بمدّة قبض السلطان على الأمیر بدر الدین بیسرى، و احتاط على جمیع موجوده فى سادس شهر ربیع الآخر. ثم جهّز السلطان الملک المنصور العساکر إلى البلاد الشامیّة لغزو سیس و غیرها، و علیهم الأمیر علم الدین سنجر الدّواداری و غیره من الأمراء، و سارت العساکر من الدیار المصریة إلى البلاد الشامیة، و فتحت تلّ حمدون و تلّ باشر و قلعة مرعش؛ و جاء الأمیر علم الدین سنجر الدّواداری حجر فى رجله عطّله عن الرکوب فى أیّام الحصار. و استشهد الأمیر علم الدین سنجر المعروف بطقصبا، و جرح جماعة کثیرة من العسکر و الأمراء. ثم إنّ الملک المنصور قبض على الأمیر عزّ الدین أیبک الحمویّ المعزول عن نیابة دمشق قبل تاریخه بمدّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۰

سنین و على الأمیر سنقر شاه الظاهرى لأمر بلغه عنهما. ثم فى أواخر صفر أخرج السلطان الملک المنصور لاچین الملک الناصر محمد بن قلاون من الدیار المصریّة إلى الکرک لیقیم بها، و فى خدمته الأمیر جمال الدین آقوش أستاذ دار الملک المنصور، فنزل الملک الناصر محمد بحواشیه من قلعة الجبل، و سافر حتى وصل إلى الکرک.

ثم بدا للسلطان الملک المنصور هذا أن یعمل الرّوک بالدیار المصریّة و هو الروک الحسامیّ. فلمّا کان یوم سادس جمادى الأولى من سنة سبع و تسعین و ستمائة ابتدأ عمل الروک و الشروع فیه فى إقطاعات الأمراء و أخباز الحلقة و الأجناد و جمیع

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۱

عساکر الدیار المصریّة، و استمرّوا فى عمله إلى یوم الاثنین ثامن شهر رجب من سنة سبع و تسعین و ستمائة، و فرّقت المثالات على

الأمراء و المقدّمين. و فی اليوم العاشر شرع نائب السلطنة الأمير سيف الدين منكوتمر فی تفرقة المثالات على الحلقة و البحريّة و مماليك السلطان و غير ذلک، فكان كلّ من وقع له مثال لا سبيل له إلى المراجعة فيه، فمن الجند من سعد و منهم من شقی، و أفرد للخاصّ أعمال الجيزيّة بتمامها و كمالها، و نواحی الصّفقة الإتفيحيّة و ثغر دمياط و الإسكندريّة و نواحی معيّنة من البلاد القبليّة و البحريّة، و عيّن لمنكوتمر من النّواحی ما اختاره لنفسه و أصحابه؛ و كان الحكم فی التعيين لدواوين منكوتمر، و الاختيار لهم فی التفرقة. و كان الذی باشر هذا الرّوک و عمله من الأمراء الأمير بدر الدين بيليک الفارسیّ الحاجب و الأمير بهاء الدين قراقوش الطّواشیّ الظّاهریّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۲

و قال الشيخ صلاح الدين الصفدیّ: و كان مدّة عمل الرّوک ثمانية أشهر إلا أيّاما قلائل. ثم تقنطر السلطان الملک المنصور لاچين عن فرسه فی لعب الكرة.

انتهی كلام الصّفدیّ.

و قال القطب اليونينیّ: حكی بعض كتّاب الجيش بالديار المصريّة فی سنة سبعمائة قال لی: أخدم فی ديوان الجيش بالديار المصريّة أربعين سنة، قال: و الديار المصريّة أربعة و عشرون قيراطا، منها: أربعة قراريط للسلطان و لما يطلقه و للكلف و الرواتب و غير ذلک، و منها عشرة للأمراء و الإطلاقات و الزيادات، و منها عشرة قراريط للحلقة. قال: و ذكروا للسلطان و لمنكوتمر أنّهم يكفون الأمراء و الجند بأحد عشر قيراطا، يستخدم عليها حلقة بمقدار الجيش، فشرعوا فی ذلک و طلبونا و طلبوا الكتّاب الجياد فی هذه الصّناعة، فكفينا الأمراء و الجند بعشرة قراريط، و زدنا الذين تضرّروا قيراطا فبقی تسعة، فاتّفق قتل السلطان و منكوتمر.

و كان فی قلوب الأمراء من ذلک همّ عظيم، فأنعم على كلّ أمير ببلد و بلدين من تلک التسعة قراريط، و بقی الجيش ضعيفا ليس له قوّة. و كانت التسعة قراريط التی بقيت خيرا من الأحد عشر قيراطا المقطعة.

قلت: يعنی أنّ هذا خارج عن الأربعة قراريط التی هی برسم السلطان خاصّة. انتهی.

و قيل فی الرّوک وجه آخر؛ قال: لمّا كان فی ذی الحجّة سنة سبع و تسعين و ستّمائة قصد السلطان الملک المنصور حسام الدين لاچين المنصوریّ أن يروک البلاد المصريّة و ينظر فی أمور عساكر مصر، فتقدّم التاج الطويل مستوفی الدولة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۳

بجمع الدواوين لعمل أوراق بعبرة إقطاع الأمراء و الجند و قانون البلاد، و ندب الأمير بهاء الدين قراقوش الظّاهریّ و الأمير بدر الدين بيليک الفارسیّ الحاجب، فجمع سائر الكتّاب لذلک؛ و أخذوا فی عمله فلم يحكموا العمل، و ذلک أنّهم عمدوا إلى الإقطاعات الثقيلة المتحصّلة من إقطاعات الأمراء و الجند، و أبدلوها بإقطاعات دونها فی العبرة و المتحصّل، و أصلحوا ما كان من الإقطاعات ضعيفا، و أفرد للعسكر بأجمعه أربعة عشر قيراطا، و للسلطان أربعة قراريط، و أرصد لمن عساه يتضرّر من الأمراء و الجند و يشكو قلّة المتحصّل قيراطان، فتمّ بذلک عشرون قيراطا. و قتل الملک المنصور لاچين و لم يستخدم أحدا و أوقف برسم عسكر أخر يستجدّ أربعة قراريط.

و أفرد لخاصّ السلطان الجيزيّة و الإتفيحيّة و منفلوط و هو و الكوم الأحمر و مرج

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۴

بنی هميم و حرجة سمطا، و اتفو (أدفو) بأعمال قوص و إسكندريّة و دمياط، و أفرد لمنكوتمر مملوكه نائب السلطنة من الجهات ما لم يكن لنائب قبله، و هو عبرة تيّف عن مائة ألف دينار. فلمّا فرغت الأوراق على ما ذكرنا جلس السلطان الملک المنصور لاچين لتفرقة المثالات على الأمراء و المقدّمين فأخذوها و هم غير راضين بذلک، و تبيّن للسلطان من وجوه الأمراء الكراهة، فأراد زيادة العبرة فی الإقطاعات فمنعه نائبه منكوتمر من ذلک و حذّره فتح هذا الباب، فإنّه يخشی أن يعجز السلطان عن سدّه، و تكفّل له منكوتمر بإتمام

العرض فيما قد عمل برسم السلطان. [و]] لمن كان له تعلّق فى هذا العمل من الأمراء و غيرهم أن يرفعوا شكايتهم إلى النائب؛ و تصدّى منكوتمر لتفرقة إقطاعات أجناد الحلقة، فجلس فى شبّاك النيابة بالقلعة و وقف الحجّاب بين يديه، و أعطى لكلّ تقدمة مثالاتها فتناولوها على كره منهم، و خافوا أن يكلّموا منكوتمر لسوء خلقه و سرعة بطشه؛ و تمادى الحال على ذلك عدّة أيام. و كانت أجناد الحلقة قد تناقصت أحوالهم عن أيّام الملك المنصور قلاوون، فإنّهم كانوا على أنّ أقل عبرة الإقطاعات و أضعف متحصّلاتها عشرة آلاف درهم و ما فوق ذلك إلى ثلاثين ألف درهم و هى أعلاها، فرجع الأمر فى هذا الرّوک إلى أن استقرّ أكثر الإقطاعات عشرين ألفا إلى ما دونها؛ فقلّ لذلك رزق الأجناد؛ فإنّه صار من كان متحصّله

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۵

عشرين ألفا رجع إلى عشرة آلاف، و من كان عبرة إقطاعه عشرة آلاف بقيت خمسة آلاف، فشقّ ذلك على الجند و لم يرضوه إلّا أنهم خشوا التنكيل من منكوتمر؛ و كانت فيهم بقيّة من أهل القوّة و الشجاعة، فتقدّموا إلى النائب منكوتمر و ألقوا مثالاتهم، و قالوا: إنّا لا نعتد قطّ بمثل هذه الإقطاعات، و نحن إمّا أن نخدم الأمراء و إلّا بطّلنا، فعظم قولهم على النائب و أغضبه، و أمر الحجّاب بضربهم و ساقهم الى السجن؛ فشفع فيهم الأمراء فلم يقبل شفاعتهم، و أقبل منكوتمر على من حضر من الأمراء و المقدّمين و غيرهم فأوسعهم سبّا و ملأهم تقريعا و تعنيفا حتّى وغّر صدورهم و غيّر نيّاتهم فانصرفوا، و قد عوّلوا على عمل الفتنة؛ و بلغ السلطان ذلك فعنّف منكوتمر و لامه و أخرج الأجناد من السجن بعد أيام. و كان عمل هذا الرّوک و تفرقته من أكبر الأسباب و أعظمهما فى فتک الأمراء بالسلطان الملک المنصور لاچين و قتله و قتل نائبه منكوتمر المذكور. على ما سيأتى ذكره.

و كان هذا الرّوک أيضا سببا كبيرا فى إضعاف الجند بديار مصر و إتلافهم، فإنه لم يعمل فيه عمل طائل و لا حصل لأحد منهم زيادة يرضاها، و إنما توفّر من البلاد جزء كبير. فلمّا قتل الملک المنصور لاچين تقسّمها الأمراء زيادة على ما كان بيدهم. انتهى.

ثم إنّ السلطان الملک المنصور لاچين جهّز الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير و الأمير سيف الدين حمدان [بن سلغيه] إلى البلاد الشاميّة، و على أيديهم مراسيم شريفة بخروج العساكر الشامية، و خروج نائب الشام الأمير قبجق المنصورىّ بجميع أمراء دمشق حتى حواشى الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۶

فوصلوا إلى دمشق و ألحّوا فى خروج العسكر و نوّهوا بأنّ التّتار قاصدون البلاد، فخرج نائب الشام بعساكر دمشق فى ليلة الخميس رابع عشر المحرّم من سنة ثمان و تسعين و ستمائة. و وقع لقبجق نائب الشام المذكور فى هذه السّفرة أمور أوجبت عصيانه و خروجه من البلاد الحلبيّة بمن معه من الأمراء و مماليكه إلى غازان ملک التّتار.

و كان الذى توجّه معه من أكابر الأمراء: بكتمر السّلاح دار و ألبكى و بيغار و غيرهم فى جمع كثير، و كان خروجهم فى ليلة الثلاثاء ثامن شهر ربيع الآخر. و سبب خروج قبجق عن الطاعة و توجّهه أنه كان ورد عليه مرسوم السلطان بالقبض على هؤلاء الأمراء المذكورين و غيرهم، ففطن الأمراء بذلک فهرب منهم من هرب و بقى هؤلاء، فجاءوا إلى قبجق و هو نازل على حمص، فطلبوا منه أمانا فأمّنهم و حلف لهم، و بعث قبجق إلى السلطان يطلب منه أمانا لهم فأبطأ عليه الأمان، ثم خشّن عليه بعض أكابر أمراء دمشق فى القول بسببهم فعلم قبجق أنّ ذلک الكلام من قبل السلطان فغضب، و خرج على حميّة و تبعه الأمير عز الدين بن صبرا، و الملک الأوحد [ابن الزاهر] و جماعة من مشايخ الأمراء يسترضونه فلم يرجع؛ و ركب هو و من معه من حواشيه و من الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۷

المذكورين و سار حتى وصل ماردين، و التقى مع مقدم التّتار فخدمهم مقدّم التتار، و أخذهم و توجّه بأطلاب التتار و عساكره إلى أن وصلوا إلى غازان ملک التتار و هو نازل بأرض السّيب من أعمال واسط. فلمّا قدم قبجق و من معه على غازان سرّ بهم و أكرمهم و وعدهم و منّاهم و أعطى لكلّ أمير عشرة آلاف دينار، و لكل مملوک مائة دينار، و للمماليک الصّغار مع الرّكبدارية خمسين دينارا، و

كلّ دينار من هذه الدنانير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٩٨

صرفه باثنى عشر درهما؛ ثم أقطع الأمير قبجق المذكور مدينة همذان و أعمالها، فلم يقبل قبجق و اعتذر أن ليس له قصد إلّا أن يكون فى صحبة السلطان الملك غازان ليرى وجهه فى كلّ وقت! فأجابه غازان إلى ما سأله و أعجبه ذلك منه.

و كان لمّا خرج قبجق من حمص إلى جهة التتار، و بلغ أمراء دمشق ذلك خرج فى طلبه الأمير كجكن و الأمير أيدغدى شقير بمماليكهم و معهم أيضا جماعة من عسكر الشام، فوجدوه قد قطع الفرات و لحقوا بعض ثقله. و عند وصول قبجق و من معه إلى غازان بلغه قتل السلطان الملك المنصور لاچين بالديار المصرية و كان خبر قتل السلطان أيضا بلغ الأمير كجكن و الأمير أيدغدى لمّا خرجوا فى أثر قبجق فآنحلّت عزائمهم عن اللّحوق بقبجق و رجعوا عنه و إلا كانوا لحقوه و قاتلوه.

و أمّا أمر السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين صاحب الترجمة فإنه لمّا أخذ فى قبض من استوحش منهم من الأمراء و غيرهم، و زاد فى ذلك بإشارة مملوكه منكوتمر، استوحش الناس منه و نفرت قلوبهم و أجمعوا على عمل فتنة.

ثم فوّض لمملوكه منكوتمر جميع أمور المملكة فاستبدّ منكوتمر بوظائف الملك و مهمّاته.

و انتهى حال أستاذه الملك المنصور معه إلى أن صار إذا رسم الملك المنصور لاچين مرسوما أو كتب لأحد توقيعا و ليس هو بإشارة منكوتمر يأخذه منكوتمر من يد المعطى له و يمزّقه فى الملأ، و يردّه و يمنع أستاذه منه؛ فعند ذلك استثقل الأمراء وطأة منكوتمر و علموا أن أستاذه الملك المنصور لا يسمع فيه كلام متكلّم، فعملوا على قتل أستاذه الملك المنصور لاچين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٩٩

قلت: الولد الخبيث يكون سببا لاستجلاب اللّعنة لوالده! انتهى:

و قال الأمير بيبرس الدّوادار فى تاريخه: و كان سبب قتل لاچين أمور، منها: أنّه لمّا أراد أن يتسلطن جاءه جماعة من الأمراء و اشترطوا عليه شروطا فالتزمها لاچين، منها أنه يكون كأحدهم و لا ينفرد برأى عنهم، و لا يسلّط يد أحد من مماليكه فيهم. و كان الأعيان الحاضرون فى هذه المشورة، و المتفقون على هذه الصورة: الأمير بدر الدين بيسرى الشمسىّ. و الأمير قرا سنقر المنصورىّ. و الأمير سيف الدين قبجق. و الأمير الحاج بهادر أمير حاجب الحجّاب. و الأمير كرت.

و الأمير حسام الدين لاچين السّلاح دار الرومى الأستادار. و الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح. و الأمير عز الدين أيبك الخازندار. و الأمير جمال الدين آقوش الموصلى. و الأمير مبارز الدين أمير شكار. و الأمير بكتمر السّلاح دار. و الأمير سيف الدين سلّار. و الأمير طغجى. و الأمير كرجى. و الأمير طقطاى. و الأمير برلطاى و غيرهم. و لمّا حلف لهم الملك المنصور لاچين على ما شرطوا قال الأمير سيف الدين قبجق: نخشى أنّك إذا جلست فى المنصب تنسى هذا التقرير و تقدّم الصغير من مماليكك على الكبير، و تفوّض لمملوكك منكوتمر فى التحكم و التدبير، فتنصّل لاچين من ذلك، و كرّر لاچين الحلف أنّه لا يفعل، فعند ذلك حلفوا له. و رحلوا نحو الديار المصريّة (يعنى أنّ ذلك كان بعد هروب الملك العادل كتبغا و عند دخول لاچين إلى غزّة) فوقّع هذه الشروط كلّها بمدينة غزّة. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٠٠

قال بيبرس: فلمّا تسلطن رتّب الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ نائبا.

و الأمير الحاجّ بهادر حاجبا على عادته. و الأمير سلّار أستادارا. و الأمير بكتمر السّلاح دار أمير آخور. و استقرّ بالصاحب فخر الدين بن الخليلى فى الوزارة؛ و رتّب الأمير قبجق نائب الشام، ثم بعد مدّة أفرج عن الأمير برلغى فأعطاه إقطاعا بدمشق. ثم أفرج عن الأمير بيبرس الجاشنكير و جماعة من الأمراء، و أعطى بيبرس الجاشنكير إمرة بالقاهرة.

قلت: و بيبرس هذا هو الذى تسلطن فيما بعد حسب ما يأتى ذكره.

ثم برز مرسومه باستقرار الملك العادل كتبغا فى نيابة صرخد، و كتب له بها منشورا. انتهى كلام بيبرس باختصار، لأنه خرج فى سياق الكلام إلى غير ما نحن بصدده.

و قال غيره: و لمّا تسلطن لاچين و ثبتت قدمه و رسخت نسى الشروط و قبض على أكابر خشداشيته من أعيان أمراء مصر و أماثلهم، مثل: الأمير قرا سنقر و البيسرى و بكتمر السّلاح دار و غيرهم، و ولّى مملوكه منكوتمر نيابة السلطنة بل صار منكوتمر هو المتصرّف فى الممالك. فعند ذلك نفرت قلوب الأمراء و الجند من الملك المنصور لاچين و دبرّوا عليه، و استوحش هو أيضا منهم و احترز على نفسه، و قلّل من الركوب و لزم القعاد بقلعة الجبل متخوّفا؛ و كان كرجى خصيصا به و هو أحد من كان أعانه على السلطنة، فقدّمه لاچين لمّا تسلطن على المماليك السلطانية، فكان يتحدّث فى أشغالهم و يدخل للسلطان من أراد، لا يحجبه عنه حاجب؛ فحسده منكوتمر مع ما هو فيه من الحلّ و العقد فى المملكة؛ و سعى فى إبعاد كرجى عن السلطان الملك المنصور لاچين. فلمّا ورد البريد يخبر بأمر القلاع التى فتحها عسكر السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۱

ببلاد الأرمن حسن منكوتمر إلى السلطان أن يرسل كرجى المذكور إليها نائبا ليقيم فيها، فوافقه السلطان على ذلك، و كلّم كرجى فاستعفى كرجى من ذلك فأعفاه السلطان بعد أمور فكمن كرجى فى نفسه. ثم أخذ مع هذا منكوتمر يغلظ على المماليك السلطانية و على الأمراء الكبار فى الكلام، فعظم ذلك عليهم و تشاكوا فيما بينهم من منكوتمر، و قالوا: هذا متى طالت مدّته أخذنا واحدا واحدا بعد واحد، و أستاذه مرتبط به، و لا يمكن الوثوب عليه أيّام أستاذه، فلم يجدوا بدّا من قتل أستاذه الملك المنصور لاچين قبله، ثم يقتلونه بعده، و اتفقوا على ذلك.

قال الشيخ مجد الدين الحرميّ وكيل بيت المال: كان الملك المنصور لاچين متزوّجا ببنت الملك الظاهر بيبرس، و كانت ديّنة عفيفة، فحكت أنها رأت فى المنام، ليلة الخميس قبل قتل السلطان بليلة واحدة، كأنّ السلطان جالس فى المكان الذى قتل فيه، و كأنّ عدّة غربان سود على أعلى المكان، و قد نزل منهم غراب فضرب عمامة السلطان فرماها عن رأسه، و هو يقول: كرج كرج؛ فلمّا ذكرت ذلك للسلطان، قالت له: أقم الليلة عندنا؛ فقال السلطان: ما ثمّ إلّا ما قدّره اللّه! و خرج من عندها إلى القصر بعد أن ركب فى أوّل النهار على العادة، و كان صائما و هو يوم الخميس عاشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان و تسعين و ستمائة، فأفطر بالقصر.

ثم دخل إلى القصر الجوّانى بعد العشاء الآخرة و أخذ فى لعب الشّطرنج و عنده خواصّه و هم: قاضى القضاة حسام الدين الحنفى، و الأمير عبد اللّه، و بريد البدوى، و إمامه محب الدين بن العسال؛ فأوّل من دخل عليه كرجى، و كان نوغيه السّلاح دار من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۲

جملة المتّفقين، و هو فى نوبته عند السلطان. و كان كرجى مقدّم البرجيّة و السلطان مكبّ على لعب الشّطرنج، فأوهم كرجى أنّه يصلح الشمعة فرمى الفوطة على النّيمچاه ثم قال السلطان لكرجى: رحت بيّت البرجيّة و غلّقت عليهم؟ و البرجيّة هم الآن مماليك الأطباق، فقال كرجى: نعم يا خوند. و قد كان أوقف كرجى أكثرهم فى دهليز القصر، فشكره السلطان و أثنى عليه من حضر، فقال السلطان: لو لا الأمير سيف الدين كرجى ما وصلت أنا إلى السلطنة. فقبّل كرجى الأرض، و قال:

يا خوند، ما تصلّى العشاء؟ فقال السلطان: نعم و قام حتّى يصلّى فضربه كرجى بالسيف على كتفه، فطلب السلطان النّيمچاة فلم يجدها، فقام من هول الضربة و مسك كرجى و رماه تحته؛ و أخذ نوغيه السّلاح دار النّيمچاة و ضرب بها رجل السلطان فقطعها، فانقلب السلطان على قفاه يخور فى دمه. انتهى ما ذكره وكيل بيت المال.

و قال القاضى حسام الدين الحنفيّ: كنت عند السلطان فما شعرت إلّا و ستة أو سبعة أسياف نازلة على السلطان، و هو مكبّ على لعب الشّطرنج، فقتلوه ثم تركوه و أنا عنده، و غلّقوا علينا الباب، و كان سيف الدين طغجى قد قصد بقيّة البرجيّة المتّفقين معه و مع كرجى فى الدّركاه، فقال لهم: قضيتم الشغل؟ فقالوا: نعم. ثم إنهم توجّهوا جميعا إلى دار سيف الدين منكوتمر و هو بدار النّيابة من قلعة

الجبل، فدقّوا علیه الباب و قالوا له: السلطان یطلبک، فأنکر حالهم و قال لهم: قتلتم السلطان؟

فقال له کرجی: نعم یا مأبون و قد جئناک نقتلک، فقال: أنا ما أسلم نفسی إلیکم إنما أنا فی جیرة الأمیر سیف الدین طغجی، فأجاره طغجی و حلف له أنه لا یؤذیه و لا یمکّن أحدا من أذیّته؛ ففتح داره فتسلّموه و راحوا به إلی الجبّ فأنزلوه إلی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۳

عند الأمراء المحبوسین. فلمّا دخل إلی الجبّ قام إلیه الأمیر شمس الدین سنقر الأعسر و تلقاه متهکّما علیه، ثم قام إلیه الأمیر عز الدین أیبک الحموی و شتمه، و أراد قتله، لأنّ منکوتمر هذا کان هو السبب فی مسک هؤلاء الأمراء، و إقلاب الدولة من حرصه علی أنّ الأمر یفضی إلیه و یتسلطن بعد أستاذه. فأقام منکوتمر نحو ساعة فی الجبّ و راح الأمیر طغجی إلی داره حتی یقضی شغلا له، فآغتنم کرجی غیبته و أخذ معه جماعة و توجّه إلی باب الحبس و أطلع منکوتمر صورة أنهم یریدون تقییده کما جرت العادة فی أمر المحتبسین، فامتنع من الطلوع فألحوا علیه و أطلعوه و ذبحوه علی باب الجبّ، و نهبوا داره و أمواله. ثم اتّفقوا کما هم فی اللیل علی سلطنة الملک الناصر محمد بن قلاوون و عوده إلی ملکه کونه ابن استاذهم، و أن یکون سیف الدین طغجی نائب السلطنة، و مهما عملوه یکون باتّفاق الأمراء، و حلفوا علی هذا الأمر.

کلّ ذلک فی تلک اللیلة قبل أن یطلع الفجر و أصبح نهار الجمعة حلّفوا الأمراء و المقدّمین و العسکر جمیعه للملک الناصر محمد بن قلاوون و نائب السلطنة طغجی. و سیّروا فی الحال خلف الملک الناصر محمد یطلبونه من الکرک، و رکب الأمیر طغجی یوم السبت فی الموکب و التفّ علیه العسکر و طلع إلی قلعة الجبل، و حضر الأمراء الموکب و مدّ السّماط کما جرت العادة به من غیر هرج و لا غوغاء و کأنّه لم یجر شیء، و سکنت الفتنة، و فرح غالب الناس بزوال الدولة لأجل منکوتمر. و دام ذلک إلی أن کان یوم الاثنین رابع عشر شهر ربیع الآخر من سنة ثمان و تسعین المذکورة، وصل الأمیر بدر الدین بکتاش أمیر سلاح عائدا من الشام من فتوح سیس، و صحبته العساکر المتوجّهة معه، و کان قد راح إلیه جماعة من أمراء مصر لتلقیه إلی بلبیس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۴

و أعلموه بصورة الحال، و قالوا له: الذی وقع من قتل الملک المنصور لیس هو عن رضاهم و لا علموا به، و أغروه علی قتل طغجی و اتّفقوا معه علی ذلک، و کانوا الأمراء المذکورون قد أشاروا قبل خروجهم علی طغجی أن یخرج یلتقی الأمیر بکتاش أمیر سلاح، فرکب طغجی بکرة یوم الاثنین و توجّه نحوه حتی التقاه و تعانقا و تکارشا.

ثم قال أمیر سلاح لطغجی: کان لنا عادة من السلطان إذا قدمنا من السفر یتلقانا، و ما أعلم ذنبی الآن ما هو، کونه ما یلقانی الیوم! فقال له طغجی: و ما علمت بما جری علی السلطان؟ السلطان قتل. فقال أمیر سلاح: و من قتله؟ قال له: بعض الأمراء [و هو الأمیر سیف الدین کرت أمیر حاجب: قتله] سیف الدین طغجی و کرجی، فأنکر علیه و قال: کلّما قام للمسلمین ملک تقتلونه! تقدّم عنی لا تلتصق بی، و ساق عنه أمیر سلاح؛ فتیقّن طغجی أنّه مقتول، فحرّک فرسه و ساق فانقضّ علیه بعض الأمراء و قبض علیه بشعر دبوقته، ثم علاه بالسیف و ساعده علی قتله جماعة من الأمراء، فقتل و قتل معه ثلاثة نفر، و مرّوا سائقین إلی تحت القلعة. و کان کرجی قد قعد فی القلعة لأجل حفظها، فبلغه قتل رفیقه طغجی، فألبس البرجیّة السلاح و رکب فی مقدار ألفی فارس حتی یدفع عن نفسه، فرکبت جمیع أجناد الحلقة و الأمراء و المقدّمین فی خدمة أمیر سلاح إلی الرابعة من النهار؛ ثم حملوا العساکر علی جماعة کرجی فهزموهم، و ساق کرجی وحده، و اعتقد أنّ أصحابه یتوجّهون حیث توجّه، فلم یتبعه غیر تبعه و نوغیه الکرمونیّ أمیر سلاح دار الذی کان أعانه علی قتل الملک المنصور لاچین. فلمّا أبعدوا و القوم فی أثرهم لحقه بعض خشداشیته و ضربه بالسیف حلّ کتفه، ثم ساعده بعض الأمراء حتی قتل، و قتل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۵

معه نوغیه الکرمونیّ السّلاح دار الذی کان أعانه علی قتل لاچین المقدّم ذکره، و اثنا عشر نفرا من ممالیکهما و أصحابهما، و بطلت

الغوغاء و سكنت الفتنة فى الحال؛ و استقرّ الأمر أيضا على تولية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون كما كان دبّره طغجى و كرجى. و سيّروا بطلبه و حثّوا الطلب فى قدومه من الكرك إلى الديار المصريّة، و بقى يدبّر الأمور و يعلّم على الكتب المسيّرة إلى البلاد ثمان أمراء إلى أن حضر السلطان، و هم: الأمير سيف الدين سلّار، و الأمير سيف الدين كرت، و الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار، و الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير؛ و الأمير حسام الدين لاچين أستاذ الدار، و الأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار، و الأمير جمال الدين عبد اللّه [السّلاح دار] و جميعهم منصوريّة قلاوونيّة، و غالبهم قد أخرج من السجن بعد قتل لاچين. يأتى ذلك كلّه فى ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية عند عوده إلى السلطنة إن شاء اللّه تعالى.

و أمّا السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين فإنّه أخذ بعد قتله و غسّل و كفّن و دفن بتربته بالقرافة الصغرى بالقرب من سفح المقطّم، و دفن مملوكه منكوتمر تحت رجليه. و قتل الملك المنصور لاچين و هو فى عشر الخمسين أو جاوزها بقليل. و قد تقدّم التعريف به فى عدّة تراجم ممّا تقدّم؛ و نذكر هنا أيضا من أحواله ما يتّضح التعريف به ثانيا:

كان لاچين ملكا شجاعا مقداما عارفا عاقلا حشيما وقورا معظّما فى الدّول، طالت أيّامه فى نيابة دمشق أيّام أستاذه فى السعادة، و هو الذى أبطل الثّلج الذى كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج‌٨، ص: ١٠۶

ينقل فى البحر من الشام إلى مصر؛ و قال: أنا كنت نائب الشام و أعلم ما يقاسى الناس فى وسقه من المشقّة. و كان- رحمه اللّه- تامّ القامة أشقر فى لحيته طول يسير و خفّة، و وجه رقيق معرّق، و عليه هيبة و وقار، و فى قدّه رشاقة. و كان ذكيّا نبيها شجاعا حذورا.

و لمّا قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون هرب هو و قرا سنقر، فإنهما كانا أعانا الأمير بيدرا على قتله حسب ما ذكرناه فى ترجمة الملك الأشرف المذكور، بل كان لاچين هذا هو الذى تمّم قتله، و لمّا هرب جاء هو و قرا سنقر إلى جامع أحمد بن طولون و طلعا إلى المئذنة و استترا فيها. و قال لاچين: لئن نجّانا اللّه من هذه الشدّة و صرت شيئا عمّرت هذا الجامع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج‌٨، ص: ١٠٧

قلت: و كذا فعل رحمه اللّه تعالى، فإنه لمّا تسلطن أمر بتجديد جامع أحمد ابن طولون المذكور و رتب فى شدّ عمارته و عمارة أوقافه الأمير علم الدين أبا موسى سنجر بن عبد اللّه الصالحىّ النّجمىّ الدّوادارى المعروف بالبرنلى، و كان من أكابر أمراء الألوف بالديار المصريّة، و فوّض السلطان الملك المنصور لاچين أمر الجامع المذكور و أوقافه إليه فعمّره و عمّر وقفه و أوقف عليه عدّة قرى، و قرّر فيه دروس الفقه و الحديث و التفسير و الطّبّ و غير ذلك، و جعل من جملة ذلك وقفا يختص بالدّيكة التى تكون فى سطح الجامع المذكور فى مكان مخصوص بها، و زعم أن الدّيكة تعين الموقّتين و توقظ المؤذّنين فى السّحر، و ضمّن ذلك كتاب الوقف؛ فلمّا قرئ كتاب الوقف على السلطان و ما شرطه أعجبه جميعه. فلما انتهى إلى ذكر الدّيكة أنكر السلطان ذلك، و قال: أبطلوا هذا لئلّا يضحك اناس علينا، و أمضى ما عدا ذلك من الشروط. و الجامع المذكور عامر بالأوقاف المذكورة إلى يومنا هذا، و لولاه لكان دثر و خرب، فإنّ غالب ما كان أوقفه صاحبه أحمد بن طولون خرب و ذهب أثره، فجدّده لاچين هذا و أوقف عليه هذه الأوقاف الجمّة، فعمّر و بقى إلى الآن. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج‌٨، ص: ١٠٨

و كان المنصور لاچين فهما كريم الأخلاق متواضعا. يحكى أن القاضى شهاب الدين محمود كان يكتب بين يديه فوقع من الحبر على ثيابه، فأعلمه السلطان بذلك؛ فنظم فى الحال بيتين و هما:

ثياب مملوكك يا سيّدى قد بيّضت حالى بتسويدها

ما وقع الحبر عليها بلى وقّع لى منك بتجديدها

فأمر له المنصور بتفصیلتین و خمسمائة درهم. فقال الشهاب محمود: یا خوند، ممالیک الجماعة رفاقی یبقی ذلک فی قلوبهم، فأمر لکلّ منهم بمثل ذلک، و صارت راتبا لهم فی کلّ سنة.

و قال الشیخ صلاح الدین خلیل بن أیبک الصّفدیّ فی تاریخه: حکی لی الشیخ فتح الدین بن سیّد الناس: لمّا دخل علیه لم یدعه یبوس الأرض، و قال: أهل العلم منزّهون عن هذا و أجلسه عنده، و أظنّه قال: علی المقعد، و رتّبه موقّعا فباشر ذلک أیّاما، و استعفی فأعفاه و جعل المعلوم له راتبا فتناوله إلی أن مات. و لمّا تسلطن مدحه القاضی شهاب الدین محمود بقصیدة أوّلها:

أطاعک الدهر فأمر فهو ممتثل و احکم فأنت الذی تزهی بک الدّول

و لمّا تسلطن الملک المنصور لاچین تفاءل الناس و استبشروا بسلطنته، و جاء فی تلک السنة غیث عظیم بعد ما کان تأخّر؛ فقال فی ذلک الشیخ علاء الدین الوداعیّ:

یأیّها العالم بشراکم بدولة المنصور ربّ الفخار

فاللّه قد بارک فیها [لکم] فأمطر اللیل و أضحی النهار

و کانت مدّة سلطنة المنصور لاچین علی الدیار المصریة سنتین و ثلاثة شهور.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۹

قال الأدیب صلاح الدین الصّفدیّ: و کان دیّنا متقشّفا کثیر الصوم قلیل الأذی، قطع أکثر المکوس، و قال: إن عشت ما ترکت مکسا واحدا.

قلت: کان فیه کلّ الخصال الحسنة، لو لا تولیته مملوکه منکوتمر الأمور و محبته له، و هو السبب فی هلاکه حسب ما تقدّم. و تسلطن من بعده ابن أستاذه الملک الناصر محمد بن قلاوون طلب من الکرک و أعید إلی السلطنة. انتهت ترجمة الملک المنصور لاچین. رحمه اللّه تعالی.

السنة الأولی من سلطنة الملک المنصور لاچین علی مصر، و هی سنة ستّ و تسعین و ستمائة. علی أنّ الملک العادل کتبغا حکم منها المحرّم و أیاما من صفر.

فیها کان خلع الملک العادل کتبغا المنصوریّ من السلطنة و تولیته نیابة صرخد، و سلطنة الملک المنصور لاچین هذا من بعده حسب ما تقدّم ذکره.

و فیها فی ذی القعدة مسک الملک المنصور لاچین الأمیر شمس الدین قرا سنقر المنصوریّ نائب السلطنة بدیار مصر و حبسه، و ولّی عوضه مملوکه منکوتمر.

و فیها ولی قضاء دمشق قاضی القضاة إمام الدین القزوینیّ عوضا عن القاضی بدر الدین بن جماعة، و استمرّ ابن جماعة المذکور علی خطابة جامع دمشق.

و فیها تولّی سلطنة الیمن الملک المؤید هزبر الدین داود ابن الملک المظفّر شمس الدین یوسف ابن الملک المنصور نور الدین عمر بن علیّ بن رسول، بعد موت أخیه الأشرف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۰

و فیها توفّی الشیخ الإمام العلّامة مفتی المسلمین محیی الدین أبو عبد اللّه محمد بن یعقوب ابن إبراهیم بن هبة اللّه بن طارق بن سالم بن النّحاس الحلبی الأسدیّ الحنفیّ فی لیلة سلخ المحرّم ببستانه بالمزّة و دفن بتربته بالمزّة، و حضر جنازته نائب الشام و من دونه، و کان إماما مفتنا فی عاوم، و تولّی عدة تداریس و وظائف دینیّة، و وزر بالشام للملک المنصور قلاوون، و حسنت سیرته ثم عزل و لازم الاشتغال و الإقراء و انتفع به عامّة أهل دمشق. و مات و لم یخلّف بعده مثله.

و فیها توفّی الملک لأشرف ممهّد الدین عمر ابن الملک المظفر یوسف ابن الملک المنصور نور الدین عمر بن علیّ بن رسول ملک

اليمن، و تولّى بعده أخوه هزبر الدين داود المقدّم ذكره، و كانت مدّة ملكه دون السنتين.

و فيها توفّى القاضى تاج الدين عبد القادر ابن القاضى عزّ الدين محمد السّنجارىّ الحنفى قاضى قضاة الحنفيّة بحلب فى يوم الخميس ثامن عشرين شعبان، كان إماما فقيها عالما مفتيا ولى القضاء بعدّة بلاد و حمدت سيرته.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أزدمر بن عبد اللّه العلائىّ فى ذى القعدة بدمشق، و كان أميرا كبيرا معظّما الا أنّه شرس الأخلاق قليل الفهم رسم له الملك الظاهر بيبرس أنّه لا يركب بسيف [فبقى أكثر من عشرين سنة لا يركب بسيف]، و هو أخو الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۱

و فيها توفّى شيخ الحرم و فقيه الحجاز رضىّ الدين محمد بن أبى بكر عبد اللّه بن خليل بن إبراهيم القسطلانىّ المكىّ المعروف بابن خليل. مولده سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة، و كان فقيها عالما مفتّنا مفتيا، و له عبادة و صلاح و حسن أخلاق. مات بمكّة بعد خروج الحاج بشهر، و دفن بالمعلاة بالقرب من سفيان الثّورىّ. و من شعره رحمه اللّه:

أيّها النازح المقيم بقلبى فى أمان أنّى حللت و رحب

جمع اللّه بيننا عن قريب فهو أقصى مناى منك و حسبى

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى القاضى تاج الدين عبد الخالق بن عبد السلام بن سعيد ببعلبكّ فى المحرّم، و له ثلاث و تسعون سنة.

و قاضى القضاة عزّ الدين عمر بن عبد اللّه بن عمر بن عوض الحنبلىّ بالقاهرة.

و الحافظ الزاهد جمال الدين أحمد بن محمد بن عبد اللّه الظاهرىّ بمصر. و المحدث ضياء الدين عيسى بن يحيى السّبتىّ بالقاهرة فى رجب. و الزاهد شمس الدين محمد [بن حازم] بن حامد المقدسىّ فى ذى الحجّة. و أبو العباس أحمد بن عبد الكريم فى صفر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم كان قليلا جدّا. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا. ثم نقص و لم يوفّ فى تلك السنة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۷]

السنة الثانية من ولاية الملك المنصور لاچين على مصر، و هى سنة سبع و تسعين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۲

فيها مسك الملك المنصور لاچين الأمير بدر الدين بيسرى الشمسىّ و حبسه و احتاط على موجوده.

و فيها أخذت العساكر المصريّة تلّ حمدون و قلعتها بعد حصار، و مرعش و غيرهما، و دقّت البشائر بمصر أياما بسبب ذلك.

و فيها قدم الملك المسعود نجم الدين خضر ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ من بلاد الأشكرى إلى مصر، فتلقّاه السلطان الملك المنصور لاچين فى الموكب أكرمه. و طلب الملك المسعود الحج فأذن له بذلك. و كان الملك الأشرف خليل بن قلاوون أرسله إلى هناك. و سكن الملك المسعود بالقاهرة إلى أن مات بها حسب ما يأتى ذكره. و كان خضر هذا من أحسن الناس شكلا، و لما ختنه أبوه قال فيه القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر يهنّئ والده الملك الظاهر ركن الدين بيبرس:

منأت بالعيد و ما على الهناء أقتصر

بل إنّها بشارة لها الوجود مفتقر

بلوحة قد جمعت ما بين موسى و الخضر

قد هيأت لوردكم ماء الحياة المنهمر

قلت: و أحسن من هذا قول من قال فى مليح حليق:

مرت الموسى على عارضه فكأنّ الماء بالاس غمر

مجمع البحرين أضحى خدّه إذ تلاقى فيه موسى و الخضر

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸ ص: ۱۱۳

و فيها توفّى الشيخ الصالح الزاهد بقيّة المشايخ بدر الدين حسن ابن الشيخ الكبير القدوة العارف نور الدين أبى الحسن على بن منصور الحريرى فى يوم السبت عاشر شهر ربيع الآخر بزاويته بقرية بسر من أعمال زرع، و كان هو المتعيّن بعد أبيه فى الزاوية و على الطائفة الحريرية المنسوبين الى والده؛ و مات و قد جاوز الثمانين.

و فيها توفّى قاضى القضاة صدر الدين إبراهيم بن أحمد بن عقبة البصراوىّ الفقيه الحنفى المدرّس، أحد أعيان فقهاء الحنفية، ولى قضاء حلب ثم عزل ثم أعيد فمات قبل دخوله حلب، و كان عالما مفتّنا و له اليد الطّولى فى الجبر و المقابلة و الفرائض و غير ذلك.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر الفارسىّ الأبجىّ فى رمضان. و عائشة ابنة المجد عيسى بن [الإمام] الموفّق [عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن قدامة] المقدسىّ فى [تاسع عشر] شعبان و لها ست و ثمانون سنة. و قاضى حماة جمال الدين محمد بن سالم [ابن نصر اللّه بن سالم] ابن واصل فى شوّال. و شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن [ابن عبد المنعم بن نعمة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸ ص: ۱۱۴

ابن سلطان بن سرور] النابلسىّ الحنبلىّ العابر. و الشيخ كمال الدين عبد الرحمن بن عبد اللطيف البغدادىّ بن المكبّر فى ذى الحجة، و له ثمان و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع. و كان الوفاء آخر أيام النسىء.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸ ص: ۱۱۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۸]

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

السلطان الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، تقدّم ذكر مولده فى ترجمته الأولى من هذا الكتاب. أعيد إلى السلطنة بعد قتل الملك المنصور لاجين، فإنه كان لمّا خلع من الملك بالملك العادل كتبغا المنصورىّ أقام عند والدته بالدّور من قلعة الجبل إلى أن أخرجه الملك المنصور لاجين لمّا تسلطن إلى الكرك، فأقام الملك الناصر بالكرك إلى أن قتل الملك المنصور لاجين حسب ما ذكرناه. أجمع رأى الأمراء على سلطنته ثانيا، و خرج إليه الطلب من الديار المصرية صبيحة يوم الجمعة الحادى عشر من شهر ربيع الاخر سنة ثمان و تسعين و ستمائة، و هو ثانى يوم قتل لاجين و سار الطلب إليه؛ فلمّا قتل طغجى و كرجى فى يوم الاثنين رابع عشره استحثوا الأمراء فى طلبه، و تكرّر سفر القصّاد له من الديار المصرية إلى الكرك، حتى إذا حضر إلى الديار المصرية فى ليلة السبت رابع جمادى الأولى من السنة، و بات تلك الليلة بالإسطبل السلطانىّ، و دام به إلى أن طلع إلى القلعة فى بكرة يوم الاثنين سادس جمادى الأولى المذكور.

و حضر الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد و القضاة، و أعيد إلى السلطنة و جلس على تخت الملك. و كان الذى توجّه من

القاهرة بطلبه الأمير الحاجّ آل ملك، و الأمير سنجر الجاولى. فلمّا قدما إلى الكرك كان لملك الناصر بالغور يتصيّد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۶

فتوجّها إليه و دخل آقوش نائب الكرك إلى أمّ السلطان و بشّرها، فخافت أن تكون مكيدة من لاچين فتوقّفت فى المسير، فما زال بها حتى أجابت.

و وصل الأميران إلى الملك الناصر بالغور و قبّلا الأرض بين يديه و أعلماه بالخبر، فرحّب بهما و عاد إلى البلد و تهيّأ، و أخذ فى تجهيز أمره، و البريد يترادف باستحثاثه إلى أن قدم القاهرة، فخرج الأمراء و جميع الناس قاطبة للقائه، و كادت القاهرة و مصر ألّا يتأخر بهما أحد فرحا بقدومه. و كان خروجهم فى يوم السبت، و أظهر الناس لعوده إلى الملك من السرور ما لا يوصف و لا يحدّ، و زيّنت القاهرة و مصر بأفخر زينة، و أبطل الناس معايشهم و ضجّوا له بالدعاء و الشكر للّه على عوده إلى الملك، و أسمعوا حواشى الملك العادل كتبغا و الملك المنصور لاچين من المكروه و الاستهزاء ما لا مزيد عليه، و استمروا فى الفرح و السرور إلى يوم الاثنين، و هو يوم جلوسه على تخت الملك. و جلس على تخت الملك فى هذه المرّة الثانية و عمره يومئذ نحو أربع عشرة سنة. ثم جدّد للملك الناصر العهد، و خلع على الأمير سيف الدين سلار بنيابة السلطنة، و على الأمير حسام الدين لاچين بالأستادارية على عادته، و استمرّ الأمير آقوش الأفرم الصغير بنيابة دمشق على عادته، و خلع عليه و سفر بعد أيام.

و فى معنى سلطنة الملك الناصر محمد يقول الشيخ علاء الدين الوداعىّ الدّمشقىّ.

الملك الناصر قد أقبلت دولته مشرقة الشمس

عاد إلى كرسيّه مثلما عاد سليمان إلى الكرسى

و فى تاسع جمادى الأولى فرّقت الخلع على جميع من له عادة بالخلع من أعيان الدولة. و فى ثانى عشرة لبس الناس الخلع و ركب السلطان الملك الناصر بالخلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۷

الخليفتية و أبّهة السلطنة و شعار الملك، و نزل من قلعة الجبل إلى سوق الخيل ثم عاد إلى القلعة؛ و ترجّل فى خدمته جميع الأمراء و الأكابر و قبّلوا الأرض بين يديه.

و استقرّت سلطنته و تمّ أمره، و كتبت البشا و بذلك إلى الأقطار، و سرّ الناس بعوده إلى الملك سرورا زائدا بسائر الممالك.

و بعد أيام ورد الخبر عن غازان ملك التتار أنه قد عزم على قصد البلاد الشامية لمّا قدم عليه الأمير قبجق المنصورىّ نائب الشام و رفقته. ثم رأى غازان أن يجهّز سلامش بن أباجو فى خمسة و عشرين ألفا من الفرسان إلى بلاد الروم، على أنه يأخذ بلاد الروم، و يتوجّه بعد ذلك بسائر عساكره إلى الشام من جهة بلاد سيس و يجىء غازان من ديار بكر، و ينزلون على الفرات و يغيرون على البيرة و الرّحبة و قلعة الروم، و يكون اجتماعهم على مدينة حلب، فإن التقاهم أحد من العساكر المصرية و الشامية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۸

التقوه و إلّا دخلوا بلاد الشام؛ فاتّفق أنّ سلامش لما توجّه من عند قازان و دخل إلى الرّوم أطمعته نفسه بالملك؛ و ملك الروم و خلع طاعة غازان؛ و استخدم الجند، و أنفق عليهم و خلع على أكابر الأمراء ببلاد الروم، و كانوا أولاد قرمان قد أطاعوه، و نزلوا إلى خدمته، و هم فوق عشرة آلاف فارس. و هذا الخبر أرسله سلامش المذكور إلى مصر، و أرسل فى ضمن ذلك يطلب من المصريين النّجدة و المساعدة على غازان.

قلت: غازان و قازان كلاهما اسم لملك التتار. انتهى. و كان وصول رسول سلامش بهذا الخبر إلى مصر فى شعبان من السنة.

و أما قازان فإنه وصل إلى بغداد، و كانوا متولّين بغداد من قبله شكوا إليه من أهل السّيب و العربان أنّهم ينهبون التّجار القادمين من البحر، و أنّهم قد قطعوا السابلة فسار قازان بنفسه إليهم و نهبهم، و أقام بأرض دقوقا مشتيا. و لمّا بلغه خبر سلامش انثنى عزمه عن قصد

الشام و شرع فی تجهیز العساکر مع ثلاثة مقدّمین، و معهم خمسة و ثلاثون ألف فارس: منها خمسة عشر مع الأمیر سوتای و عشرة مع هندوجاغان و عشرة مع بولای و هو المشار إلیه من المقدّمین مع العساکر و سفّرهم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۹

إلی الروم لقتال سلامش. ثم رحل قازان إلی جهة تبریز و معه الأمیر قبجق المنصوریّ نائب الشام و بکتمر السلاح دار و الألبکی، و هؤلاء هم الّذین خرجوا من دمشق مغاضبین للملک المنصور لاچین، و سار التتار الذین أرسلهم غازان حتی وصلوا إلی الروم فی أواخر شهر رجب و التقوا مع سلامش، و کان سلامش قد عصی علیه أهل سیواس و هو یحاصرهم، فترکهم سلامش و تجهز، و جهز عساکره لملتقی التتار؛ و کان قد جمع فوق ستین ألف فارس. فلمّا قارب التتار فرّ من عسکر سلامش التتار و الروم و لحقوا بولای مقدّم عساکر غازان.

و أمّا الترکمان فإنهم ترکوه و صعدوا إلی الجبال علی عادتهم و بقی سلامش فی جمع قلیل دون خمسمائة فارس، فتوجه بهم من سیواس إلی جهة سیس، و سار منها فوصل إلی بهسنا فی أواخر شهر رجب. و کان السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون قد برز مرسومه إلی نائب الشام بأن یجرّد خمسة أمراء من حمص و خمسة من حماة و خمسة من حلب لتکملة خمسة عشر أمیرا و یبعثهم نجدة إلی سلامش.

فلمّا وصل الخبر بقدوم سلامش إلی بهسنا منهزما توقّف العسکر عن المسیر، ثم وصل سلامش إلی دمشق. و سلامش هذا هو من أولاد عمّ غازان، و هو سلامش بن أباجو بن هولاکو. و کان وصوله إلی دمشق فی یوم الخمیس ثانی عشر شعبان، فتلقّاه نائب الشام و احتفل لملاقاته احتفالا عظیما و أکرمه، و قدّم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۰

فی خدمته نائب بهسنا الأمیر بدر الدین بکتاش الزّردکاش، ثم سار سلامش من دمشق إلی جهة الدیار المصریة إلی أن وصلها، فأکرمه السلطان غایة الإکرام، و أقام بمصر أیاما قلیلة ثم عاد إلی حلب، بعد أن اتفق معه أکابر دولة الملک الناصر محمد علی أمر یفعلونه إذا قدم غازان إلی البلاد الشامیة، ثم بعد خروجه جهز السلطان خلفه أربعة آلاف فارس من العسکر المصری نجدة له لقتال التتار، و أیضا کالمقدّمة السلطان، و علی کلّ ألف فارس أمیر مائة و مقدّم ألف فارس، و هم: الأمیر جمال الدین آقوش قتّال السّبع. و المبارز أمیر شکار. و الأمیر جمال الدین عبد اللّه.

و الأمیر سیف الدین [بلبان] الحبشیّ، و هو المقدّم علی الجمیع؛ و ساروا الجمیع إلی بلاد حلب، و تهیّأ السلطان للسفر، و تجهّزت أمراؤه و عساکره. و خرج من الدیار المصریة بأمرائه و عساکره فی یوم الخمیس سادس عشرین ذی الحجّة الموافق لسادس عشرین توت أحد شهور القبط.

هذا و العساکر الشامیة فی التهیّؤ لقتال التتار، و قد دخلهم من الرعب و الخوف أمر لا مزید علیه، و سار السلطان بعساکره إلی البلاد الشامیة بعد أن تقدّمه أیضا جماعة من أکابر أمراء الدیار المصریة غیر أولئک، کالجالیش علی العادة، و هم:

الأمیر قطلوبک و الأمیر سیف الدین نکیه و هو من کبار الأمراء، کان حما الملکین الصالح و الأشرف أولاد قلاوون، و جماعة أمراء أخر، و دخلوا هؤلاء الأمراء قبل السلطان إلی الشام بأیام، فاطمأنّ خواطر أهل دمشق بهم، و سافر السلطان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۱

بالعساکر علی مهل، و أقام بغزّة و عسقلان أیاما کثیرة؛ ثم دخل إلی دمشق یوم الجمعة ثامن شهر ربیع الأوّل سنة تسع و تسعین و ستمائة، و احتفل أهل دمشق لدخوله احتفالا عظیما، و دخل السلطان بتجمّل عظیم زائد عن الوصف حتی لعلّه زاد علی الملوک الذین کانوا قبله، و نزل بقلعة دمشق بعد أن أقام بغزّة و غیرها نحو الشهرین فی الطریق إلی أن ترادفت علیه الأخبار بقرب التتار إلی البلاد الشامیة، قدم دمشق و تعین حضوره إلیها لیجتمع بعساکره السابقة له، و أقام السلطان بدمشق و جهّز عساکرها إلی جهة البلاد الحلبیّة

أمامه، ثم خرج هو بأمرائه و عساکره بعدهم فی یوم الأحد السابع عشر من شهر ربیع الأوّل من سنة تسع و تسعین المذکورة فی وسط النهار، و سار من دمشق إلی حمص، و ابتهل الناس له بالدعاء، و عظم خوف الناس و صیاحهم و بکاؤهم علی الإسلام و أهله. و وصل السلطان إلی حمص و أقام لابس السلاح ثلاثة أیام بلیالیها إلی أن حصل الملل و الضّجر، و غلت الأسعار بالعسکر و قلّت العلوفات. و بلغ السلطان أنّ التتار قد نزلوا بالقرب من سلمیة و أنّهم یریدون الرجوع إلی بلادهم لما بلغهم من کثرة الجیوش و اجتماعهم علی قتالهم. و کان هذا الخبر مکیدة من التتار، فرکب السلطان بعساکره من حمص بکرة یوم الأربعاء وقت الصبح السابع و العشرین من شهر ربیع الأول، و ساقوا الخیل إلی أن وصلوا إلیهم، و هم بالقرب من سلمیة بمکان یسمی وادی الخازندار؛ فرکب التتار للقائهم و کانوا تهیّئوا لذلک، و کان الملتقی فی ذلک المکان فی الساعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۸؛ ص۱۲۱

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۲

الخامسة من نهار الأربعاء المذکور و تصادما، و قد کلّت خیول السلطان و عساکره من السّوق، و التحم القتال بین الفریقین، و حملت میسرة المسلمین علیهم فکسرتهم أقبح کسرة، و قتلوا منهم جماعة کثیرة نحو خمسة آلاف أو أکثر؛ و لم یقتل من المسلمین إلّا الیسیر. ثم حملت القلب أیضا حملة هائلة و صدمت العدوّ أعظم صدمة، و ثبت کل من الفریقین ثباتا عظیما، ثم حصل تخاذل فی عسکر الإسلام بعضهم فی بعض.

بلاء من اللّه تعالی. فانهزمت میمنة السلطان بعد أن کان لاح لهم النصر! فلا قوّة إلا بالله. و لمّا انهزمت المیمنة انهزم أیضا من کان وراء السناجق السلطانیّة من غیر قتال، و ألقی اللّه تعالی الهزیمة علیهم فانهزم جمیع عساکر الإسلام بعد النصر، و ساق السلطان فی طائفة یسیرة من أمرائه و مدبّری مملکته إلی نحو بعلبکّ و ترکوا جمیع الأثقال، ملقاة، فبقیت العدد و السلاح و الغنائم و الأثقال ملات تلک الأراضی حتی بقیت الرماح فی الطرق کأنها القصب لا ینظر الیها أحد، و رمی الجند خوذهم عن رءوسهم و جواشنهم و سلاحهم تخفیفا عن الخیل لتنجیهم بأنفسهم، و قصدوا الجمیع دمشق. و کان أکثر من وصل إلی دمشق من المنهزمین من طریق بعلبک.

و لمّا بلغ أهل دمشق و غیرها کسرة السلطان عظم الضجیج و البکاء، و خرجت المخدّرات حاسرات لا یعرفن أین یذهبن و الأطفال بأیدیهنّ، و صار کلّ واحد فی شغل عن صاحبه إلی أن ورد علیهم الخبر أنّ ملک التتار قازان مسلم و أن غالب جیشه علی ملّة الإسلام، و أنّهم لم یتبعوا المنهزمین، و بعد انفصال الوقعة لم یقتلوا أحدا ممّن وجدوه؛ و إنما یأخذون سلاحه و مرکوبه و یطلقونه، فسکن بذلک روع أهل دمشق قلیلا،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۳

ثم صار من وصل إلی دمشق أخذ أهله و حواصله بحیث الإمکان و توجّه إلی جهة مصر، و بقی من بقی بدمشق فی خمدة و حیرة لا یدرون ما عاقبة أمرهم؛ فطائفة تغلّب علیهم الخوف و طائفة یترجون حقن الدماء و طائفة یترجّون أکثر من ذلک من عدل و حسن سیرة، و اجتمعوا فی یوم الأحد بمشهد علیّ، و اشتوروا فی أمر الخروج إلی ملک التتار غازان و أخذهم أمانا لأهل البلد فحضر من الفقهاء قاضی القضاة بدر الدین [محمد بن إبراهیم] بن جماعة، و هو یومئذ خطیب جامع أهل دمشق. و الشیخ زین الدین الفارقیّ. و الشیخ تقیّ الدین بن تیمیّة و قاضی قضاة دمشق نجم الدین [ابن] صصرّی. و الصاحب فخر الدین بن الشیرجی. و القاضی عزّ الدین بن الزکیّ.

و الشیخ وجیه الدین بن المنجّا. و الشیخ [الصدر الرئیس] عز الدین [عمر] بن القلانسیّ. و ابن عمّه بشرف الدین. و أمین الدین بن شقیر الحرّانیّ. و الشریف زین الدین بن عدنان و الصاحب شهاب الدین الحنفیّ. و القاضی شمس الدین بن الحریریّ. و الشیخ محمد بن قوام النابلسیّ. و جلال الدین أخو القاضی إمام الدین القزوینیّ. و قد خرج أخوه إمام الدین قبل ذلک مع جماعة جافلا إلی مصر. و جلال الدین ابن القاضی حسام الدین الحنفیّ. و جماعة کثیرة من العدول و الفقهاء و القراء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۴

و أمّا السلطان الملک الناصر و عساکره فإنه سار هو بخواصّه بعد الوقعة إلی جهة الکسوة. و أمّا العساکر المصریة و الشامیة فلا یمکن أن یعبّر عن حالهم، فإنه کان أکبر الأمراء یری و هو وحده و قد عجز عن الهرب لیس معه من یقوم بخدمته و هو مسرع فی السّیر خائف متوجّه إلی جهة الکسوة لا یلوی علی أحد، قد دخل قلوبهم الرّعب و الخوف، تشتمهم العامة و توبّخهم بسبب الهزیمة من التتار، و کونهم کانوا قبل ذلک یحکمون فی الناس و یتعاظمون علیهم، و قد صار أحدهم الآن أضعف من الهزیل، و أمعنوا العامّة فی ذلک و هم لا یلتفتون إلی قولهم، و لا ینتقمون من أحد منهم.

قلت: و کذا وقع فی زماننا هذا فی وقعة تیمور لنک و أعظم، فإنّ هؤلاء قاتلوا و کسروا میمنة التّتار، إلّا أصحابنا فإنّهم سلّموا البلاد و العباد من غیر قتال! حسب ما یأتی ذکره فی محلّه من ترجمة السلطان الملک الناصر فرج بن برقوق. انتهی.

قال: و عجز أکثر الأمراء و الجند عن التوجّه إلی جهة مصر خلف السلطان بسبب ضعف فرسه، فصار الجندیّ یغیر زیّه حتی یقیم بدمشق خیفة من توبیخ العامّة له، حتی بعضهم حلق شعره و صار بغیر دبوقة.

قال الشیخ قطب الدین الیونینیّ: مع أنّ اللّه تعالی لطف بهم لطفا عظیما إذ لم یسق عدوّهم خلفهم و لا تبعهم إلا حول المعرکة و ما قاربها، و کان ذلک لطفا من اللّه تعالی بهم، و بقی الأمر علی ذلک إلی آخر یوم الخمیس سادس شهر ربیع الاخر، فوصل أربعة من التتار و معهم الشریف القمّیّ و تکلّموا مع أهل دمشق، فلم ینبرم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۵

أمر. ثم قدم من الغد آخر و معه فرمان (یعنی مرسوما من غازان بالأمان) و قرئ بالمدرسة البادرائیة، ثم وقع بعد ذلک أمور یطول شرحها من أن قازان أرسل إلی أهل دمشق و عرّفهم أنه یحب العدل و الإحسان للرّعیة و إنصاف المظلوم من الظالم، و أشیاء من هذا النمط، فحصل للناس بذلک سکون و طمأنینة. ثم دخل الأمیر قبجق المنصوریّ الذی کان نائب دمشق قبل تاریخه، و هرب من الملک المنصور لاچین إلی غازان، و معه رفقته الأمیر بکتمر السّلاح دار و غیره إلی دمشق، و کلّموا الأمیر أرجواش المنصوریّ خشداشهم نائب قلعة دمشق فی تسلیمها إلی غازان؛ و قالوا له: دم المسلمین فی عنقک إن لم تسلّمها؛ فأجابهم: دم المسلمین فی أعناقکم أنتم الذین خرجتم من دمشق و توجّهتم إلی غازان و حسّنتم له المجیء إلی دمشق و غیرها، ثم وبّخهم و لم یسلّم قلعة دمشق، و تهیّأ للقتال و الحصار؛ و استمرّ علی حفظ القلعة. ثم ترادفت قصّاد غازان إلی أرجواش هذا، و طال الکلام بینهم فی تسلیم القلعة؛ فثّبته اللّه تعالی و منع ذلک بالکلّیة. و ملک قازان دمشق و خطب له بها فی یوم الجمعة رابع عشر شهر ربیع الآخر. و صورة الدعاء لغازان أن قال الخطیب: «مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام و المسلمین مظفّر الدنیا و الدین محمود غازان». و صلّی الأمیر قبجق المنصوریّ و جماعة من المغل بالمقصورة من جامع دمشق، ثم أخذ التّتار فی نهب قری دمشق و الفساد بها، ثم بجبل الصالحیة و غیرها،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۶

و فعلوا تلک الأفعال القبیحة، ثم قرّروا علی البلد تقاریر تضاعفت غیر مرّة، و حصل علی أهل دمشق الذّلّ و الهوان و طال ذلک علیهم، و کان متولّی الطلب من أهل دمشق الصفیّ السّنجاریّ، و علاء الدین أستادار قبجق، و ابنا الشیخ الحریریّ الحنّ و البن؛ و عمل الشیخ کمال الدین الزّملکانیّ فی ذلک قوله:

لهفی علی جلّق یا شرّ ما لقیت من کلّ علج له فی کفره فنّ

بالطّمّ و الرّمّ جاءوا لا عدید لهم فالجنّ بعضهم و الحنّ و البنّ

و للشیخ عز الدین عبد الغنی الجوزیّ فی المعنی:

بلینا یقوم کالکلاب أخسّة علینا بغارات المخاوف قد شنّوا

هم الجنّ حقّا ليس فى ذاك ريبة و مع ذا فقد والاهم الحنّ و البنّ

و لابن قاضى شهبة:

رمتنا صروف الدهر حقّا بسبعة فما أحد منا من السبع سالم

غلاء و غازان و غزو و غارة و غدر و إغبان و غمّ ملازم

و فى المعنى يقول أيضا الشيخ علاء الدين الوداعىّ و أجاد:

أتى الشام مع غازان شيخ مسلّك على يده تاب الورى و تزهّدوا

فخلّوا عن الأموال و الأهل جملة فما منهم إلا فقير مجرّد

و دامت هذه الشدّة على أهل دمشق و الحصار عمّال فى كلّ يوم على قلعة دمشق حتى عجزوا عن أخذها من يد أرجواش المذكور.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۷

قلت: على أنّ أرجواش كان عنده سلامة باطن إلى الغاية. يأتى ذكر بعض أحواله فى الوفيات من سنين الملك الناصر محمد بن قلاوون. انتهى.

قال: و تمّ جبى المال، و أخذه غازان و سافر من دمشق فى يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى بعد أن ولّى الأمير قبجق المنصورىّ نيابة الشام على عادته أوّلا، و قرّر بدمشق جماعة أخر يطول الشرح فى ذكرهم. و أقام الأمير قطلو شاه مقدّم عساكر التتار بعد غازان بدمشق بجماعة كثيرة من التتار لأخذ ما بقى من الأموال و لحصار قلعة دمشق، و دام على ذلك حتى سافر من دمشق ببقيّة التتار فى يوم الثلاثاء ثالث عشرين جمادى الأولى، و خرج الأمير قبجق نائب الشام لتوديعه، ثم عاد يوم الخميس خامس عشرينه، و انقطع أمر المغل من دمشق بعد أن قاسى أهلها شدائد و ذهبت أموالهم.

قال ابن المنجّا: إنّ الذى حمل إلى خزانة قازان خاصة نفسه ثلاثة آلاف ألف و ستمائة ألف سوى ما محق عليهم من التّراسيم و البراطيل، و الاستخراج لغيره من الأمراء و الوزراء و غير ذلك، بحيث إن الصّيفىّ السّنجارىّ استخرج لنفسه أكثر من ثمانين ألف درهم، و للأمير إسماعيل مائتى ألف درهم، و للوزير نحو أربعمائة ألف و قس على هذا. و استمرّ بدمشق و رسم أن ينادى فى دمشق: بأنّ أهل القرى و الحواضر يخرجون إلى أماكنهم، رسم بذلك سلطان الشام حاجّ الحرمين سيف الدين قبجق، و صار قبجق يركب بالعصابة، و الشاويشية بين يديه، و اجتمع الناس عليه. كلّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۸

ذلك و القتال و المباينة واقعة بين الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق و بين قبجق المذكور و نوّاب قازان، و الرسل تمشى بينهم فى الصلح، و أرجواش يأبى تسليم القلعة له، فللّه درّ هذا الرجل! ما كان أثبت جنانه مع تغفّل كان فيه حسب ما يأتى ذكره.

هذا و قبجق غير مستبدّ بأمر الشام بل غالب الأمر بها لنوّاب قازان مثل بولاى و غيره. ثم سافر بولاى من دمشق بمن كان بقى معه من التتار فى عشية يوم السبت الرابع من شهر رجب، و معه قبجق و قد أشيع أن قبجق يريد الانفصال عن التتار. و بعد خروجهما استبد أرجواش نائب قلعة دمشق بتدبير أمور البلد.

و فى يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب أعيدت الخطبة بدمشق إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، و للخليفة الحاكم بأمر اللّه على العادة، ففرح الناس بذلك. و كان أسقط اسم الملك الناصر محمد بن الخطبة بدمشق من سابع شهر ربيع الآخر، فالمدة مائة يوم. ثم نادى أرجواش بكرة يوم السبت بالزينة فى البلد فزيّنت.

و أما الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنّ عوده إلى الديار المصرية كان يوم الأربعاء ثانى عشر شهر ربيع الآخر و تبعته العساكر المصرية و الشامية متفرّقين، و أكثرهم عراة مشاة ضعفاء، و ذاك الذى أوجب تأخّرهم عن الدخول مع السلطان إلى مصر، و أقاموا بعد ذلك أشهرا حتى استقام أمرهم، و لو لا حصول البركة بالديار المصرية و عظمها ما وسعت مثل هذه الخلائق و الجيوش التى دخلوها

فی جفلة التتار و بعدها، فمنّ اللّه تعالی بالخیل و العدد و الرزق، إلاـ أنّ جمیع الأسعار غلت لا سمّا السّلاح و آلات الجندیّة من القماش و البرک و حوائج الخیل و غیر ذلک حتی زادت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۹

عن الحدّ. و ممّا زاد سعر العمائم، فإنّ الجند کان علی رءوسهم فی المصافّ الخوذ، فلمّا انکسروا رموا الخوذ تخفیفا و وضعوا علی رءوسهم المنادیل، فاحتاجوا لمّا حضروا إلی مصر إلی شراء العمائم، مع أن الملک الناصر أنفق فی الجیش بعد عوده، و استخدم جمعا کثیرا من الجند خوفا من قدوم غازان إلی الدیار المصریة، و تهیّأ السلطان إلی لقاء غازان ثانیا. و جهّز العساکر و قام بکلفهم أتمّ قیام علی صغر سنّه.

فلمّا ورد علیه الخبر بعدم مجیء قازان إلی الدیار المصریة تجهّز و خرج بعساکره و أمرائه من الدیار المصریة إلی جهة البلاد الشامیة إلی ملتقی غازان ثانیا، بعد أن خلع علی الأمیر آقوش الأفرم الصغیر بنیابة الشام علی عادته، و علی الأمیر قرا سنقر المنصوریّ بنیابة حماة و حلب؛ و کان خروج السلطان من مصر بعساکره فی تاسع شهر رجب من سنة تسع و تسعین و ستمائة، و سار حتی نزل بمنزلة الصالحیة بلغه عود قازان بعساکره إلی بلاده، فکلّم الأمراء السلطان فی عدم سفره و رجوعه إلی مصر فأبی عن رجوع العسکر، و سمع لهم فی عدم سفره، و أقام بمنزلة الصالحیة.

و سافر الأمیر سلّار المنصوریّ نائب السلطنة بالدیار المصریة، و الأمیر رکن الدین بیبرس الجاشنکیر بالعساکر إلی الشام. و لما سار سلار و بیبرس الجاشنکیر إلی جهة الشام تلاقوا فی الطریق مع الأمیر سیف الدین قبجق و الأمیر یکتمر السلاح دار و الألبکی و هم قاصدون السلطان، فعتب الأمراء قبجق و رفقته عتبا هیّنا علی عبور قازان إلی البلاد الشامیة، فاعتذروا أن ذلک کان خوفا من الملک المنصور لاچین و حنقا من مملوکه مکوتمر، و أنّهم لمّا بلغهم قتل الملک المنصور لاچین کانوا قد تکلّموا مع قازان فی دخول الشام، و لا بقی یمکنهم الرجوع عمّا قالوه، و لا سبیل إلی الهروب من عنده، فقبلوا عذرهم و بعثوهم إلی الملک الناصر، فقدموا علیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۰

بالصالحیة و قبّلوا الأرض بین یدیه، فعتبهم أیضا علی ما وقع منهم، فذکروا له العذر السابق ذکره، فقبله منهم و خلع علیهم؛ و عاد السلطان إلی القاهرة و صحبته خواصّه و الأمیر قبجق و رفقته، فطلع القلعة فی یوم الخمیس رابع عشر شعبان. و دخل الأمراء إلی دمشق و معهم الأمیر آقوش الأفرم الصغیر نائب الشام و غالب أمراء دمشق، و فی العسکر أیضا الأمیر قرا سنقر المنصوریّ متولّی نیابة حماة و حلب، و دخل الجمیع دمشق بتجمّل زائد، و دخلوها علی دفعات کلّ أمیر بطلبه علی حدة، و سرّ الناس بهم غایة السرور، و علموا أن فی عسکر الإسلام القوّة و المنعة و للّه الحمد.

و کان آخر من دخل إلی الشام الأمیر سلّار نائب السلطنة، و غالب الأمراء فی خدمته، حتی الملک العادل زین الدین کتبغا المنصوریّ نائب صرخد، و نزل جمیع الجیش بالمرج و خلع علی الأمیر أرجواش المنصوریّ نائب قلعة دمشق باستمراره علی عادته، و شکروا له الأمراء ما فعله من حفظ القلعة، و دخلوا الأمراء إلی دمشق و قلعة دمشق مغلقة و علیها الستائر و الطّوارف، فکلّموه الأمراء فی ترک ذلک.

فلما کان یوم السبت مستهلّ شهر رمضان أزال أرجواش الطوارف و الستائر من علی القلعة؛ فأقام العسکر بدمشق أیاما حتی أصلحوا أمرها، ثم عاد الأمیر سلّار إلی نحو الدیار المصریة بجمیع أمراء مصر و عساکره فی یوم السبت ثامن شهر رمضان، و تفرّق باقی الجیش کلّ واحد إلی محلّ ولایته؛ و دخل سلّار إلی مصر بمن معه فی ثالث شوّال بعد أن احتفل الناس لملاقاتهم، و خرج أمراء مصر إلی بلبیس، و خلع السلطان علی جمیع من قدم من الأمراء رفقة سلّار، و کانت خلعة سلّار أعظم من الجمیع. و دام السلطان بقیّة سنته بالدیار المصریة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۱

فلمّا استهلّت سنة سبعمائة كثرت الأراجيف بالشام و مصر بحركة قازان و كان قازان قد تسمى محمودا، و صار يقال له السلطان محمود غازان. ثم وصلت فى أول المحرّم من سنة سبعمائة الأخبار و القصّاد من الشرق و أخبروا أنّ قازان قد جمع جموعا كثيرة و قد نادى فى جميع بلاده الغزاة إلى مصر، و أنه قاصد الشام؛ فجفل أهل الشام من دمشق و تفرّقوا فى السواحل و قصدوا الحصون و تشتّت غالب أهل الشام إلى البلاد من الفرات إلى غزّة؛ فعند ذلك تجهز الملك الناصر و جهّز عساكره و تهيّأ و خرج بجميع عساكره و أمرائه من القاهرة إلى مسجد التّبن فى يوم السبت ثالث عشر صفر، و سافر حتى قارب دمشق أقام بمنزلته إلى سلخ شهر ربيع الآخر، و توجّه هو و عساكره عائدين إلى جهة الديار المصرية، بعد أن لاقوا شدّة و مشقّة عظيمة من كثرة الأمطار و الثلوج و الأوحال و عدم المأكول، بحيث إنه انقطعت الطريق من البرد و المطر و عدم جلب المأكول لهم و لدوابّهم، حتى إنهم لم يقدروا على الوصول إلى دمشق؛ و كان طلوع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى قلعة الجبل يوم الاثنين حادى عشر جمادى الأولى. و قبل عود السلطان إلى مصر كان جهّز السلطان الأمير بكتمر السلاح دار و الأمير بهاء الدين يعقوبا إلى دمشق أمامه، فدخلوا دمشق. ثم أشيع بدمشق عود السلطان إلى القاهرة، فجفل غالب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۲

أهل دمشق منها، و نائب الشام لم يمنعهم بل يحسّن لهم ذلك. و قيل: إنّ والى دمشق بقى يجفّل الناس بنفسه، و صار يمرّ بالأسواق، و يقول: فى أىّ شىء أنتم قعود! و لما كان يوم السبت تاسع جمادى الأولى نادت المناداة بدمشق من قعد فدمه فى رقبته، و من لم يقدر على السفر فليطلع إلى القلعة، فسافر فى ذلك اليوم معظم الناس.

و أمّا قازان فإنه وصل إلى حلب و وصل عساكره إلى قرون حماة و إلى بلاد سرمين، و سيّر معظم جيشه إلى بلاد أنطاكية و غيرها، فنهبوا من الدوابّ و الأغنام و الأبقار ما جاوز حدّ الكثرة، و سبوا عالما كثيرا من الرجال و النساء و الصبيان.

ثم أرسل اللّه تعالى على غازان و عساكره الأمطار و الثلوج بحيث إنه أمطر عليهم واحدا و أربعين يوما، وقت مطر و وقت ثلج، فهلك منهم عالم كثير؛ و رجع غازان بعساكره إلى بلادهم أقبح من المكسورين، و قد تلفت خيولهم و هلك أكثرها، و عجّزهم اللّه تعالى و خذلهم، و ردّهم خائبين عما كانوا عزموا عليه. وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ. و وصل الخبر برجوعهم فى جمادى الآخرة، و قد خلت دمشق و جميع بلاد الشام من سكانها.

ثم فى شهر رجب من السنة وصل إلى القاهرة وزير ملك الغرب بسبب الحج، و اجتمع بالسلطان و بالأمير سلار نائب السلطنة و بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فقابلوه بالإكرام و أنعموا عليه و احترموه، فلمّا كان فى بعض الأيام جلس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۳

الوزير المغربىّ المذكور بباب القلعة عند بيبرس الجاشنكير و سلّار. فحضر بعض كتّاب النصارى، فقام إليه المغربىّ يتوهّم أنه مسلم ثم ظهر له أنه نصرانىّ فقامت قيامته، و قام من وقته و دخل إلى السلطان بحضرة الأمير سلّار و بيبرس مدبّرى مملكة الناصر محمد، و تحدّث معهم فى أمر النصارى و اليهود، و أنهم عندهم فى بلادهم فى غاية الذّل و الهوان، و أنهم لا يمكنونهم من ركوب الخيل، و لا من استخدامهم فى الجهات السلطانية و الديوانية، و أنكر على نصارى ديار مصر و يهودها كونهم يلبسون أفخر الثياب و يركبون البغال و الخيل، و أنهم يستخدمونهم فى أجلّ الجهات و يحكّمونهم فى رقاب المسلمين؛ ثم إنه ذكر عهد ذمّتهم قد انقضت من سنة ستمائة من الهجرة النبويّة، و ذكر كلاما كثيرا من هذا النوع، فأثّر كلامه عند القلوب النّيرة من أهل الدولة، و حصل له قبول من الخاصّ و العام بسبب هذا الكلام، و قام بنصرته الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير و جماعة كثيرة من الأمراء وافقوه على ذلك، و رأوا أنّ فى هذا الأمر مصلحة كبيرة لاظهار شعائر الاسلام. فلمّا كان [يوم الخميس العشرون من] شهر رجب جمعوا النصارى و اليهود و رسموا لهم ألّا يستخدموا فى الجهات السلطانيّة و لا عند الأمراء، و أن يغيّروا عمائمهم فيلبس النصارى عمائم زرقا و زنانيرهم مشدودة فى أوساطهم؛ و أنّ اليهود يلبسون عمائم صفرا، فسعوا الملّتان عند جميع أمراء الدولة و أعيانها، و ساعدهم أعيان القبط و بذلوا الأموال

الكثيرة الخارجة عن الحدّ للسلطان و الأمراء على أن يعفوا من ذلك، فلم يقبل منهم شيئا.
و شدّد عليهم الأمير بيبرس الجاشنكير الأستادار- رحمه اللّه- غاية التشديد، فإنه هو الذى كان القائم فى هذا الأمر، عفا اللّه تعالى عنه و أسكنه الجنة بما فعله، فإنه رفع الاسلام بهذه الفعلة و خفض أهل الملّتين بعد أن وعد بأموال جمّة فلم يفعل.
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۴
قلت: رحم اللّه ذلك الزمان و أهله ما كان أعلى هممهم، و أشبع نفوسهم! و ما أحسن قول المتنبىّ:
أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرّهم و أتيناه على الهرم
ثم رسم السلطان الملك الناصر محمد بغلق الكنائس بمصر و القاهرة، فضرب على كل باب منها دفوف و مسامير، و أصبح يوم الثانى و العشرين من شهر رجب المبارك من سنة سبعمائة، و قد لبسوا اليهود عمائم صفرا، و النصارى عمائم زرقا، و إذا ركب أحد منهم بهيمة يكفّ إحدى رجليه، و بطلوا من الخدم السلطانية و كذلك من عند الأمراء؛ و أسلم لذلك جماعة كثيرة من النصارى، منهم: أمين الملك مستوفى الصّحبة و غيره. ثم رسم السلطان أن يكتب بذلك فى جميع بلاده من دنقلة إلى الفرات.
فأمّا أهل الإسكندرية لما وصل إليهم المرسوم سارعوا إلى خراب كنيستين عندهم، و ذكروا أنهما مستجدّتان فى عهد الإسلام، ثم داروا إلى دورهم فما وجدوه أعلى على من جاورها من دور المسلمين هدموه، و كلّ من كان جاور مسلما فى حانوت أنزلوا مصطبة حانوته بحيث يكون المسلم أرفع منه، و فعلوا أشياء كثيرة
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۵
من هذا، و أقاموا شعار الإسلام كما ينبغى على العادة القديمة؛ و وقع ذلك بسائر الأقطار لا سيّما أهل دمشق، فإنهم أيضا أمعنوا فى ذلك. و عملت الشعراء فى هذا المعنى عدّة مقاطيع شعر، و مما قاله الشيخ شمس الدين الطيبىّ:
تعجّبوا للنصارى و اليهود معا و السامريّين لمّا عمّموا الخرقا
كأنّما بات بالأصباغ منسهلا نسر السماء فأضحى فوقهم ذرقا
و مما قاله الشيخ علاء الدين كاتب ابن وداعة المعروف بالوداعىّ فى المعنى و أجاد:
لقد الزموا الكفّار شاشات ذلّة تزيدهم من لعنة اللّه تشويشا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائما و لكنّهم قد ألبسوكم براطيشا
و فيها فى تاسع ذى القعدة وصل إلى القاهرة من حلب الأمير أنس يخبر بحركة التتار، و أنّ التتار قد أرسلوا أمامهم رسلا، و أنّ رسلهم قد قاربت الفرات، ثم وصلت الرسل المذكورة بعد ذلك بمدة إلى الديار المصرية فى ليلة الاثنين خامس عشر ذى الحجّة، و أعيان القصّاد ثلاثة نفر: قاضى الموصل و خطيبها كمال الدين بن بهاء الدين بن كمال الدين بن يونس الشافعى، و آخر عجمىّ و آخر تركىّ. و لما كان عصر يوم الثلاثاء جمعوا الأمراء و المقدّمين إلى القلعة و عملت الخدمة و لبسوا المماليك أفخر الثياب و الملابس، و بعد العشاء الأخيرة أوقدوا الشموع نحوا من ألف شمعة، ثم أظهروا زينة عظيمة بالقصر، ثم أحضروا الرسل، و حضر القاضى بجملتهم و على رأسه طرحة، فقام و خطب خطبة بليغة وجيزة و ذكر آيات كثيرة فى معنى الصلح و اتّفاق الكلمة و رغّب فيه، ثم إنه دعا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون،
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۶
و من بعده للسلطان محمود غازان، و دعا للمسلمين و الأمراء و أدّى الرسالة.
و مضمونها: إنّما قصدهم الصلح و دفعوا إليهم كتابا مختوما من السلطان غازان، فأخذ منهم الكتاب و لم يقرءوه تلك الليلة، و أعيد الرسل إلى مكانهم. فلمّا كان ليلة الخميس فتح الكتاب و قرئ على السلطان و هو مكتوب بالمغلى و كتم الأمر. فلما كان يوم الخميس ثامن عشر ذى الحجّة حضر جميع الأمراء و المقدّمين و أكثر العسكر و أخرج إليهم الكتاب و قرئ عليهم، و هو مكتوب بخطّ غليظ

فى نصف قطع البغدادىّ، و مضمونه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، و ننهى بعد السلام إليه أنّ اللّه عزّ و جلّ جعلنا و إياكم أهل ملّة واحدة، و شرفنا بدين الإسلام و أيّدنا، و ندبنا لإقامة مناره و سدّدنا؛ و كان بيننا و بينكم ما كان بقضاء اللّه و قدره، و ما كان ذلك إلّا بما كسبت أيديكم، و ما اللّه بظلّام للعبيد! و سبب ذلك أنّ بعض عساكركم أغاروا على ماردين و بلادها فى شهر رمضان المعظّم قدره، الذى لم تزل الأمم يعظّمونه فى سائر الأقطار، و فيه تغلّ الشياطين و تغلق أبواب النيران، فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها، و قتلوا و سبوا و فسقوا و هتكوا محارم اللّه بسرعة من غير مهلة؛ و أكلوا الحرام و ارتكبوا الآثام، و فعلوا ما لم تفعله عبّاد الأصنام؛ فأتونا أهل ماردين صارخين مسارعين ملهوفين مستغيثين بالأطفال و الحريم، و قد استولى عليهم الشّقاء بعد النعيم؛ فلاذوا بجنابنا و تعلّقوا بأسبابنا، و وقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا؛ فهزّتنا نخوة الكرام، و حركتنا حميّة

الإسلام، فركبنا على الفور بمن كان معنا و لم يسعنا بعد هذا المقام؛ و دخلنا البلاد و قدّمنا النّية، و عاهدنا اللّه تعالى على ما يرضيه عند بلوغ الأمنية؛ و علمنا أنّ اللّه تعالى لا- يرضى لعباده الكفر بأن يسعوا فى الأرض فسادا [و اللّه لا يحبّ الفساد]، و أنه يغضب لهتك الحريم و سبى الأولاد؛ فما كان إلا أن لقيناكم بنيّة صادقة، و قلوب على الحميّة للدين موافقة؛ فمزّقنا كم كلّ ممزّق، و الذى ساقنا إليكم، هو الذى نصرنا عليكم؛ و ما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة الآية. فولّيتم الأدبار، و اعتصمتم من سيوفنا بالفرار، فعفونا عنكم بعد اقتدار، و رفعنا عنكم حكم السيف البتّار؛ و تقدمنا إلى جيوشنا ألّا يسعوا فى الأرض كما سعيتم، و أن ينشروا من العفو و العفاف ما طويتم، و لو قدرتم ما عفوتم و لا عففتم؛ و لم نقلّدكم منّة بذلك، بل حكم الإسلام فى قتال البغاة كذلك؛ و كان جميع ما جرى فى سالف القدم، و من قبل كونه جرى به فى اللّوح القلم؛ ثم لمّا رأينا الرعيّة تضرّروا بمقامنا فى الشام، لمشاركتنا لهم فى الشراب و الطعام؛ و ما حصل فى قلوب الرعيّة من الرّعب، عند معاينة جيوشنا التى هى كمطبّقات السّحب؛ فأردنا أن نسكّن تخوّفهم بعودتنا من أرضهم بالنصر و التأييد، و العلوّ و المزيد؛ فتركنا عندهم بعض جيوشنا بحيث تنوّنس بهم، و تعود فى أمرها إليهم؛ و يحرسونهم من تعدّى بعضهم على بعض، بحيث إنّكم ضاقت بكم الأرض؛ إلى أن يستقرّ جأشكم، و تبصروا رشدكم؛ و تسيّروا إلى الشام من يحفظه من أعدائكم المتقدمين، و أكرادكم

المتمرّدين؛ و تقدّمنا إلى مقدّمى طوامين جيوشنا أنّهم متى سمعوا بقدوم أحد منكم إلى الشام، أن يعودوا إلينا بسلام؛ فعادوا الينا بالنصر المبين، و الحمد للّه رب العالمين.

و الان فإنّا و إيّاكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين، و ما بيننا ما يفرّق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردين؛ و قد أخذنا منكم القصاص، و هو جزاء كلّ عاص؛ فنرجع الآن فى إصلاح الرعايا، و نجتهد نحن و إيّاكم على العدل فى سائر القضايا فقد انضرّت بيننا و بينكم حال البلاد و سكانها، و منعها الخوف من القرار فى أوطانها؛ و تعذّر سفر التجار، و توقّف حال المعايش لانقطاع البضائع و الأسفار؛ و نحن نعلم أنّنا نسأل عن ذلك و نحاسب عليه، و أنّ اللّه عزّ و جلّ لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء، و أنّ جميع ما كان و ما يكون فى كتاب لا- يغادر صغيرة و لا- كبيرة إلّا أحصاها. و أنت تعلم أيّها الملك الجليل، أنّنى و أنت مطالبون بالحقير و الجليل؛ و أننا مسئولون عمّا جناه، أقل من وليناه، و أنّ مصيرنا إلى اللّه؛ و أنا معتقدون الإسلام قولا و عملا [و نيّة، عاملون بفروضه فى كلّ وصيّة]. و قد حمّلنا قاضى القضاة علامة الوقت حجّة الإسلام بقيّة السلف كمال الدين موسى بن محمد أبا عبد اللّه، أعزّه اللّه تعالى، مشافهة يعيدها على سمع الملك و العمدة عليها، فإذا عاد من الملك الجواب فليسيّر لنا هديّة الديار المصرية، لنعلم بإرسالها أن قد حصل

منكم فى إجابتنا للصلح صدق النيّة؛ و نهدى إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم، و السلام الطيّب منا عليكم. إن شاء اللّه تعالى».

فلمّا سمع الملك الناصر الكتاب استشار الأمراء فى ذلك، و بعد أيام طلبوا قاضى الموصل (أعنى الرسول) المقدّم ذكره من عند قازان، و قالوا له: أنت من أكابر العلماء و خيار المسلمين، و تعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام و النصيحة للدّين؛ فنحن ما نتقاتل إلا لقيام الدّين؛ فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة و دهاء فنحن نحلف لك أنّ ما يطّلع على هذا القول أحد من خلق اللّه تعالى، و رغّبوه غاية الرغبة؛ فخلف لهم بما يعتقده أنّه ما يعلم من قازان و خواصّه غير الصلح و حقن الدماء و رواج التجّار و مجيئهم و إصلاح الرعية. ثم إنّه قال لهم: و المصلحة أنّكم تتفقون و تبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوّكم، و أنتم فلكم عادة فى كلّ سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها فتخرجون على عادتكم؛ فإن كان هذا الأمر خديعة فيظهر لكم فتكونون مستيقظين؛ و إن كان الأمر صحيحا فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح و تحقن الدماء فيما بينكم. فلمّا سمعوا كلامه رأوه ما فيه غرض و هو مصلحة، فشرعوا لعيّنوا من يروح فى الرسالة، فعيّنوا جماعة، منهم الأمير شمس الدين [محمد] بن التّيتىّ، و الخطيب شمس الدين الجوزىّ خطيب جامع ابن طولون، فتشفّع ابن الجوزىّ حتى تركوه، و عيّنوا القاضى عماد الدين بن السّكّرىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۰

خطيب جامع الحاكم، و هو ناظر دار العدل بالديار المصرية، و شخصا أمير آخور من البرجيّة. ثم إنّ السلطان أخذ فى تجهيز أمرهم إلى ما يأتى ذكره.

ثم استقرّ السلطان فى سنة إحدى و سبعمائة بالأمير عزّ الدين أيبك البغدادىّ المنصورىّ، أحد الأمراء البرجية فى الوزارة عوضا عن شمس الدين سنقر الأعسر، و جلس فى قلعة الجبل بخلعة الوزارة، و طلع إليه جميع أرباب الدولة و أعيان الناس.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۱

و أيبك هذا هو الرابع من الوزراء الأمراء الأتراك بالديار المصرية، الذين كان تضرب على أبوابهم الطبلخاناه على قاعدة الوزراء بالعراق زمن الخلفاء؛ فأوّلهم الأمير علم الدين سنجر الشّجاعىّ المنصورىّ. ثم ولى بعده الأمير بدر الدين بيدرا، و لمّا ولى بيدرا نيابة السلطنة أعيد الشجاعىّ، و بعده ابن السّلعوس و ليس هما من العدد، ثم الخليلىّ و ليس هو من العدد. ثم بعد الخليلى، ولى الأمير سنقر الأعسر الوزر، و هو الثالث. ثم بعده أيبك هذا و هو الرابع. و كان الوزير يوم ذاك فى رتبة النيابة بالديار المصرية، و نيابة السلطنة كانت يوم ذاك دون السلطنة. انتهى.

و فى يوم الأحد تاسع عشر المحرّم من سنة إحدى و سبعمائة، رسم السلطان لجميع الأمراء و المقدّمين بمصر و القاهرة أن يخرجوا صحبة السلطان إلى الصيد نحو العبّاسة، و أن يستصحبوا معهم عليق عشرة أيام، و سافر السلطان بأكثر العسكر و الجميع بعدّتهم فى بكرة يوم الاثنين فى العشرين من المحرّم. و نزل إلى بركة الحجّاج و تبعه جميع الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۲

و المقدّمين و العساكر، و بعد سفره سيّروا طلبوا القضاة الأربعة فتوجّهوا إليه، و اجتمعوا بالسلطان فى بركة الحجاج و عادوا إلى القاهرة، ثم شرعوا فى تجهيز رسل قازان، و تقدّم دهليز السلطان إلى الصالحية، و دخل السلطان و الأمراء إلى البريّة بسبب الصيد. فلمّا كان يوم الاثنين عشيّة النهار وصل السلطان و الأمراء إلى الصالحية، فخلع على جميع الأمراء و المقدّمين، و كان عدّة ما خلع أربعمائة و عشرين خلعة، و كان الرسل قد سفّروهم من القاهرة و أنزلوهم بالصالحية، حتى إنهم يجتمعون بالسلطان عند حضوره من الصيد. فلما حضر الأمراء قدّام السلطان بالخلع السنيه و تلك الهيئة الجميلة الحسنة أذهل عقول الرسل مما رأوا من حسن زىّ عسكر الديار المصرية بخلاف زىّ التتار، و أحضروا الرسل فى الليل إلى الدهليز إلى بين يدى السلطان، و قد أوقدوا شموعا كثيرة و مشاعل عديدة و فوانيس و أشياء كثيرة من ذلك تتجاوز عن الحد بحيث إنّ البريّة بقيت حمراء تتلهّب نورا و نارا، فتحدّثوا معهم ساعة، ثم أعطوهم جواب الكتاب، و خلعوا عليهم خلع السفر و أعطوا لكلّ واحد من الرسل عشرة آلاف درهم و قماشا و غير ذلك. و نسخة الكتاب

المسيّر إليهم صورته:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم: علمنا ما أشار الملک إليه، و عوّل فى قوله [و فعله] عليه؛ فأمّا قول الملک: قد جمعتنا و إياكم كلمة الإسلام! و إنه لم يطرف بلادنا و لا قصدها إلا لما سبق به القضاء المحتوم، فهذا الأمر غير مجهول [بل] هو عندنا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۳

معلوم؛ و إنّ السبب فى ذلک غارة بعض جيوشنا على ماردين، و إنهم قتلوا و سبوا و هتكوا الحريم و فعلوا فعل من لاله دين؛ فالملک يعلم أن غارتنا ما برحت فى بلادكم، مستمرّة من عهد آبائكم و أجدادكم؛ و أنّ من فعل ما فعل من الفساد، لم يكن برأينا و لا من أمرائنا و لا الأجناد؛ بل من الأطراف الطامعة ممّن لا يؤبه إليه، و لا يعوّل فى فعل و لا قول عليه؛ و أنّ معظم جيشنا كان فى تلک الغارة إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا لئلّا يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام، و أنهم أكثر ليلهم سجّد و نهارهم صيام.

و أمّا قول الملک ابن الملک الذى هو من أعظم القان فيقول قولا يقع عليه الردّ من قريب، و يزعم أنّ جميع ما هو عليه من علمنا ساعة واحدة يغيب؛ و لو يعلم أنّه لو تقلّب فى مضجعه من جانب إلى جانب، أو خرج من منزله راجلا أو راكبا؛ كان عندنا علم من ذلک فى الوقت القريب؛ [و يتحقق أنّ أقرب بطائنه إليه، هو العين لنا عليه، و إن كثر ذلک لديه]. و نحن تحقّقنا أنّ الملک بقى عامين يجمع الجموع، و ينتصر بالتابع و المتبوع؛ و حشد و جمع من كلّ بلد و اعتضد بالنصارى و الكرج و الأرمن، و استنجد بكلّ من ركب فرسا من فصيح و ألكن؛ و طلب من المسوّمات خيولا ـ و ركاب، و كثر سوادا و عدّد أطلاب؛ ثم إنّه لمّا رأى أنه ليس له بجيشنا قبل فى المجال، عاد إلى قول الزّور و المحال، و الخديعة و الاحتيال؛ و تظاهر بدين الإسلام، و اشتهر به فى الخاص و العام؛ و الباطن بخلاف ذلک، حتّى ظنّ جيوشنا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۴

و أبطالنا أنّ الأمر كذلک؛ فلمّا [التقينا معه] كان معظم جيشنا يمتنع من قتاله، و يبعد عن نزاله؛ و يقول: لا يجوز لنا قتال المسلمين، و لا يحلّ قتل من يتظاهر بهذا الدين!؛ فلهذا حصل منهم الفشل، و بتأخّرهم عن قتالكم حصل ما حصل؛ و أنت تعلم أنّ الدائرة كانت عليک. و ليس يرى من أصحابک الّا من هو نادم أو باكى، أو فاقد عزيز عنده أو شاكى؛ و الحرب سجال يوم لک، و يوم عليک؛ و ليس ذلک ممّا تعاب به الجيوش و لا تقهر، و هذا بقضاء اللّه و قدره المقدّر.

و أمّا قول الملک إنّه لما التقى بجيشنا مزّقهم كلّ ممزّق، فمثل هذا القول ما كان يليق بالملک أن يقوله أو يتكلّم به، و هو يعلم و إن كان ما رأى بل يسأل كبراء دولته و أمراء عساكره عن وقائع جيوشنا و مراتع سيوفنا من رقاب آبائه و أجداده، و هى إلى الآن تقطر من دمائهم؛ و إن كنت نصرت مرّة فقد كسرت آباؤک مرار، و إن كان جيشک قد داس أرضنا مرّة فبلادكم لغارتنا مقام و لجيوشنا قرار؛ و كما تدين تدان.

و أمّا قول الملک: إنّه و من معه اعتقدوا الإسلام قولا و فعلا و عملا و نيّة، فهذا الذى فعلته ما فعله من هو متوجّه الى هذه البنيّة، أعنى الكعبة المضّية فإنّ الذى جرى بظاهر دمشق و جبل الصالحية ليس بخفيّ عنک و لا مكتوم، و ليس هذا هو فعل المسلمين، و لا من هو متمسّک بهذا الدين؛ فأين و كيف و ما الحجّة! و حرم البيت المقدس تشرب فيه الخمور، و تهتک الستور، و تفتضّ البكور؛ و يقتل فيه المجاورون،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۵

و يستأسر خطباؤه [و المؤذّنون]، ثم على رأس خليل الرحمن، تعلّق الصّيلبان، و تهتک النسوان، و يدخل فيه الكافر سكران؛ فإن كان هذا عن علمک و رضاک، فواخيبتک فى دنياک و أخراک؛ و يا ويلک فى مبدئک و معادک، و عن قليل يؤذن بخراب عمرک و بلادک، و هلاک جيشک و أجنادک؛ و إن كنت لم تعلم بذلک فقد أعلمناک، فاستدرک ما فات فليس مطلوبا به سواک؛ و إن كنت كما زعمت أنّک على دين الإسلام، و أنت فى قولک صادق فى الكلام، و فى عقدک صحيح النظام؛ فاقتل الطّوامين الذين

فعلوا هـذه الفعال، و أوقع بهم أعظم النّكال؛ لنعلم أنک على بيضاء المحجّـة، و كان فعلک و قولک أبلغ حجّة؛ و لمّا وصـلت جيوشـنا إلى القاهرة المحروسـة و تحقّقوا أنّكم تظاهرتم بكلمـة الإخلاص و خـدعتم باليمين و الإيمان، و انتصـرتم على قتالهم بعبدة الصّـلبان؛ اجتمعوا و تأهّبوا و خرجوا بعزمات محمديّة، و قلوب بدريّة، و همم عليّة، عند اللّه مرضـيّة؛ و حدّوا السير فى البلاد، ليتشفّوا منكم غليل الصـدور و الأكباد؛ فما وسع جيشـكم إلا الفرار، و ما كان لهم على اللّقاء صبر و لا قرار؛ فاندفعت عساكرنا المنصورة مثل أمواج البحر الزّخـار إلى الشـام، يقصـدون دخول بلادكم ليظفروا بنيل المرام؛ فخشـينا على رعيتكم تهلک، و أنتم تهربون و لا تجـدون إلى النجاة مسلک؛ فأمرناهم بالمقام، و لزوم الأهبة و الاهتمام؛ ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا.

و أمّا ما تحمّله قاضـى القضاة من المشافهـة، فإنّا سـمعناه و وعيناه و تحقّقنا تضـمنته مشافهة؛ و نحن نعلم علمه و نسـكه و دينه و فضـله المشـهور، و زهـده فى دار الغرور؛ و لكن قاضـى القضاة غريب عنكم بعيد منكم، لم يطّلع على بواطن قضاياكم و أموركم، و لا يكاد يظهر له خفىّ مستوركم؛ فإن كنتم تريدون الصـلح و الإصـلاح، و بواطنكم كظواهركم متتابعة فى الصلاح؛ و أنت أيها الملک طالب الصلح على التحقيق، و ليس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۶

فى قولک مين و لا يشوبه تنميق؛ فنحن نقلّدک [سـيف] البغى، و من سلّ سيف البغى قتل به، و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله؛ فيرسل إلينـا من خواص دولتک رجل يكون منكم ممّن إذا قطع بأمر وقفتم عنـده، أو فصل حكما انتهيتم إليه، أو جزم أمرا عوّلتم عليه؛ يكون له فى أوّل دولتكم حكم و تمكين، و هو فيما يعوّل عليه ثقة أمين؛ لنتكلّم معه فيما فيه الصـلاح لذات البين، و إن لم يكن كذلک عاد بخفّى حنين.

و أمّا ما طلبه الملک من الهديّـة من الـديار المصـريّة فليس نبخل عليه، و مقداره عندنا أجلّ مقدار و جميع ما يهدى إليه دون قدره، و إنّما الواجب أن يهدى أوّلا من استهدى؛ لتقابل هديته بأضعافها، و نتحقّق صدق نيّته، و إخلاص سريرته؛ و نفعل ما يكون فيه رضا اللّه عزّ و جلّ و رضا رسوله فى الدنيا و الآخرة، لعلّ صفقتنا رابحة فى معادنا غير خاسرة. و اللّه تعالى الموفّق للصواب». انتهى.

ثم سافر القصّاد المذكورون، و عاد السلطان من الصّـيد فى ثالث صـفر إلى بركة الحجّاج و التقى أمير الحاج و هو الأمير سيف الدين بكتمر الجوكنـدار أمير جانـدار، و صـحبته ركب الحاجّ و المحمل السلطانىّ، فنزل عنـده السلطان و خلع عليه؛ ثم ركب و توجّه حتى صعد قلعة الجبل عصـر النهار، و دخل عقيب دخوله المحمل و الحجاج، و شكر الحاجّ من حسن سيرة بكتمر المذكور مع سرعة مجيئه بخلاف العادة؛ فإن العادة كانت يوم ذاک دخول المحمل فى سابع صـفر، و قبل ذلک و بعد ذلک. و عمل بكتمر فى هذه السّفرة من الخيرات و البرّ و الخلع على أمراء الحجـاز و غيرهم شـيئا كثيرا؛ قيـل: إنّ جملـة مـا أنفقه فى هـذه السـفرة خمسـة و ثمانون ألف دينار مصـرية، تقبل اللّه تعالى منه. ثمّ فى صـفر هذا وصل الخبر إلى السلطان بأنّ قازان على عزم الركوب و قصد الشام، و أنّ مقدّم عساكره الأمير بولاى قد قارب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۷

الفرات، و أنّ الـذى أرسـله من الرسل خديعـة. فعند ذلک شـرع السـلطان فى تجهيز العساكر، و تهيّأ للخروج إلى البلاد الشامية، ثم فى أثنـاء ذلک ورد على السـلطان قاصـد الأمير كتبغا المنصورىّ نائب صـرخد، و كتبغا هـذا هو الملک العادل المخلوع بالملک المنصور لاچين المقدّم ذكرهما، و أخبر أنه وقع بين حماة و حمص و حصن الأكراد برد و فيه شـىء على صورة بنى آدم من الذكور و الإناث، و صور قرود و غير ذلـک، فتعجب السـلطان و غيره من ذلـک. ثمّ فى ليلـة الجمعـة ثـامن عشـر جمـادى الأولى فى وقت السـحر توفّى الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد بن علىّ الهاشـمىّ العباسـىّ بمسـكنه بالكبش ظاهر القاهرة و مصر المطلّ على بركـة الفيـل، و خطب له فى ذلک اليوم بجوامع القاهرة و مصـر، فإنهم أخفوا موته إلى بعـد صـلاة الجمعـة، فلمّا انقضت الصـلاة سـيّر الأمير سـلّار نائب السلطنة خلف جماعة الصوفية و مشايخ الزوايا و الرّبط و القضاة و العلماء و الأعيان من الأمراء و غيرهم للصلاة عليه،

و تولّى غسله و تكفينه الشيخ كريم الدين شيخ الشيوخ بخانقاه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۸

سعيد السعداء، و رئيس المغسّلين بين يديه، و هو عمر بن عبد العزيز الطوخىّ، و حمل من الكبش إلى جامع أحمد بن طولون، و نزل نائب السلطنة الأمير سلّار، و الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الأستادار، و جميع الأمراء من القلعة إلى الكبش، و حضروا تغسيله و مشوا أمام جنازته إلى الجامع المذكور، و تقدّم للصلاة عليه الشيخ كريم الدين المذكور، و حمل إلى تربته بجوار السيدة نفيسة و دفن بها، بعد أن أوصى بولاية العهد إلى ولده أبى الربيع سليمان، و تقدير عمره فوق العشرين سنة. و كان السلطان طلبه فى أوّل نهار الجمعة قبل الإشاعة بموت والده، و أشهد عليه أنه ولّى الملك الناصر محمد بن قلاوون جميع ما ولّاه والده و فوّضه إليه، ثم عاد إلى الكبش. فلمّا فرغت الصلاة على الخليفة ردّ ولده المذكور و أولاد أخيه من جامع ابن طولون إلى دورهم، و نزل من القلعة خمسة خدّام من خدّام السلطان، و قعدوا على باب الكبش صفة الترسيم عليهم، و سيّر السلطان يستشير قاضى القضاة تقىّ الدين ابن دقيق العيد الشافعىّ فى أمر سليمان المذكور، هل يصلح للخلافة أم لا؟ فقال: نعم يصلح و أثنى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۹

عليه، و بقى الأمر موقوفا إلى يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى المذكور.

فلمّا كان بكرة النهار المذكور طلب سليمان إلى القلعة فطلع هو و أولاد أخيه بسبب المبايعة فأمضى السلطان ما عهد اليه والده المذكور بعد فصول و أمور يطول شرحها بينه و بين أولاد أخيه، و جلس السلطان و خلع على أبى الربيع سليمان هذا خلعة الخلافة، و نعت بالمستكفى، و هى جبّة سوداء و طرحة سوداء، و خلع على أولاد أخيه خلع الأمراء الأكابر خلعا ملوّنة. و بعد ذلك بايعه السلطان و الأمراء و القضاة و المقدّمون و أعيان الدولة، و مدّوا السّماط على العادة؛ ثم رسم له السلطان بنزوله إلى الكبش و أجرى راتبه الذى كان مقرّرا لوالده و زيادة، و نزلوا إلى الكبش و أقاموا به إلى يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة حضر من عند السلطان المهمندار و معه جماعة و صحبتهم جمال كثيرة، فنقلوا الخليفة و أولاد أخيه و نساءهم و جميع من يلوذ بهم إلى قلعة الجبل، و أنزلوهم بالقلعة فى دارين: الواحدة تسمّى بالصالحية، و الأخرى بالظاهريّة، و أجروا عليهم الرواتب المقرّرة لهم، و كان فى يوم الجمعة ثانى يوم المبايعة خطب بمصر و القاهرة للمستكفى هذا، و رسم بضرب اسمه على سكّة الدينار و الدرهم. انتهى.

و كان السلطان قبل ذلك أمر بخروج تجريدة إلى الوجه القبلى لكثرة فساد العربان و تعدّى شرّهم فى قطع الطريق إلى أن فرضوا على التجّار و أرباب المعايش بأسيوط و منفلوط فرائض جبوها شبه الجالية، و استخفّوا بالولاة و منعوا الخراج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۰

و تسمّوا بأسماء الأمراء، و جعلوا لهم كبيرين: أحدهما سمّوه سلّار، و الآخر بيبرس، و لبسوا الأسلحة و أخرجوا أهل السجون بأيديهم؛ فأحضر السلطان الأمراء و القضاة [و الفقهاء] و استفتوهم فى قتالهم، فأفتوهم بجواز ذلك؛ فاتّفق الأمراء على الخروج لقتالهم، و أخذت الطّرق عليهم لئلا يمتنعوا بالجبال و المنافذ، فيفوت الغرض فيهم، و استدعوا الأمير ناصر الدين محمد بن الشيخى متولّى الجيزة و ندبوه لمنع الناس بأسرهم من السفر إلى الصعيد فى البر و البحر، و من ظهر أنه سافر كانت أرواح الولاة قباله و ما ملك، و أشاع الأمراء أنهم يريدون السفر إلى الشام و تجهّزوا، و كتبت أوراق الأمراء المسافرين و هم عشرون مقدّما بمضاقيهم، و عينوا أربعة أقسام: قسم يتوجّه فى البرّ الغربىّ. و قسم يتوجه فى البر الشرقىّ. و قسم يركب النيل. و قسم يمضى فى الطريق السالكة. و توجه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، و كان قد قدم من الشام، إلى الواح فى خمسة أمراء، و قرّروا أن يتأخّر مع السلطان أربعة أمراء من المقدّمين، و رسم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۱

إلى كلّ من تعيّن من الأمراء لجهة أن يضع السيف فى الكبير و الصغير و الجليل و الحقير، و لا يبقوا شيخا و لا صبيّا و يحتاطوا على سائر الأموال، و سار الأمير سلّار نائب السلطنة فى رابع جمادى الآخرة و معه جماعة من الأمراء فى البر الغربىّ، و سار الأمير بيبرس

الجاشنكير بمن معه من الحاجر فى البرّ الغربىّ أيضا من طريق الواحات و سار الأمير بكتاش أمير سلاح بمن معه فى البرّ الشرقىّ و سار الأمير قتّال السبع و بيبرس الدوادار و بلبان الغلمشى و غيره من الشرقية إلى السّويس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۲

و الطور، و سار الأمير قبجق المنصورىّ نائب الشام بمن كان معه إلى عقبة السيل، و سار طقصبا والى قوص بعرب الطاعة، و أخذ عليهم المفازات؛ و قد عمّيت أخبار الديار المصرية على أهل الصعيد لمنع المسافرين إليها فطرقوا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۳

الأمراء البلاد على حين غفلة من أهلها، و وضعوا السيف من الجيزة بالبرّ الغربىّ و الإطفيحية من الشرقىّ، فلم يتركوا أحد إلّا قتلوه، و وسّطوا نحو عشرة آلاف رجل، و ما منهم إلا من أخذوا ماله و سبوا حريمه، فكان إذا ادّعى أحد منهم أنه حضرىّ، قيل له: قل دقيق، فإن قال: دقيق بالكاف لغات العرب قتل، و إن قال: بالقاف المعهودة أطلق، و وقع الرعب فى قلوب العربان حتى طبّق عليهم الأمراء و أخذوهم من كلّ جهة فرّوا إليها، و أخرجوهم من مخابئهم حتى قتلوا من جانبى النيل إلى قوص، و جافت الأرض بالقتلى، و اختفى كثير منهم بمغاور الجبال فأوقدت عليهم النّيران حتى هلكوا بأجمعهم، و أسر منهم نحو ألف و ستمائة لهم فلاحات و زروع، و حصّل من أموالهم شىء عظيم جدّا تفرّقته الأيدى، و أحضر منه إلى الديوان السلطانىّ ستة عشرة ألف رأس من الغنم، و ذلک من جملة ثمانين ألف رأس ما بين ضأن و ما عز، و من السلاح نحو مائتين و ستين جملا من السيوف و السلاح و الرماح، و من الأموال على بغال محملة مائتين و ثمانين بغلا، و نحو أربعة آلاف فرس، و اثنين و ثلاثين ألف جمل، و ثمانية آلاف رأس من البقر، غير ما أرصد فى المعاصر، و صار لكثرة ما حصّل للاجناد و الغلمان و الفقراء الذين اتّبعوا العسكر فباعوا الكبش الكبير السمين من ثلاثة دراهم إلى درهم، و المعز بدرهم الرأس، و الجزّة الصوف بنصف درهم، و الكساء بخمسة دراهم، و الرّطل السمن بربع درهم، و لم يوجد من يشترى الغلال لكثرتها؛ فإنّ البلاد طرقت و أهلها آمنون، و قد كسروا الخراج سنتين. ثم عاد العسكر فى سادس عشر شهر رجب من سنة إحدى و سبعمائة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۴

و قد خلت بلاد الصعيد من أهلها بحيث صار الرجل يمشى فلا يجد فى طريقه أحدا و ينزل القرية فلا يرى إلا النساء و الصبيان؛ ثم أفرج السلطان عن المأسورين و أعادهم إلى بلادهم لحفظ البلاد.

و عند عود الأمراء المذكورين من بلاد الصعيد ورد الخبر من حلب أن تكفور متملّک سيس منع الحمل و خرج عن الطاعة و انتمى لغازان، فرسم بخروج العساكر لمحاربته، و خرج الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح، و الأمير عزّ الدين أيبک الخازندار بمضافيهما من الأمراء و غيرهم فى شهر رمضان، فساروا إلى حماة فتوجه معهم نائبها الملک العادل زين الدين كتبغا المنصورىّ فى خامس عشرين شوّال.

و توجّهوا إلى بلاد سيس و أحرقوا الزروع و انتهبوا ما قدر عليه، و حاصروا مدينة سيس و غنموا من سفح قلعتها شيئا كثيرا من جفّال الأرمن؛ و عادوا من الدّربند إلى مرج أنطاكية. ثمّ قدموا حلب فى تاسع عشر ذى القعدة. ثم ورد الخبر على السلطان من طرابلس بأنّ الفرنج أنشئوا جزيرة تجاه طرابلس تعرف بجزيرة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۵

أرواد، و عمّروها بالعدد و الآلات، و كثر فيها جمعهم، و صاروا يركبون البحر و يأخذون المراكب. فرسم السلطان للوزير بعمارة أربعة شوان حربيّة فى محرّم سنة اثنتين و سبعمائة ففعل ذلک، و نجّزت عمارة الشوانى و جهّزت بالمقاتلة و آلات الحرب مع الأمير جمال الدين آقوش القارئ العلائىّ والى البهنسا، و اجتمع الناس لمشاهدة لعب الشوانى فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم، و نزل السلطان و الأمراء لمشاهدة ذلک، و اجتمع من العالم ما لا يحصيه إلّا اللّه تعالى حتّى بلغ كراء المركب الّتى تحمل عشرة أنفس إلى مائة درهم؛

و امتلأ البرّ من بولاق

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۶

إلى الصّناعة حتّى لم يوجد موضع قدم، و وقف العسكر على برّ بستان الخشّاب و ركب الأمراء الحراريق إلى الروضة، و برزت الشوانى تجاه المقياس تلعب كأنّها فى الحرب، فلعب الشينىّ الأوّل و الثانى و الثالث، و أعجب الناس إعجابا زائدا لكثرة ما كان فيها من المقاتلة و النفوط و آلات الحرب، و تقدّم الرابع و فيه الأمير آقوش فما هو إلّا أنّه خرج من الصناعة بمصر و توسّط فى النيل إذا بالريح حركّته فمال به ميلة واحدة انقلب و صار أعلاه أسفله، فصرخ الناس صرخة واحدة كادت تسقط منها الحبالى، و تكدّر ما كانوا فيه من الصّفو فتلاحق الناس بالشّينىّ و أخرجوا ما سقط منه فى الماء، فلم يعدم منه سوى الأمير آقوش و سلم الجميع، فتكدّر السلطان و الأمراء بسببه، و عاد السلطان بأمرائه إلى القلعة و انفضّ الجمع. و بعد ثلاثة أيام أخرج الشّينىّ فإذا امرأة الريّس و ابنها و هى ترضعه فى قيد الحياة، فاشتدّ عجب الناس من سلامتها طول هذه الأيام! قاله المقريزى و غيره، و العهدة عليهم فى هذا النقل. ثم شرع العمل فى إعادة الشّينى الذى غرق حتى نجزّ، و ندب السلطان الأمير سيف الدين كهرداش الزرّاق المنصورىّ إلى السفر فيه عوضا عن آقوش الذى غرق، رحمه اللّه تعالى، و توجّه الجميع إلى طرابلس ثم إلى جزيرة أرواد المذكورة، و هى بالقرب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۷

من أنطرطوس، فأخربوها و سبوا و غنموا، و كان الأسرى منها مائتين و ثمانين نفرا، و قدم الخبر بذلك إلى السلطان فسّر و سرّ الناس قاطبة و دقّت البشائر لذلك أياما؛ و اتّفق فى ذلك اليوم أيضا حضور الأمير بكتاش الفخرىّ أمير سلاح من غزو سيس.

ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من حلب بأنّ قازان على عزم الحركة إلى الشام، فوقع الاتّفاق على خروج العساكر من الديار المصرية إلى الشام، و عيّن من الأمراء الأمير بيبرس الجاشنكير، و طغريل الإيغانىّ، و كراى المنصورىّ، و حسام الدين لاچين أستادار بمضافيهم و ثلاثة آلاف من الأجناد، و ساروا من مصر فى ثامن عشر شهر رجب، و تواترت الأخبار بنزول قازان على الفرات، و وصل عسكره إلى الرحبة، و بعث أمامه قطلوشاه من أصحابه على عساكر عظيمة إلى الشام تبلغ ثمانين ألفا، و كتب إلى الأمير عزّ الدين [أيبك] الأفرم نائب الشام يرغّبه فى طاعته، و دخل الأمير بيبرس الجاشنكير بمن معه إلى دمشق فى نصف شعبان، و لبث يستحثّ السلطان على الخروج. و أقبل الناس من حلب و حماة إلى دمشق جافلين من التّتار، فاستعدّ أهل دمشق للفرار و لم يبق إلّا خروجهم، فنودى بدمشق من خرج منها حلّ ماله و دمه، و خرج الأمير بهادر آص و الأمير قطلوبك المنصورىّ، و أنس الجمدار فى عسكر إلى حماة، و لحق بهم عساكر طرابلس و حمص. فاجتمعوا على حماة عند نائبها الملك العادل كتبغا المنصورىّ، و بلّغ التتار ذلك فبعثوا طائفة كثيرة إلى القريتين فأوقعوا بالتّركمان، فتوجّه إليهم أسندمر كرجى نائب طرابلس و بهادر آص

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۸

و كجكن و إغزلو العادلى و تمر الساقى و أنص الجمدار و محمد بن قرا سنقر فى ألف و خمسمائة فارس، فطرقوهم بمنزلة عرض فى حادى عشر شعبان على غفلة، فافترقوا عليهم أربع فرق، و قاتلوهم قتالا شديدا من نصف النهار إلى العصر حتّى كسروهم و أفنوهم، و كانوا التّتار، فيما يقال، أربعة آلاف، و استنقذوا التّركمان و حريمهم و أولادهم من أيدى التتار، و هم نحو ستة آلاف أسير، و لم يفقد من العسكر الإسلامى إلا الأمير أنص الجمدار المنصورى و محمد بن باشقرد الناصرىّ و ستة و خمسون من الأجناد، و عاد من انهزم من التتار إلى قطلوشاه، و أسر العسكر المصرىّ مائة و ثمانين من التتار، و كتب إلى السلطان بذلك و دقّت البشائر [بدمشق]. و كان السلطان الملك الناصر محمد قد خرج بعساكره و أمرائه من الديار المصريّة إلى جهة البلاد الشاميّة فى ثالث شعبان، و خرج بعده الخليفة المستكفى بالله، و استناب السلطان بديار مصر الأمير عزّ الدين أيبك البغدادىّ.

و جدّ قطلوشاه مقدّم التتار بالعساكر فى المسير حتّى نزل قرون حماة فى ثالث عشر شعبان، فاندفعت العساكر المصريّة التى كانت بحماة بين يديه إلى دمشق، و ركب نائب حماة الأمير كتبغا الذى كان تسلطن و تلقّب بالملك العادل فى محفّة لضعفه، و اجتمع

الجمیع بدمشق و اختلف رأیهم فی الخروج إلی لقاء العدوّ أو انتظار قدوم السلطان، ثم خشوا من مفاجأة العدوّ فنادوا بالرحیل، و رکبوا فی أوّل شهر رمضان من دمشق، فاضطربت دمشق بأهلها و أخذوا فی الرحیل منها علی وجوههم، و اشتروا الحمار بستمائة درهم و الجمل بألف درهم، و ترک کثیر منهم حریمه و أولاده و نجا بنفسه إلی القلعة، فلم یأت اللّیل إلا و بوادر التتار فی سائر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۹

نواحی المدینة، و سار العسکر مخفّا، و بات الناس بدمشق فی الجامع یضجّون بالدعاء إلی اللّه تعالی، فلمّا أصبحوا رحل التتار عن دمشق بعد أن نزلوا بالغوطة.

و بلغ الأمراء قدوم السلطان فتوجّهوا إلیه من مرج راهط فلقوه علی عقبة الشّحورا فی یوم السبت ثانی شهر رمضان و قبّلوا الأرض، ثم ورد عند لقائهم به الخبر بوصول التتار فی خمسین ألفا مع قطلوشاه نائب غازان، فلبس العسکر بأجمعه السلاح، و اتّفقوا علی قتال التتار بشقحب تحت جبل غباغب؛ و کان قطلوشاه قد وقف علی أعلی النهر، فصفّت العساکر الإسلامیة، فوقف السلطان فی القلب و بجانبه الخلیفة، و الأمیر سلّار النائب، و الأمیر بیبرس الجاشنکیر، و عزّ الدین أیبک الخازندار، و بکتمر الجوکندار، و آقوش الأفرم نائب الشام، و الأمیر برلغی، و الأمیر أیبک الحمویّ، و بکتمر الأبوبکریّ، و قطلوبک، و نوغای السلاح دار، و مبارز الدین أمیر شکار، و یعقوبا الشّهرزوریّ، و مبارز الدین أولیا بن قرمان؛ و وقف فی الجناح الأیمن الأمیر قبجق بعساکر حماة و العربان و جماعة کثیرة من الأمراء؛ و وقف فی المیسرة الأمیر بدر الدین بکتاش الفخریّ أمیر سلاح، و الأمیر قرا سنقر نائب حلب بعساکرها، و الأمیر بتخاص نائب صفد بعساکرها؛ و الأمیر طغریل الإیغانی، و بکتمر السلاح دار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۰

و بیبرس الدّوادار بمضافیهم. و مشی السلطان علی التتار و الخلیفة بجانبه و معهما القرّاء یتلون القرآن و یحثّون علی الجهاد و یشوّقون إلی الجنة، و صار الخلیفة یقول:

یا مجاهدون لا- تنظروا لسلطانکم، قاتلوا عن دین نبیّکم صلّی اللّه علیه و سلّم و عن حریمکم! و الناس فی بکاء شدید، و منهم من سقط عن فرسه إلی الأرض! و وصّی بیبرس و سلّار علی الثبات فی الجهاد. و کلّ ذلک و السلطان و الخلیفة یکرّ فی العساکر یمینا و شمالا- ثم عاد السلطان و الخلیفة إلی مواقفهما، و وقف خلفه الغلمان و الأحمال و العساکر صفّا واحدا، و قال لهم: من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه و لکم سلبه. فلمّا تمّ الترتیب زحفت کرادیس التتار کقطع اللیل، و کان ذلک وقت الظهر من یوم السبت ثانی رمضان المذکور. و أقبل قطلوشاه بمن معه من الطّوامین، و حملوا علی المیمنة فثبت لهم المیمنة و قاتلوهم أشدّ قتال حتی قتل من أعیان المیمنة الأمیر حسام الدین لاچین الأستادار، و أولیا بن قرمان، و الأمیر سنقر الکافوری، و الأمیر أیدمر الشّمسیّ القشّاش، و الأمیر آقوش الشمسیّ الحاجب، و حسام الدین علی بن باخل و نحو الألف فارس، کلّ ذلک و هم فی مقابلة العدوّ و القتال عمّال بینهم. فلما وقع ذلک أدرکتهم الأمراء من القلب و من المیسرة، و صاح سلّار: هلک و اللّه أهل الإسلام! و صرخ فی بیبرس الجاشنکیر و فی البرجیّة فأتوه دفعة واحدة، فأخذهم و صدم بهم العدوّ و قصد مقدّم التتار قطلوشاه، و تقدّم عن المیمنة حتّی أخذت المیمنة راحة، و أبلی سلّار فی ذلک الیوم هو و بیبرس الجاشنکیر بلاء حسنا، و سلّموا نفوسهم إلی الموت. فلمّا رأی باقی الأمراء منهم ذلک ألقوا نفوسهم إلی الموت، و اقتحموا القتال، و کانت لسلّار و الجاشنکیر فی ذلک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۱

الیوم الید البیضاء علی المسلمین- رحمهما اللّه تعالی- و استمرّوا فی القتال إلی أن کشفوا التّتار عن المسلمین، و کان جوبان و قرمجی من طوامین التتار قد ساقا تقویة لبولای و هو خلف المسلمین؛ فلمّا عاینوا الکسرة علی قطلوشاه أتوه نجدة و وقفوا فی وجه سلّار و بیبرس، فخرج من عسکر السلطان [أسندمر] و الأمیر قطلوبک و الأمیر قبجق و الممالیک السلطانیة و أردفوا سلّار و بیبرس، و قاتلوا أشدّ قتال حتی أزاحوهم عن مواقفهم، فمالت التتار علی الأمیر برلغی فی موقفه، فتوجّهوا الجماعة المذکورون إلی برلغی، و استمرّ

القتال بينهم.

و أمّا سلّار فإنّه قصد قطلوشاه مقدّم التتار و صدمه بمن معه، و تقاتلا و ثبت كلّ منهما، و كانت الميمنة لمّا قتل الأمراء منها انهزم من كان معهم، و مرّت التتار حلفهم فجفل الناس و ظنّوا أنّها كسرة، و أقبل السواد الأعظم على الخزائن السلطانية فكسروها و نهبوا ما فيها من الأموال، و جفل النساء و الأطفال. و كانوا قد خرجوا من دمشق عند خروج الأمراء منها، و كشف النساء عن وجوههنّ و أسبلن الشعور و ضجّ ذلک الجمع العظيم بالدعاء، و قد كادت العقول أن تطيش و تذهب عند مشاهدة الهزيمة! و استمرّ القتال بين التتار و المسلمين إلى أن وقف كلّ من الطائفتين عن القتال.

و مال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه، و صعد عليه و فى نفسه أنّه انتصر، و أنّ بولاى فى أثر المنهزمين من المسلمين، فلمّا صعد الجبل رأى السهل و الوعر كلّه عساكر و الميسرة السلطانية ثابتة، و أعلامها تخفق، فبهت قطلوشاه و تحيّر و استمرّ بموضعه حتّى كمل معه جمعه و أتاه من كان خلف المنهزمين من السلطانية و معهم عدّة من المسلمين قد أسروهم، منهم: الأمير عزّ الدين أيدمر نقيب المماليک السلطانيّة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۲

فأحضره قطلوشاه و سأله من أين أنت؟ فقال: من أمراء مصر، و أخبره بقدوم السلطان، و كان قطلوشاه ليس له علم بقدوم السلطان بعساكر مصر إلا ذلک الوقت، فعند ذلک جمع قطلوشاه أصحابه و شاورهم فيما يفعل، و إذا بكوسات السلطان و البوقات قد زحفت و أزعجت الأرض و أرجفت القلوب بحسها، فلم يثبت بولاى و خرج من تجاه قطلوشاه فى نحو العشرين ألفا من التتار، و نزل من الجبل بعد المغرب و مرّ هاربا.

و بات السلطان و سائر عساكره على ظهور الخيل و الطّبول تضرب، و تلاحق بهم من كان انهزم شيئا بعد شيء، و هم يقصدون ضرب الطبول السلطانية و الكوسات، و احتاط عسكر السلطان بالجبل الذى بات عليه التتار، و صار بيبرس و سلّار و قبجق و الأمراء و الأكابر فى طول الليل دائرين على الأمراء و الأجناد يوصونهم و يرتّبونهم و يؤكّدون عليهم فى التيقّظ، و وقف كلّ أمير فى مصافّه مع أصحابه، و الحمل و الأثقال قد وقف على بعد، و ثبتوا على ذلک حتى ارتفعت الشمس، و شرع قطلو شاه فى ترتيب من معه و نزلوا مشاة و فرسانا و قاتلوا العساكر، فبرزت المماليک السلطانيّة بمقدّميها إلى قطلو شاه و جوبان، و عملوا فى قتالهم عملا عظيما، فصاروا تارة يرمونهم بالسهام و تارة يواجهونهم بالرماح، و اشتغل الأمراء أيضا بقتل من فى جهتهم يتناوبون القتال أميرا بعد أمير، و ألحّت المماليک السلطانية فى القتال و أظهروا فى ذلک اليوم من الشجاعة و الفروسية ما لا يوصف حتّى إنّ بعضهم قتل تحته الثلاثة من الخيل، و ما زال الأمراء على ذلک حتّى انتصف نهار الأحد، صعد قطلو شاه الجبل و قد قتل من عسكره نحو ثمانين رجلا، و جرح الكثير و اشتدّ عطشهم، و اتّفق أنّ بعض من كان أسره التتار هرب و نزل إلى السلطان، و عرّفه أنّ التتار قد أجمعوا على النزول فى السّحر لمصادمة العساكر السلطانية، و أنّهم فى شدّة من العطش،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۳

فاقتضى الرأى أن يفرج لهم عند نزولهم و يركب الجيش أقفيتهم. فلمّا باتوا على ذلک و أصبحوا نهار الاثنين ركب التتار فى الرابعة من النهار و نزلوا من الجبل فلم يتعرّض لهم أحد و ساروا إلى النهر فاقتحموه، فعند ذلک ركبهم بلاء اللّه من المسلمين و أيّدهم اللّه تعالى بنصره حتى حصدوا رءوس التتار عن أبدانهم و وضعوا فيهم السيف و مرّوا فى أثرهم قتلا و أسرا إلى وقت العصر. و عادوا إلى السلطان و عرّفوه بهذا النصر العظيم، فكتبت البشائر فى البطائق، و سرّحت الطيور بهذا النصر العظيم إلى غزة.

و كتب إلى غزّة بمنع المنهزمين من عساكر السلطان من الدخول إلى مصر، و تتبع من نهب الخزائن السلطانية و الاحتفاظ بمن يمسک منهم، و عيّن السلطان الأمير بدر الدين بكتوت الفتّاح للمسير بالبشارة إلى مصر.

ثم كتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار، و بات السلطان ليلته و أصبح يوم الثلاثاء و قد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها فى عالم

عظيم من الفرسان و الأعيان و العامّة و النساء و الصبيان لا يحصيهم إلّا اللّه تعالى، و هم يضجّون بالدعاء و الهناء و الشكر للّه سبحانه و تعالى على هذه المنّة! و تساقطت عبرات الناس فرحا و دقت البشائر بسائر الممالك، و كان هذا اليوم يوما لم يشاهد مثله. و سار السلطان حتى نزل بالقصر الأبلق، و قد زيّنت المدينة، و استمرّت الأمراء و بقيت العساكر فى طلب التتار إلى القريتين، و قد كلّت خيول التتار و ضعفت نفوسهم و ألقوا أسلحتهم و استسلموا للقتل، و العساكر تقتلهم بغير مدافعة، حتى إن أراذل العامة و الغلمان قتلوا منهم خلقا كثيرا و غنموا عدّة غنائم، و قتل الواحد من العسكر العشرين من التتار فما فوقها؛ ثم أدركت عربان البلاد التتار و أخذوا فى كيدهم كأنّهم يهدونهم إلى طريق قريبة مفازة، فيوصّلونهم إلى البريّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۴

و تركوهم بها فماتوا عطشا، و منهم من دار بهم و أوصلوهم إلى غوطة دمشق، فخرجت إليهم عامّة دمشق فقتلوا منهم خلقا كثيرا. ثم تتبعت الحكّام النّهبة و عاقبوا منهم جماعة كثيرة حتّى تحصل أكثر ما نهب من الخزائن و لم يفقد منه إلّا القليل. ثم خلع السلطان على الأمراء جميعهم، ثم حضر الأمير برلغى و قد كان انهزم فيمن انهزم، فلم يأذن له السلطان فى الدخول عليه، و قال: بأىّ وجه تدخل علىّ أو تنظر فى وجهى! فما زال به الأمراء حتى رضى عنه. ثم قبض على رجل من أمراء حلب كان قد انتمى إلى التتار و صار يدلّهم على الطّرقات، فسمّر على جمل و شهّر بدمشق و ضواحيها، و استمرّ الناس فى شهر رمضان كلّه فى مسرّات تتجدد، ثم صلّى السلطان صلاة عيد الفطر و خرج فى ثالث شوّال من دمشق يريد الديار المصريّة.

و أمّا التتار فإنّه لمّا قتل أكثرهم و دخل قطلو شاه الفرات فى قليل من أصحابه و وصل خبر كسرته إلى همذان، و وقعت الصّرخات فى بلادهم، و خرج أهل تبريز و غيرها إلى لقائهم و استعلام خبر من فقد منهم حتّى علموا ذلك، فقامت النّياحة فى مدينة تبريز شهرين على القتلى.

ثم بلغ الخبر غازان فاغتمّ غمّا عظيما و خرج من منخريه دم كثير حتّى أشفى على الموت و احتجب عن حواشيه، فإنه لم يصل إليه من عساكره من كلّ عشرة واحد! ممن كان انتخبهم من خيار جيشه. ثم بعد ذلك بمدّة جلس قازان و أوقف قطلو شاه مقدّم عساكره و جوبان و سوتاى و من كان معهم من الأمراء، و أنكر على قطلو شاه و أمر بقتله، فما زالوا به حتى عفا عنه و أبعده من قدّامه حتى صار على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۵

مسافة بعيدة بحيث يراه، و قام إليه، [و قد مسكه الحجاب] و سائر من حضروهم خلق كثير جدّا، و صار كلّ منهم يبصق فى وجهه حتى بصق الجميع! ثم أبعده عنه إلى كيلان ثم ضرب بولاى عدّة عصىّ و أهانه. و فى الجملة فإنّه حصل على غازان بهذه الكسرة من القهر و الهمّ ما لا مزيد عليه، و للّه الحمد.

و سار السلطان الملك الناصر بعساكره و أمرائه حتى وصل إلى القاهرة، و دخلها فى يوم ثالث عشرين شوّال حسب ما يأتى ذكره. و كان نائب الغيبة رسم بزينة القاهرة من باب النصر إلى باب السلسلة من القلعة؛ و كتب بإحضار سائر مغانى العرب بأعمال الديار المصرية كلّها، و تفاخر الناس فى الزينة و نصبوا القلاع، و اقتسمت أستادارية الأمراء شوارع القاهرة إلى القلعة، و زيّنوا ما يخصّ كلّ واحد منهم و عملوا به قلعة بحيث نودى من استعمل صانعا فى غير صنعة القلاع كانت عليه جناية السلطان، و تحسّن سعر الخشب و القصب و آلات النّجارة، و تفاخروا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۶

فى تزيين القلاع المذكورة، و أقبل أهل الرّيف إلى القاهرة للفرجة على قدوم السلطان و على الزينة، فإنّ الناس كانوا أخرجوا الحلىّ و الجواهر و اللآلئ و أنواع الحرير فزيّنوا بها، و لم ينسلخ شهر رمضان حتّى تهيّأ أمر القلاع؛ و عمل ناصر الدين محمد ابن الشّيخىّ والى القاهرة قلعة بباب النصر فيها سائر أنواع الجدّ و الهزل و نصب عدّة أحواض ملأها بالسّكّر و اللّيمون و أوقف مماليكه بشربات حتّى

يسقوا العسكر.

قلت: لو فعل هذا فى زماننا والى القاهرة لكان حصل عليه الإنكار بسبب إضاعة المال، و قيل له: لم لا حملت إلينا ما صرفته؟ فإنّه كان أنفع و خيرا من هذا الفشار، و إنما كانت نفوس أولئك غنيّة و هممهم عليّة، و ما كان جلّ قصدهم إلا إظهار النّعمة و التفاخر فى الحشم و الأسمطة و الإنعامات حتى يشاع عنهم ذلك و يذكر إلى الأبد، فرحم اللّه تلك الأيام و أهلها!.

و قدم السلطان إلى القاهرة فى يوم الثلاثاء ثالث عشرين شوّال، و قد خرج الناس إلى لقائه و للفرجة عليه، و بلغ كراء البيت الذى يمرّ عليه السلطان من خمسين درهما إلى مائة درهم، فلمّا وصل السلطان إلى باب النصر ترجّل الأمراء كلّهم، و أوّل من ترجّل منهم الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح و أخذ يحمل سلاح السلطان، فأمره السلطان أن يركب لكبر سنّه و يحمل السلاح خلفه فامتنع و مشى، و حمل الأمير مبارز الدين سوار الرومى أمير شكار القبة، و الطير على رأس السلطان، و حمل الأمير بكتمر أمير جاندار العصا، و الأمير سنجر [الجمقدار] الدّبّوس؛ و مشى كلّ أمير فى منزلته و فرش كلّ منهم الشّقق من قلعته إلى قلعة غيره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۷

التى أنشئوها بالشوارع. و كان السلطان إذا تجاوز قلعة فرشت القلعة المجاورة لها الشّقق، حتّى يمشى عليها بفرسه مشيا هيّنا من غير هرج بسكون و وقار لأجل مشى الأمراء بين يديه. و كان السلطان كلّما رأى قلعة أمير أمسك عن المشى و وقف حتّى يعاينها و يعرف ما اشتملت عليه هو و الأمراء حتى يجبر خاطر فاعلها بذلك.

هذا و الأمراء من التتار بين يديه مقيّدون و رءوس من قتل منهم معلّقة فى رقابهم، و ألف رأس على ألف رمح، و عدّة الأسرى ألف و ستمائة، و فى أعناقهم أيضا ألف و ستمائة رأس، و طبولهم قدّامهم مخرّقة. و كانت القلاع التى نصبت أوّلها قلعة الأمير ناصر الدين ابن الشّيخى والى القاهرة بباب النصر، و يليها قلعة الأمير علاء الدين مغلطاى أمير مجلس، و يليها قلعة ابن أيتمش السّعدىّ، ثم يليها قلعة الأمير سنجر الجاولى، و بعده قلعة الأمير طغريل الإيغانىّ ثم قلعة بهادر اليوسفىّ، ثم قلعة سودى، ثم قلعة بيليك الخطيرى، ثم قلعة برلغى، ثم قلعة مبارز الدين أمير شكار، ثم قلعة أيبك الخازندار، ثم قلعة سنقر الأعسر، ثم قلعة بيبرس الدّوادار، ثم قلعة سنقر الكاملىّ، ثم قلعة موسى ابن الملك الصالح، ثم قلعة الأمير آل ملك، ثم قلعة علم الدين الصوابى، ثم قلعة الأمير جمال الدين الطّشلاقىّ، ثم قلعة الأمير [سيف الدين] آدم، ثم قلعة الأمير سلّار [النائب]، ثم قلعة الأمير بيبرس الجاشنكير، ثم قلعة بكتاش أمير سلاح، ثم قلعة الطّواشى مرشد الخازندار، و كانت قلعته على باب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۸

المدرسة المنصوريّة،، ثم بعده قلعة بكتمر أمير جاندار، ثم قلعة أيبك البغدادىّ نائب الغيبة، ثم قلعة ابن أمير سلاح، ثم قلعة بكتوت الفتّاح، ثم قلعة تاكز الطغريلىّ، ثم قلعة قلّى السلاح دار، ثم قلعة لاچين زيرباج الجاشنكير، ثم قلعة طيبرس الخازندارى نقيب الجيش، ثم قلعة بلبان طرنا، ثم قلعة سنقر العلانى، ثم قلعة بهاء الدين يعقوبا، ثم قلعة الأبوبكرى، ثم قلعة بهادر المعزى، ثم قلعة كوكاى، ثم قلعة قرا لاچين، ثم قلعة كراى المنصورىّ، ثم قلعة جمال الدين آقوش قتال السبع، و قلعته كانت على باب زويلة؛ و كان عدّتها سبعين قلعة. و عند ما وصل السلطان إلى باب البيمارستان المنصورى ببين القصرين نزل و دخل و زار قبر والده الملك المنصور قلاوون و قرأ القرّاء أمامه، ثم ركب إلى باب زويلة و وقف حتّى أركب الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح، ثم سار السلطان على شقق الحرير إلى داخل قلعة الجبل. هذا و التهانى فى دور السلطان و الأمراء و غيرهم قد امتلأت منهم البيوت و الشوارع بحيث إنّ الرجل كان لا يسمع كلام من هو بجانبه إلا بعد جهد، و كان يوما عظيما عظم فيه سرور الناس قاطبة لا سيّما أهل مصر، فإنّهم فرحوا بالنصر و أيضا بسلامة سلطانهم الملك الناصر محمد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۹

و أقام الملك الناصر بالديار المصريّة إلى سنة ثلاث و سبعمائة ورد عليه الخبر بموت غازان بمدينة الرّىّ و قام بعده أخوه خربندا بن

أرغون بن أبغا بن هولاكو فى ثالث عشر شوال و جلس خربندا على تخت الملك فى ثالث عشر ذى الحجّة و تلقّب غياث الدين محمدا، و كتب إلى السلطان بجلوسه و طلب الصلح و إخماد الفتنة.

ثم فى السنة استأذن الأمير سلّار نائب السلطنة فى الحجّ فأذن له، فحجّ كما حجّ الأمير بيبرس الجاشنكير فى السنة الماضية سنة اثنتين و سبعمائة إلّا أنّ سلّار صنع من المعروف فى هذه السنة و الإحسان إلى أهل مكّة و المجاورين و غيرهم و عاد، ثم حجّ الأمير بيبرس الجاشنكير ثانيا فى سنة أربع و سبعمائة. و ورد الخبر على السلطان الملك الناصر بقدوم رجل من بلاد التتار إلى دمشق يقال له الشيخ براق فى تاسع جمادى الأولى و معه جماعة من الفقراء نحو المائة لهم هيئة عجيبة، على رأسهم كلاوت لباد مقصّص بعمائم فوقها، و فيها قرون من لباد يشبه قرون الجواميس، و فيها أجراس، و لحاهم محلّقة دون شواربهم، و لبسهم لبابيد بيض، و قد تقلّدوا بحبال منظومة بكعاب البقر، و كلّ منهم مكسور الثّنيّة العليا، و شيخهم من أبناء الأربعين سنة، و فيه إقدام و جرأة و قوّة نفس و له صولة، و معه طبلخاناه تدقّ له نوبة، و له محتسب على جماعته، يؤدّب كلّ من يترك شيئا من سنّته، يضرب عشرين عصاة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۰

تحت رجليه، و هو و من معه ملازمون التعبّد و الصلاة، و إنه قيل له عن زيّه، فقال:

أردت أن أكون مسخرة الفقراء. و ذكر أنّ غازان لما بلغه خبره استدعاه و ألقى عليه سبعا ضاريا فركب على ظهر السّبع و مشى به فجلّ فى عين قازان و نثر عليه عشرة آلاف دينار، و أنّه عند ما قدم دمشق كان النائب بالميدان الأخضر فدخل عليه، و كان هناك نعامة قد تفاقم ضررها و شرّها و لم يقدر أحد على الدنوّ منها، فأمر النائب بإرسالها عليه فتوجّهت نحوه، فوثب عليها و ركبها فطارت به فى الميدان قدر خمسين ذراعا فى الهواء حتّى دنا من النائب، و قال له: أطير بها إلى فوق شيئا آخر؟ فقال له النائب: لا، و أنعم عليه و هاداه الناس، فكتب السلطان بمنعه من القدوم إلى الديار المصريّة، فسار إلى القدس ثم رجع إلى بلاده. و فى فقرائه يقول سراج الدين عمر الورّاق من موشّحة طويلة أوّلها:

[جتنا عجم من جوّ الروم] صور تحير فيها الأفكار

لها قرون مثل التّيران إبليس يصيح منهم زنهار

و قد ترجمنا براق هذا فى تاريخنا المنهل الصافى بأوسع من هذا. انتهى.

ثم إنّ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة سبع و سبعمائة ضجر من الحجر عليه من تحكّم الأميرين سلّار و بيبرس الجاشنكير و منعه من التصرّف و ضيق يده، و شكا ذلك لخاصّته، و استدعى الأمير بكتمر الجوكندار و هو أمير جاندار يوم ذاك فى خفية و أعلمه بما عزم عليه من القيام على الأميرين سلّار و بيبرس، فقرّر معه بكتمر أنّ القلعة إذا أغلقت فى اللّيل و حملت مفاتيحها إلى السلطان على العادة لبست مماليك السلطان السلاح و ركبت الخيول من الإسطبل و سارت إلى إسطبلات الأمراء، و دقّت كوسات السلطان بالقلعة حربيّا ليجتمع المماليك تحت القلعة بمن هو فى طاعة السلطان، قال بكتمر: و أنا أهجم على بيتى سلّار و بيبرس بالقلعة أيضا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۱

قلت: أعنى أنّ بكتمر كان سكنه بالقلعة، فيهجم هو أيضا على بيتى سلّار و بيبرس بالقلعة أيضا، و يأخذهما قبضا باليد.

و كان لكلّ من بيبرس و سلّار أعين عند السلطان، فبلّغوهما ذلك فاحترزا على أنفسهما، و أمرا الأمير [سيف الدين] بلبان الدّمشقىّ والى القلعة، و كان خصيصا بهما، أن يوهم أنّه أغلق باب القلعة و يطرّف أقفالها و يعبر بالمفاتيح إلى السلطان على العادة ففعل ذلك.

و ظنّ السلطان و مماليكه أنّهم قد حصلوا على عرضهم، و انتظروا بكتمر الجوكندار أن يحضر إليهم فلم يحضر، فبعثوا إليه فإذا هو مع بيبرس و سلّار و قد حلف لهما على القيام معهما. فلمّا طلع النهار ظنّ السلطان أنّ بكتمر قد غدر به و ترقّب المكروه من الأمراء و ليس الأمر كذلك، و ما هو إلّا أنّ سلّار و بيبرس لمّا بلغهما الخبر خرجوا إلى دار النيابة بالقلعة، و عزم بيبرس أن يهجم على بكتمر و يقتله

فمنعه سلّار لما كان عنده من التثبت و التّؤدة، و أشار بالإرسال إليه و يحضره حتّى تبطل حركة السلطان؛ فلمّا أتى بكتمر الرسول تحيّر فى أمره و قصد الامتناع، و ألبس مماليكه السلاح و منعهم و خرج إليهم، فعنّفه سلّار و لامه على ما قصد فأنكر و حلف لهم على أنّه معهم، و أقام عندهم إلى الصباح و دخل مع الأمراء إلى الخدمة عند الأمير سلّار النائب، و وقف ألزام سلّار و بيبرس على خيولهم بباب الإسطبل مترقّبين خروج المماليك السلطانية، و لم يدخل أحد من الأمراء إلى خدمة السلطان و تشاوروا، و قد أشيع فى القاهرة أنّ الأمراء يريدون قتل السلطان الملك الناصر أو إخراجه إلى الكرك، فعزّ عليهم ذلك لمحبّتهم له، فلم تفتح الأسواق، و خرج العامّة و الأجناد إلى تحت القلعة، و بقى الأمراء نهارهم مجتمعين و بعثوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٧٢

بالاحتراس على السلطان خوفا من نزوله من باب السّرّ، و ألبسوا عدّة مماليك و أوقفوهم مع الأمير سيف الدين سمك أخى سلّار على باب الإسطبل. فلمّا كان نصف الليل وقع بداخل الإسطبل حسّ و حركة من قيام المماليك السلطانية و لبسهم السلاح لينزلوا بالسلطان على حميّة من الإسطبل و توقّعوا الحرب، فمنعهم السلطان من ذلك، و أراد الأمير سمك إقامة الحرمة فرمى بالنّشّاب و دقّ الطّبل فوقع سهم من النّشّاب بالرّفرف السّلطانىّ، و استمرّ الحال على ذلك إلى أذان العصر من الغد، فبعث السلطان إلى الأمراء يقول: ما سبب هذا الركوب على باب إسطبلى؟ إن كان غرضكم فى الملك فما أنا متطلّع إليه، فخذوه و ابعثونى أىّ. وضع أردتم! فردّوا إليه الجواب مع الأمير بيبرس الدّوادار و الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار و الأمير برلغى الأشرفى بأنّ السبب هو من عند السلطان و من المماليك الذين يحرّضونه على الأمراء، فأنكر أن يكون أحد من مماليكه ذكر له شيئا عن الأمراء؛ و فى عود الجواب من عند السلطان وقعت صيحة بالقلعة سببها أنّ العامة كان جمعهم قد كثر، و كان عادتهم أنّهم لا يريدون أن يلى الملك أحد من المماليك، بل إن كان و لا بدّ يكون الذى يلى الملك من بنى قلاوون. و كانوا مع ذلك شديدى المحبّة للملك الناصر محمد بن قلاوون.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٧٣

فلمّا رأوا العامة أنّ الملك الناصر قد وقف بالرّفرف من القلعة، و حواشى بيبرس و سلّار قد وقفوا على باب الإسطبل محاصرينه، حنقوا من ذلك و حملوا و صرخوا يدا واحدة على الأمراء بباب الإسطبل، و هم يقولون: يا ناصر يا منصور! فأراد سمك قتالهم، فمنعه من كان معه من الأمراء و خوّفه الكسرة من العوامّ، فتقهقروا عن باب الإسطبل السلطانىّ وسطا عليهم العامّة و أفحشوا فى حقّهم. و بلغ ذلك بيبرس و سلّار فأركبا الأمير بتخاص المنصورىّ فى عدّة مماليك فنزلوا إلى العامة ينحّونهم و يضربونهم بالدبابيس ليتفرّقوا فاشتدّ صياحهم: يا ناصر يا منصور! و تكاثر جمعهم و صاروا يدعون للسلطان، و يقولون: اللّه يخون الخائن، اللّه يخون من يخون ابن قلاوون! ثم حمل طائفة منهم على بتخاص و رجمه طائفة أخرى، فجرّد السيف ليضعه فيهم فخشى تكاثرهم عليه، فأخذ يلاطفهم، و قال لهم: طيّبوا خاطركم، فإنّ السلطان قد طاب خاطره على أمرائه، و ما زال يحلف لهم حتّى تفرّقوا؛ و عاد بتخاص إلى سلّار و بيبرس و عرّفهم شدّة تعصّب العامّة للسلطان؛ فبعث الأمراء عند ذلك ثانيا إلى السلطان بأنّهم مماليكه و فى طاعته، و لا بدّ من إخراج الشباب الذين يرمون الفتنة بين السلطان و الأمراء، فامتنع السلطان من ذلك و اشتدّ، فما زال به بيبرس الدّوادار و برلغى حتّى أخرج منهم جماعة و هم: يلبغا التّركمانىّ، و أيدمر المرقبى، و خاصّ ترك؛ فهدّدهم بيبرس و سلّار و وبّخاهم و قصد سلّار أن يقيّدهم، فلم توافق الأمراء على ذلك رعاية لخاطر السلطان؛ فأخرجوا إلى القدس من وقتهم على البريد. و دخل جميع الأمراء على السلطان و قبّلوا الأرض ثم قبّلوا يده فخلع على الأمير بيبرس و سلّار، ثم سأل الأمراء السلطان أن يركب فى أمرائه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٧۴

إلى الجبل الأحمر حتّى تطمئنّ قلوب العامّة عليه و يعلموا أنّ الفتنة قد خمدت، فأجاب لذلك. و بات ليلته فى قلق زائد و كرب عظيم لإخراج مماليكه المذكورين إلى القدس.

ثم ركب بالأمراء من الغد إلى قبّة النّصر تحت الجبل الأحمر، و عاد بعد ما قال لبيبرس و سلار: إنّ سبب الفتنة إنما كان من بكتمر

الجوكندار، و ذلك أنه رآه قد ركب بجانب الأمير بيبرس الجاشنكير و حادثه فتذكّر غدره به فشقّ عليه ذلك فتلطّفوا به فى أمره؛ فقال و اللّه ما بقيت لى عين تنظر إليه، و متى أقام فى مصر لا جلست على كرسى الملك أبدا فأخرج من وقته إلى قلعة الصّبيبة، و استقرّ عوضه أمير جاندار الأمير بدر الدين بكتوب الفتاح. فلمّا مات سنقر شاه بعد ذلك استقرّ بكتمر الجوكندار فى نيابة صفد عوضه فنقل إليها من الصّبيبة. و اجتاز السلطان بخانقاه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۵

الأمير بيبرس الجاشنكير داخل باب النصر فرآها فى ممرّه، و كان قد نجز العمل منها فى هذه الأيام، و طلع السلطان إلى القلعة و سكن الحال، و الأمراء فى حصر من جهة العامّة من تعصّبهم للسلطان، و السلطان فى حصر بسبب حجر الأمراء عليه و إخراج مماليكه من عنده. و استمرّ ذلك إلى أن كان العاشر من جمادى الآخرة من سنة ثمان و سبعمائة عدّى السلطان الجيزة و أقام حول الأهرام يتصيّد عشرين يوما، و عاد و قد ضاق صدره و صار فى غاية الحصر من تحكّم بيبرس الجاشنكير و سلّار عليه، و عدم تصرّفه فى الدولة من كلّ ما يريد، حتّى إنّه لا يصل إلى ما تشتهى نفسه من المأكل لقلة المرتّب له! فلو لا ما كان يتحصّل له من أملاكه و أوقاف أبيه لما وجد سبيلا لبلوغ بعض أغراضه، و طال الأمر عليه سنين، فأخذ فى عمل مصلحة نفسه

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۶

و أظهر أنّه يريد الحجّ بعياله، و حدّث بيبرس و سلّار فى ذلك يوم النصف من شهر رمضان فوافقاه عليه، و أعجب البرجيّة خشداشية بيبرس سفره لينالوا أغراضهم و شرعوا فى تجهيزه، و كتب إلى دمشق و الكرك و غزّة برمى الإقامات، و ألزم عرب الشرقية بحمل الشّعير، فتهيّأ ذلك، و أحضر الأمراء تقادمهم له من الخيل و الجمال فى العشرين من شهر رمضان فقبلها منهم و شكرهم على ذلك. و ركب فى خامس عشرين شهر رمضان من القلعة يريد السفر إلى الحجّ، و نزل من القلعة و معه جميع الأمراء، و خرج العامّة حوله و حاذوا بينه و بين الأمراء، و هم يتباكون حوله و يتأسّفون على فراقه و يدعون له إلى أن نزل بركة الحجّاج. و تعيّن للسفر مع السلطان من الأمراء:

عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ الأستادار، و سيف الدين آل ملك الجوكندار، و حسام الدين قرا لاچين أمير مجلس، و سيف الدين بلبان [المحمدىّ] أمير جاندار، و عزّ الدين أيبك الرومى السّلاح دار، و ركن الدين بيبرس الأحمدىّ، و علم الدين سنجر الجمقدار، و سيف الدين تقطاى الساقى، و شمس الدين سنقر السّعدىّ النقيب؛ و من المماليك خمسة و سبعون نفرا. و ودّعه سلّار و بيبرس بمن معهم من الأمراء، و هم على خيولهم من غير أن يترجّلوا له و عاد الأمراء، فرحل السلطان من ليلته و خرج إلى جهة الصالحيّة و تصيّد بها، ثم سار إلى الكرك و معه من الخيل مائة و خمسون فرسا، فوصل إلى الكرك فى يوم الأحد عاشر شوّال بمن معه من الأمراء و مماليكه. و احتفل الأمير جمال الدين آقوش الأشرفى نائب الكرك بقدومه و قام له بما يليق به، و زيّن له القلعة و المدينة، و فتح له باب السّرّ من قلعة الكرك و مدّ الجسر على الخندق، و كان له مدّة سنين لم يمدّ و قد ساس خشبه لطول مكثه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۷

فلمّا عبرت الدوابّ عليه و أتى السلطان فى آخرهم انكسر الجسر تحت رجلى فرس السلطان بعد ما تعدّى يدا الفرس الجسر، فكاد فرس السلطان أن يسقط لو لا أنهم جبدوا عنان الفرس حتّى خرج من الجسر و هو سالم، و سقط الأمير بلبان طرنا أمير جاندار و جماعة كثيرة، و لم يمت منهم سوى رجل واحد و سقط أكثر خاصّكيّة السلطان فى الخندق و سلموا كلّهم إلا اثنين، و هم: الحاج عزّ الدين أزدمر رأس نوبة الجمداريّة انقطع نخاعه و بطل نصفه و عاش كذلك لسنة ستّ عشرة و سبعمائة، و الآخر مات لوقته.

قال ابن كثير فى تاريخه: و لما توسط السلطان الجسر انكسر فسلم من كان قدّامه و قفز به فرسه فسلم، و سقط من كان وراءه و كانوا خمسين فمات أربعة و تهشّم أكثرهم فى الوادى تحته. انتهى.

و قال غيره: لمّا انقطعت سلسلة الجسر و تمزق الخشب صرخ السلطان على فرسه و كان قد نزلت رجله فى الخشب فوثب الفرس إلى

داخل الباب، و وقع کلّ من کان علی الجسر و کانوا أکثر من مائة مملوک، فوقعوا فی الخندق فمات منهم سبعة و انهشم منهم خلق کثیر و ضاق صدر السلطان، فقیل له: هذه شدّة یأتی من بعدها فرج!.

و لمّا جلس السلطان بقلعة الکرک و وقف نائبها الأمیر آقوش خجلا و جلا خائفا أن یتوهّم السلطان أن یکون ذلک مکیدة منه فی حقّه، و کان النائب المذکور قد عمل ضیافة عظیمة للسلطان غرم علیها جملة مستکثرة، فلم تقع الموقع لاشتغال

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٧٨

السلطان بهمّه و بما جری علی ممالیکه و خاصّکیّته. ثم إنّ السلطان سأل الأمیر آقوش عن الجسر المذکور فقال: ما سبب انقطاعه؟ فقال آقوش بعد أن قبّل الأرض: أیّد اللّه مولانا السلطان، هذا الجسر عتیق و ثقل بالرجال فما حمل، فقال السلطان: صدقت، ثم خلع علیه و أمره بالانصراف. و عند ما استقرّ السلطان بقلعة الکرک عرّف الأمراء أنّه قد انثنی عزمه عن الحجّ، و اختار الإقامة بالکرک و ترک السلطنة، و خلع نفسه لیستریح خاطره.

و قال ابن کثیر: لمّا جری علی السلطان ما جری و استقرّ فی قلعة الکرک خلع علی النائب، و أذن له فی التوجّه إلی مصر فسافر.

و قال صاحب النّزهة: لمّا بات السلطان تلک اللّیلة فی القلعة و أصبح طلب نائب الکرک و قال له: یا جمال الدّین، سافر إلی مصر و اجتمع بخشداشیتک فباس الأرض، و قال: السمع و الطاعة، ثم إنّه خرج فی تلک الساعة بممالیکه و کلّ من یلوذ به. ثم بعد ثلاثة أیام نادی السلطان بالقلعة و الکرک لا یبقی هنا أحد لا کبیر و لا صغیر حتّی یخرج فیجیب ثلاثة أحجار من خارج البلد، فخرج کلّ من بالقلعة و البلد.

ثم إنّ السلطان أغلق باب الکرک و رجعت الناس و معهم الأحجار فرأوا الباب مغلقا فقیل لهم: کلّ من له أولاد أو حریم یخرج إلیه و لا یبقی أحد بالکرک، فخرج الناس بمتاعهم و أولادهم و أموالهم، و ما أمسی المساء و فقی فی الکرک أحد من أهلها غیره و ممالیکه. ثم طلب مملوکه أرغون الدّوادار و قال له: سر إلی عقبة أیلة و أحضر بیتی و أولادی، فسار إلیهم أرغون و أقدمهم علیه. و وجد الملک الناصر من الأموال

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٧٩

بالکرک سبعة و عشرین ألف دینار عینا، و ألف ألف درهم و سبعمائة ألف درهم.

ثم إنّ السلطان طلب الأمراء الذین قدموا معه و عرفهم أنّه اختار الإقامة بالکرک کما کان أوّلا، و أنه ترک السلطنة فشقّ علیهم ذلک و بکوا و قبّلوا الأرض یتضرّعون إلیه فی ترک هذا الخاطر و کشفوا رءوسهم فلم یقبل و لا رجع إلی قولهم. ثم استدعی القاضی علاء الدین علی بن أحمد بن سعید بن الأثیر کاتب السرّ، و کان قد توجّه معه، و أمره أن یکتب للأمراء بالسلام علیهم، و یعرّفهم أنّه قد رجع عن الحجّ و أقام بالکرک و نزل عن السلطنة، و سألهم الإنعام علیه بالکرک و الشّوبک؛ و أعطی الکتب للأمراء و أمرهم بالعودة إلی الدیار المصریّة، و أعطاهم الهجن التی کانت معه برسم الحجّ، و عدّتها خمسمائة هجین و الجمال و المال الذی قدّمه له الأمراء برسم التّقدمة قبل خروجه من القاهرة، فساروا الجمیع إلی القاهرة.

و أمّا إخراج السلطان أهل قلعة الکرک منها لأنّه قال: أنا أعلم کیف باعوا الملک السعید برکة خان ابن الملک الظاهر بیبرس بالمال لطرنطای! فلا یجاوروننی، فخرج کلّ من کان فیها بأموالهم و حریمهم من غیر أن یتعرّض إلیهم أحد البتّة.

و أمّا النائب آقوش فإنّه أخذ حریمه و سافر إلی مصر بعد أن قدّم ما کان له من الغلال إلی السلطان، و هو شیء کثیر، فقبله السلطان منه. فلمّا قدم آقوش إلی مصر قال له سلّار و بیبرس: من أمرک بتمکین السلطان من الطلوع إلی القلعة؟

(یعنی قلعة الکرک) فقال: کتابکم وصل إلیّ یأمرنی بأن أنزل إلیه و أطلعه إلی القلعة، فقال: و أین الکتاب؟ فأخرجه، فقالا: هذا غیر الکتاب الذی کتبناه فاطلبوا ألطنبغا، فطلبوه فوجدوه قد هرب إلی الکرک عند السلطان فسکتوا عنه. انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨٠

و أمّا الکتاب الذی کتبه الملک الناصر محمد بن قلاوون من الکرک إلی بیبرس و سلّار مضمونه، بسم اللّه الرحمن الرحیم:

حرس اللّه تعالی نعمهٔ الجنابین العالیین الکبیرین الغازیین المجاهدین، وفّقهما اللّه تعالی توفیق العارفین! أمّا بعد فقد طلعت إلی قلعهٔ الکرک و هی من بعض قلاعی و ملکی، و قد عوّلت علی الإقامهٔ فیها، فإن کنتم ممالیکی و ممالیک أبی فأطیعوا نائبی (یعنی نائبه سلّار) و لا تخالفوه فی أمر من الأمور، و لا تعملوا شیئا حتّی تشاورونی فأنا ما أرید لکم إلّا الخیر، و ما طلعت إلی هذا المکان إلّا لأنّه أروح لی و أقلّ کلفهٔ، و إن کنتم ما تسمعون منی فأنا متوکّل علی اللّه و السلام.

فلمّا وصل الکتاب إلی الأمراء قرءوه و تشاوروا ساعهٔ، ثم قاموا من باب القلعهٔ و ذهبوا إلی دار بیبرس و اتفقوا علی أن یرسلوا إلی الملک الناصر کتابا، فکتبوه و أرسلوه مع البروانیّ علی البرید، فسار البروانیّ إلی أن وصل إلی الکرک و اجتمع بالملک الناصر و قبّل الأرض بین یدیه و ناوله الکتاب، فأعطاه الملک الناصر لأرغون الدّوادار، فقرأه فتبسّم السلطان و قال: لا إله إلّا اللّه! و کان فی الکتاب: ما علمنا ما عوّلت علیه، و طلوعک إلی قلعهٔ الکرک و إخراج أهلها و تشییعک نائبها، [و هذا أمل بعید] فخلّ عنک شغل الصّبیّ، و قم و احضر إلینا و إلّا بعد ذلک تطلب الحضور و لا یصحّ لک، و تندم و لا ینفعک النّدم، فیالیت لو علمنا ما کان وقع فی خاطرک و ما عوّلت علیه، غیر أنّ لکلّ ملک انصرام، و لانقضاء الدولهٔ أحکام، و لحلول الأقدار سهام؛ و لأجل هذا أمرک غیّک بالتطویل، و حسّن لک زخرف الأقاویل؛ فاللّه اللّه حال وقوفک علی هذا الکتاب، یکون الجواب حضورک بنفسک و معک ممالیکک، و إلا تعلم أنّا ما نخلّیک فی الکرک، [و لو کثر شاکروک] و یخرج الملک من یدک؛ و السلام.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۱

فقال الملک الناصر: لا إله إلا اللّه، کیف أظهروا ما فی صدورهم! ثم أمر بإحضار آلهٔ الملک مثل العصائب و السناجق و الکوسات [و الهجن] و کلّ ما کان معه من آلهٔ الملک و سلّمها إلی البروانیّ، و قال له: قل لسلّار ما أخذت لکم شیئا من بیت المال، و هذا الذی أخذته قد سیرته لکم، و انظروا فی حالکم فأنا ما بقیت أعمل سلطانا، و أنتم علی هذه الصورهٔ! فدعونی أنا فی هذه القلعهٔ منعزلا عنکم إلی أن یفرج اللّه تعالی إمّا بالموت و إمّا بغیره. فأخذ البروانیّ الکتاب و جمیع ما أعطاه السلطان و سار إلی أن وصل إلی الدیار المصریّهٔ؛ و دفع الکتاب لسلّار و بیبرس، فلما قرأا الکتاب قالا: و لو کان هذا الصبیّ یجیء ما بقی یفلح و لا یصلح للسلطنهٔ، و أیّ وقت عاد إلی السلطنهٔ لا- نأمن غدره. فلمّا سمعت الأمراء ذلک اجتمعت علی سلطنهٔ الأمیر سلّار، فخاف سلّار من ذلک و خشی العاقبهٔ فامتنع، فاختار الأمراء رکن الدین بیبرس الجاشنکیر و أکثرهم البرجیهٔ فإنّهم خشداشیته. و بویع له بعد أن أثبت کتاب الملک الناصر محمد بن قلاوون علی القضاهٔ بالدیار المصریّهٔ بأنّه خلع نفسه، و کانت البیعهٔ لبیبرس فی الثالث و العشرین من شوّال من سنهٔ ثمان و سبعمائهٔ فی یوم السبت بعد العصر فی دار سلّار. یأتی ذکر ذلک کلّه فی أوّل ترجمهٔ بیبرس، إن شاء اللّه تعالی. و کانت مدّهٔ سلطنهٔ الملک الناصر محمد بن قلاوون فی هذه المرّهٔ الثانیهٔ عشر سنین و خمسهٔ أشهر و تسعهٔ عشر یوما.

و تأتی بقیّهٔ ترجمته فی سلطنته الثالثهٔ، بعد أن نذکر سلطنهٔ بیبرس و أیّامه، کما نذکر أیّام الملک الناصر هذا قبل ترجمهٔ بیبرس المذکور علی عادهٔ هذا الکتاب إن شاء اللّه تعالی. و الحمد للّه وحده.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۲

السنهٔ الأولی من سلطنهٔ الملک الناصر محمد بن قلاوون الثانیهٔ علی مصر، و هی سنهٔ ثمان و تسعین و ستمائهٔ، علی أن الملک المنصور لاجین کان حکم منها مائهٔ یوم.

فیها کان قتل الملک المنصور حسام الدین لاجین المذکور و مملوکه منکوتمر حسب ما تقدّم.

و فیها فی العشر الأوسط من المحرّم ظهر کوکب ذو ذؤابهٔ فی السماء ما بین أواخر برج الثّور إلی أوّل برج الجوزاء، و کانت ذؤابته إلی ناحیهٔ الشمال، و کان فی العشر الأخیر من کانون الثانی و هو شهر طوبهٔ.

و فیها توفّی القاضی نظام الدین أحمد ابن الشیخ الإمام العلّامهٔ جمال الدین محمود ابن أحمد بن عبد السلام الحصیریّ الحنفیّ فی

يوم الخميس ثـامن المحرّم و دفن يوم الجمعـة بمقابر الصوفيّـة عنـد والـده، و كان إماما عالما بارعا ذكيّا و له ذهن جيّـد و عبارة طلقة مفيدة، و درّس بالنّورية و غيرها و أفتى سـنين و أقرأ، و ناب فى الحكم بدمشق عن قاضى القضاة حسام الدين الحنفىّ و حسنت سيرته رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨٣

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك الموصلىّ [المنصورىّ] نائب طرابلس و الفتوحات الطرابلسيّة فى أوّل صفر مسموما. و كان من أجلّ الأمراء و له مواقف مشهورة.

و فيها توفّى قتيلا الأمير سـيف الـدين طغجى بن عبد اللّه الأشـرفىّ. أصـله من مماليك الملك الأشـرف خليل بن قلاوون. و قتل أيضـا الأمير سيف الدين كرجى.

و الأمير نوغاى الكرمونى السـلاح دار، و هؤلاء الـذين قتلوا السـلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين و مملوكه منكوتمر، ثم قتلوا بعـده بثلاثـة أيام حسب ما تقـدّم ذكر ذلك كلّه فى آخر ترجمة الملك المنصور لاچين مفصّـلا، و قتل معهم تمام اثنى عشـر نفرا من الأمراء و الخاصّكيّة ممّن تألبّوا على قتل لاچين.

و فيها توفّى الأمير بـدر الـدين بـدر [الحبشـىّ] الصّوابىّ [الخادم] فى ليلـة الخميس تاسع جمادى الأولى بقريـة الخيارة، كان خرج إليها فمرض بها و مات، و قيل بل مات فجأة و هو الأصحّ فحمل منها إلى جبل قاسيون، و دفن بتربته التى أعدّها لنفسه.

و كان أميرا مباركا صالحا ديّنا خيّرا. قال عزّ الـدين بن عبد الدائم: أقام أمير مائة و مقدّم ألف أكثر من أربعين سـنة، و ولى إمرة الحاجّ بدمشق غير مرّة. رحمه اللّه.

و فيهـا تـوفّى العلّامـة حجّـة العرب الإمـام الأسـتاذ بهـاء الـدين أبـو عبـد اللّه محمـد ابن إبراهيم بن محمـد بن إبراهيم الحلـبىّ النحوىّ المعروف بـابن النحّاس، مات بالقاهرة فى يوم الثلاثاء سابع جمادى الأولى و أخرج من الغـد، و دفن بالقرافـة بالقرب من تربـة الملك المنصور لاچين، و مولـده فى سـنة سـبع و عشـرين و سـتمائة بحلب، و كان إماما عالما علّامـة بارعا فى العربيّـة، نادرة عصـره فى فنون كثيرة. و له نظم و نثر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨۴

قال العلّامة أثير الدين أبو حيّان: قال حدّثنا الشـيخ بهاء الدين ابن النحاس قال: اجتمعت أنا و الشّـهاب مسعود السنبلىّ و الضياء المناوىّ فأنشد كلّ منا له بيتين، فكان الذى أنشده السّنبلى فى مليح مكارى:

علقته مكاريا شرّد عن عينى الكرى

قد أشبه البدر فلا يملّ من طول السّرى

و أنشد المناوىّ فى مليح اسمه جمرىّ:

أفدى الذى يكبت بدر الدّجى لحسنه الباهر من عبده

سمّوه جمريّا و ما أنصفوا ما فيه جمرىّ سوى خدّه

و أنشد الشيخ بهاء الدين هذا فى مليح مشروط:

قلت لما شرطوه و جرى دمه القانى على الوجه اليقين

غير بدع ما أتوا فى فعلهم هو بدر ستروه بالشّفق

قلت: و نظم الثلاثة نظم متوسّط ليس بالطبقة العليا. و أحسن من الأوّل قول من قال:

أفدى مكاريّا تراه إذا سعى كالبرق ينتهب العيون و يخطف

أخذ الكرا منّى و أحرمنى الكرى بينى و بينك يا مكارى الموقف

و أحسن من الأخير قول من قال، و هو نجم الدين عبد المجيد بن محمد التّنوخيّ:

أنظر إليه و سلّ قل بك عن محبته لعلّك

ملك الفؤاد بغير شر ط حسنه و الشّرط أملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۵

غيره فى المعنى:

شرّطوه فبكى من ألم فغدا ما بين دمع و دم

ناثرا من ذا و من ذا لؤلؤا و عقيقا ليس بالمنتظم

و فيها توفّى الصاحب تقىّ الدين أبو البقاء [الربعىّ] توبة بن علىّ بن مهاجر بن شجاع بن توبة التّكريتىّ [المعروف بالبيع] فى ليلة الخميس ثامن جمادى الآخرة و دفن بقاسيون. و كان رئيسا فاضلا ولى الوزر بدمشق لخمسة سلاطين: أوّلهم المنصور قلاوون، ثانيهم ابنه الأشرف خليل، ثم لأخيه الناصر محمد، ثم للعادل كتبغا، ثم للمنصور لاچين. انتهى. و كان مولده سنة عشرين و ستمائة.

و فيها فى أوّل ذى القعدة و قيل فى شوّال توفّى بالقاهرة الأمير الكبير بدر الدين بيسرى بن عبد اللّه الشّمسىّ الصالحىّ النّجمىّ بالسّجن بقلعة الجبل، و دفن بتربته بالقاهرة. كان أميرا جليلا معظّما فى الدّول؛ كان الظاهر بيبرس يقول: هذا ابن سلطاننا فى بلادنا! و عرضت عليه السلطنة لما قتل الملك الأشرف خليل ابن قلاوون فامتنع، و كانت قد عرضت عليه قبل ذلك بعد الملك السّعيد بن الظاهر فلم يقبل، و هو آخر من بقى من أكابر مماليك الملك الصالح نجم الدين أيّوب، و ترقّى حتى صار أمير مائة و مقدّم ألف، و عظم فى الدّول حتّى قبض عليه خشداشه المنصور قلاوون و حبسه تسع سنين إلى أن أطلقه ابنه الأشرف خليل و أعاده إلى رتبته، فاستمر إلى أن قبض عليه المنصور لاچين و حبسه إلى أن قتل لاچين، و أعيد الناصر محمد بن قلاوون فكلّموه فى إطلاقه فأبى إلا حبسه إلى أن مات فى الحبّ. و كانت له

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۶

دار عظيمة ببين القصرين و قد تغيّرت رسومها الآن. و كان عالى الهمّة كثير الصدقات و المعروف، كان عليه فى أيام إمرته رواتب لجماعة من مماليكه و حواشيه و خدمه، فكان يرتّب لبعضهم فى اليوم من اللّحم سبعين رطلا و ما تحتاج إليه من التّوابل و سبعين عليقة، و لأقلّهم خمسة أرطال و خمس علائق و ما بين ذلك، و كان ما يحتاج إليه فى كلّ يوم لسماطه و لدوره و المرتّب عليه ثلاثة آلاف رطل لحم و ثلاثة آلاف عليقة فى كلّ يوم؛ و كانت صدقته على الفقير ما فوق الخمسمائة و لا يعطى أقلّ من ذلك، و كان إنعامه ألف اردبّ غلّة و ألف قنطار عسل و ألف دينار و أشياء يطول شرحها.

و فى الجملة أنّه كان من أعظم أمراء مصر بلا مدافعة. (و بيسرى: اسم مركب من لفظتين: تركية و عجمية) و صوابه فى الكتابة (پاى سرى) فپاى فى اللغة التركية بالتفخيم هو السعيد، و سرى بالعجمى الرأس، فمعنى الاسم سعيد الرأس.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۷

قلت: و كان سعيد الرأس كما قيل. و هذا بخلاف مذهب النّجاة فإنّ هذا الاسم عين المسمّى. انتهى.

و فيها توفّى الأستاذ جمال الدين أبو المجد ياقوت بن عبد اللّه المستعصمىّ الرّومىّ الطّواشىّ صاحب الخطّ البديع الذى شاع ذكره شرقا و غربا، كان خصيصا عند أستاذه الخليفة المستعصم بالله العبّاسىّ آخر خلفاء بنى العبّاس ببغداد، ربّاه و أدّبه و تعهّده حتّى برع فى الأدب، و نظم و نثر و انتهت إليه الرياسة فى الخط المنسوب.

و قد سمّى بهذا الاسم جماعة كثيرة قد ذكر غالبهم فى هذا التاريخ، منهم كتّاب و غير كتّاب، و هم: ياقوت أبو الدرّ [الكاتب مولى أبى المعالى أحمد بن على بن النجار] التاجر الرومى، وفاته بدمشق سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة. و ياقوت الصّقلبىّ الجمالى أبو الحسن مولى الخليفة المسترشد العباسىّ، وفاته سنة ثلاث و ستين و خمسمائة.

و ياقوت أبو سعيد مولى أبى عبد اللّه عيسى بن هبة اللّه بن النّقّاش، وفاته سنة أربع و سبعين و خمسمائة. و ياقوت [ابن عبد اللّه] الموصلى الكاتب أمين الدين المعروف بالملكى نسبة إلى أستاذه السلطان ملكشاه السّلجوقىّ، و ياقوت هذا أيضا ممن انتشر خطّه فى الآفاق، و وفاته بالموصل سنة ثمانى عشرة و ستمائة. و ياقوت [ابن عبد اللّه] الحموىّ الرومى شهاب الدين أبو الدرّ كان من خدّام بعض التّجّار ببغداد يعرف بعسكر الحموىّ، و ياقوت هذا هو صاحب التصانيف و الخط أيضا، و وفاته سنة ستّ و عشرين و ستمائة. و ياقوت [ابن عبد اللّه] مهذّب الدّين الرّومى مولى أبى منصور التاجر الجيلىّ، و ياقوت هذا كان شاعرا ماهرا و هو صاحب القصيدة التى أوّلها:

إن غاض دمعك و الأحباب قد بانوا فكلّ ما تدّعى زور و بهتان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۸

و وفاته سنة اثنتين و عشرين و ستمائة. فهؤلاء الذين تقدّموا ياقوت المستعصمىّ صاحب الترجمة بالوفاة، و كلّ منهم له ترجمة و فضيلة و خطّ و شعر. و قد تقدّم ذكر غالبهم فى هذا الكتاب، و إنما ذكرناهم هنا جملة لكون جماعات كثيرة من الناس مهما رأوه من الخطوط و التصانيف يقرءوه لياقوت المستعصمىّ، و ليس الأمر كذلك بل فيهم من رجّح خطّه ابن خلّكان على ياقوت هذا.

قلت: و قد خرجنا عن المقصود لكثرة الفائدة و لنعد إلى بقية ترجمة ياقوت المستعصمىّ. فمن شعره قوله:

تجدّد الشمس شوقى كلّما طلعت إلى محيّاك يا سمعى و يا بصرى

و أسهر اللّيل ذا أنس بوحشته إذ طيب ذكرك فى ظلمائه سمرى

و كلّ يوم مضى [لى] لا أراك به فلست محتسبا ماضيه من عمرى

ليلى نهارى إذا ما درت فى خلدى لأنّ ذكرك نور القلب و البصر

و له أيضا:

صدّقتم فىّ الوشاة و قد مضى فى حبّكم عمرى و فى تكذيبها

و زعمتم أنّى مللت حديثكم من ذا يملّ من الحياة و طيبها

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين المنصورىّ. و من الغد قتل نائبه منكوتمر. ثم قتلوا الأميرين كرجى و طغجى الأشرفيين. و أحضر السلطان الملك الناصر و عاد إلى السلطنة.

و فيها توفى الإمام جمال الدين محمد بن سليمان بن النقيب الحنفىّ صاحب التفسير بالقدس فى المحرّم. و العلّامة بهاء الدين محمد [ابن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم] أبو عبد اللّه الحلبىّ ابن النحاس فى جمادى الأولى. و الصاحب تقىّ الدّين توبة بن علىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۹

[ابن مهاجر] التّكريتىّ فى جمادى الآخرة. و الزاهد الملقّن علىّ بن محمد [ابن علىّ] ابن بقاء الصالحىّ فى شوّال. و المسند ناصر الدين عمر بن عبد المنعم بن عمر [ابن عبد اللّه بن غدير] بن القوّاس فى ذى القعدة. و صاحب حماة الملك المظفر تقى الدين محمود ابن المنصور محمد [ابن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه]. و الملك الأوحد يوسف ابن الملك الناصر داود بن المعظّم عيسى. و العماد عبد الحافظ بن بدران بن شبل النابلسىّ فى ذى الحجّة، و قد قارب التسعين.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۹]

اشارة

السنة الثانية من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة تسع و تسعين و ستمائة.
فيها كانت وقعة السلطان الملك الناصر محمد المذكور مع قازان على حمص.
و قد تقدّم ذكرها.
و فيها توفى القاضى علاء الدين أحمد بن عبد الوهّاب بن خلف بن محمود [بن علىّ] ابن بدر العلامىّ المعروف بابن بنت الأعزّ. كان لطيف العبارة جميل الصورة لطيف المزاج، تولّى حسبة القاهرة و نظر الأجباس، و درّس بعدّة مدارس و حجّ
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۸؛ ص۱۸۹
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۰
و دخل اليمن ثم عاد إلى القاهرة و مات بها فى شهر ربيع الآخر، و كان له نظم و نثر.
و من شعره قصيدة أوّلها:
إن أومض البرق فى ليل بذى سلم فإنّه ثغر سلمى لاح فى الظّلم
و فيها توفّى الشيخ المسند المعمّر شرف الدين أحمد بن هبة اللّه ابن تاج الأمناء أحمد بن محمد [بن الحسن بن هبة اللّه بن عبد اللّه بن الحسين] بن عساكر بدمشق، و بها دفن بمقابر الصوفيّة بتربة الشيخ فخر الدين بن عساكر، و كان من بقايا المسندين تفرّد سماعا و إجازة.

ذكر من عدم فى هذه السنة فى وقعة حمص مع التّتار

قاضى القضاة حسام الدّين الحنفىّ. و الشيخ عماد الدين إسماعيل ابن تاج الدين [أحمد بن سعيد] بن الأثير الكاتب. و الأمير جمال الدين المطروحى. و الأمير سيف الدين كرت. و الأمير ركن الدين الجمالى نائب غزّة، و لم يظهر للجميع خبر، غير أنّهم ذكروا أن قاضى القضاة حسام الدين المذكور أسروه التتار و باعوه للفرنج، و وصل قبرص و صار بها حكيما، و داوى صاحب قبرص من مرض مخيف فشفى فأوعده أن بطلقه، فمرض القاضى حسام الدين المذكور و مات. كذا حكى بعض أجناد الإسكندرية.
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۱
و فيها توفى الشيخ الصالح الحافظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرج بن أحمد بن اللّخمىّ الإشبيلى بدمشق، و دفن بمقابر الصوفية، و كان حافظا ديّنا خيّرا زاهدا متورّعا، عرض عليه جهات كثيرة فأعرض عنها، و هو صاحب القصيدة المشتملة على صفات الحديث:
غرامى صحيح و الرّجا فيك معضل و حزنى و دمعى مرسل و مسلسل
و صبرى عنكم يشهد العقل أنّه ضعيف و متروك و ذلّى أجمل
فلا حسن إلا سماع حديثكم مشافهة تملى علىّ فأنقل
و أمرى موقوف عليك و ليس لى على أحد إلّا عليك المعوّل
و لو كان مرفوعا إليك لكنت لى على رغم عذّالى ترقّ و تعدل
و عذل عذول منكر لا أسيغه و زور و تدليس يردّ و يهمل
أقضّى زمانى فيك متّصل الأسى و منقطعا عمّا به أتوصّل
و هأنا فى أكفان هجرك مدرج تكلّفنى ما لا أطيق فأحمل
و هى أطول من ذلك.
و فيها توفّى قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضى القضاة محيى الدين يحيى ابن محمد بن علىّ بن الزكىّ فى يوم الأحد

حادی عشر ذی الحجّة. و کان من أعیان الدمشقیین، و درّس بعدّة مدارس و انتفع به الناس. رحمه اللّه.

و فیها توفی الشیخ الإمام العالم مفتی المسلمین القاضی شمس الدین محمد ابن الشیخ الإمام العلّامة شیخ المواهب قاضی القضاة صدر الدین أبی الربیع سلیمان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۲

ابن أبی العزّ وهیب الحنفی الدّمشقی فی یوم الجمعة سادس عشر ذی الحجة بالمدرسة النوریة بدمشق، و دفن بتربة والده بقاسیون، و کان فقیها عالما مفتیا بصیرا بالأحکام متصدّیا للفتوی و التدریس، أفتی مدّة أربع و ثلاثین سنة و قرأ علیه جماعة کثیرة و انتفع الناس به، و کان نائبا فی القضاء عن والده و سئل بالمناصب الجلیلة فامتنع من قبولها. رحمه اللّه.

قلت: و بنو العز بیت کبیر بدمشق مشهورون بالعلم و الریاسة.

و فیها توفّی صاحب الأندلس أمیر المسلمین أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن یوسف المعروف بابن الأحمر ملک الأندلس و ما ولاها بعد موت والده سنة إحدی و سبعین و ستمائة، و امتدت أیامه و قوی سلطانه، و مات فی عشر الثمانین رحمه اللّه تعالی.

الـذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السـنة، قال: فیها توفّی الإمام شـمس الدین محمد بن عبد القویّ المقدسـیّ النحویّ. و عماد الدین یوسف بن أبی نصر الشقاریّ، و قاضی القضاة إمام الدین عمر بن عبد الرحمن القزوینیّ بمصرفی ربیع الآخر.

و عبد الـدائم بن أحمـد المحجّی [القبّانی] الـوزّان. و علی بن أحمـد بن عبـد الـدائم و أخوه عمر. و أحمـد بن زیـد [بن أبی الفضـل الصالحی الفقیر المعروف] بالجمّال:

و شرف الدین أبو الفضل أحمد بن هبة اللّه بن أحمد بن عساکر فی جمادی الأولی.

و عیسی بن برکة بن والی. و محمد بن أحمد بن نوال الرصافی. و علی بن مطر المحجّی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۳

البقّال. و صـفیّة بنت عبد الرحمن بن عمرو الفرّاء، و ابن عمها إبراهیم بن أبی الحسن [بن عمرو بن موسـی أبو إسحاق الفرّاء]. و أحمد بن محمـد الحـدّاد. و خدیجـة بنت [التّقیّ محمـد بن محمود بن عبـد المنعم] المراتبیّ. و الحافظ شـهاب الدین أحمد بن فرج اللّخمیّ الإشبیلیّ فی جمادی الآخرة. و أبو العبّاس أحمد بن سلیمان بن أحمد المقدسیّ الحرّانی.

و الشـیخ عزّ الـدین عبـد العزیز بن محمد بن عبد الحقّ. و الخطیب موفّق الدین محمد بن محمد [المعروف ب] ابن حبیش فی جمادی الآخرة بدمشق. و المعمّرة زینب بنت عمر ابن کندی ببعلبکّ. و الأمیر علم الدین [سـنجر البرنلی] الدّواداری فی رجب بحصن الأکراد.

و المؤیّـد علیّ بن إبراهیم بن یحیی ابن خطیب عقرباء. و شـمس الـدین محمـد ابن علی بن أحمـد بن فضل الواسـطیّ فی رجب، و له أربع و ثمانون سـنة. و العلّامة نجم الدین أحمد بن مکّی فی جمادی الآخرة. و الإمام شـمس الدین محمد بن سـلمان بن حمائل سـبط غانم. و الشیخ بدر الدین حسن بن علی بن یوسف بن هود المرسیّ فی رجب.

و الإمام شمس الدین محمد ابن الفخر عبد الرحمن بن یوسف البعلبکّیّ فی رمضان.

و الشریف شمس الدین محمد بن هاشم بن عبد القاهر العباسیّ العدل فی رمضان،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۴

و له أربع و تسعون سـنة. و الشـیخ بهـاء الـدین أیّوب بن أبی بکر [بن إبراهیم بن هبـة اللّه أبو صـابر] بن النحاس مـدرس القلیجیّـة فی شوّال. و المفتی جمال الـدین عبـد الرحیم بن عمر الباجربقی. و العدل بهاء الدین محمد بن یوسف البرزالیّ عن اثنتین و ستین سـنة. و الأدیب جمال الدین عمر بن إبراهیم بن العقیمیّ الرّسعنیّ، و له أربع و تسعون سنة.

أمر النیل فی هـذه السـنة- الماء القدیم ثلاث أذرع وعدة أصابع. مبلغ الزیادة ستّ عشـرة ذراعا و ستّ أصابع، و کان الوفاء ثالث عشـر توت.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۰]

السنة الثالثة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة سبعمائة من الهجرة.

فيها توفّى الأمير سيف الدّين بلبان الطّبّاخىّ بالعسكر المنصور على الساحل، و كان من أعيان الأمراء و أحشمهم و أشجعهم و أكثرهم عدّة و مماليک و حاشية.

و ولى نيابة حلب قبل ذلک بمدّة، ثم ولى الفتوحات بالساحل و دام عليها سنين.

و كان جميل السّيرة و الطريقة و له المواقف المشهورة و النّكاية فى العدوّ. رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى الأديب البارع شهاب الدين أبو جلنک الحلبىّ الشاعر المشهور صاحب النوادر الظّريفة، كان بارعا ماهرا و فيه همّة و شجاعة. و لما كانت وقعة التّتار فى هذه السنة نزل أبو جلنک المذكور من قلعة حلب لقتال التّتار، و كان ضخما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۵

سمينا فوقع عن فرسه من سهم أصاب الفرس فبقى راجلا، فأسروه و أحضروه بين يدى مقدّم التتار، فسأله عن عسكر المسلمين، فرفع شأنهم فغضب مقدّم التتار، عليه اللعنة، من ذلک فضرب عنقه. رحمه اللّه تعالى. و من شعر أبى جلنک المذكور قوله:

و شادن يصفع مغرى به براحة أندى من الوابل

فصحت فى الناس ألا فاعجبوا بحر غدا يلطم فى الساحل

قال الشيخ صلاح الدين الصفدىّ رحمه اللّه: و كان أبو جلنک قد مدح قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلّكان فوقّع له برطلى خبز، فكتب أبو جلنک على بستانه:

للّه بستان حللنا دوحه كجّنة قد فتّحت أبوابها

و البان تحسبه سنانيرا رأت قاضى القضاة فنفّشت أذنابها

قلت: لعل الصلاح الصّفدىّ و هم فى ابن خلّكان، و الصواب أنّ القصّة كانت مع قاضى القضاة كمال الدين بن الزّملكانىّ. انتهى.

و من شعر أبى جلنک فى أقطع.

و بى أقطع ما زال يسخو بماله و من جوده ما ردّ فى الناس سائل

تناهت يداه فاستطال عطاؤها و عند التّناهى يقصر المتطاول

قلت: و وقع فى هذا المعنى عدّة مقاطيع جيّدة فى كتابى المسمى ب «حلية الصفات فى الأسماء و الصناعات» فمن ذلک:

أفديه أقطع يشدو ساروا و لا ودّعونى

ما أنصفوا أهل ودى واصلتهم قطعونى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۶

و لشمس الدين بن الصائغ الحنفىّ:

و أقطع قلت له هل أنت لصّ أوحد

فقال هذى صنعة لم يبق لى فيها يد

و فى المعنى هجو:

تجنّب كلّ أقطع فهو لصّ يريد لک الخيانة كلّ ساعه

و ما قطعوه بعد الوصل لكن أرادوا كفّه عن ذى الصّناعه

غيره فى المعنى:

من یکن فی الأصل لصّا لم یکن قطّ أمینا

فثقوا منه برهن أو خذوا منه یمینا

و فیها توفّی الشیخ الصالح المسند عزّ الدین أبو الفدی إسماعیل بن عبد الرحمن ابن عمر بن موسی بن عمیرة المعروف بابن الفرّاء المرداویّ ثم الصالحیّ الحنبلیّ، مولده سنة عشر و ستّمائة و سمع الکثیر و حدّث، و خرّج له الحافظ شمس الدین الذّهبیّ مشیخة، و کان دیّنا خیّرا و له نظم. من ذلک قوله:

أین من عهد آدم و إلی الآ ن ملوک و سادة و صدور

مزّقتهم أیدی الحوادث و استو لت علیهم رحی المنون تدور

و له فی المعنی و قیل هما لغیره:

ثم انقضت تلک السّنون و أهلها فکأنّها و کأنّهم أحلام

و کذاک من یأتی و حقّک بعدهم أمضاه ربّ قادر علّام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۷

الذین ذکر الذهبیّ وفاتهم فی هذه السنة، قال: و فیها توفّی عزّ الدین أحمد ابن العماد عبد الحمید بن عبد الهادی فی المحرّم، و له ثمان و ثمانون سنة. و عماد الدین أحمد [ابن محمد] بن سعد المقدسیّ و له ثلاث و ثمانون سنة. و عز الدین إسماعیل ابن عبد الرحمن بن عمر الفرّاء فی جمادی الآخرة، و له تسعون سنة. و أبو علی یوسف ابن أحمد بن أبی بکر الغسولیّ فی الشهر، و له نحو من تسعین سنة. و الحافظ شمس الدین أبو العلاء محمود بن أبی بکر البخاریّ الفرضیّ بماردین فی ربیع الأوّل، و له ستّ و خمسون سنة. و شمس الدین أبو القاسم الخضر بن عبد الرحمن [بن الخضر بن الحسین ابن الخضر بن الحسین] بن عبد اللّه بن عبدان الأزدیّ فی ذی الحجة. و المقرئ شمس الدین محمد بن منصور الحاضریّ فی صفر.

أمر النیل فی هذه السنة- الماء القدیم و الحدیث (أعنی مجموع النیل) فی هذه السنة ستّ عشرة ذراعا و ثمانی عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۱]

السنة الرابعة من ولایة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثانیة علی مصر، و هی سنة إحدی و سبعمائة.

فیها فی ثالث عشر من شهر ربیع الأوّل سافر الأمیر رکن الدین بیبرس الجاشنکیر إلی الإسکندریّة و صحبته جماعة کثیرة من الأمراء بسبب الصّید، و رسم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۸

له السلطان أنّ مدّة مقامه بالإسکندریّة یکون دخلها له، ثم أعطی السلطان لجمیع الأمراء دستورا لمن أراد السفر لإقطاعه لعمل مصالح بلاده، و کان إذ ذاک یربّعون خیولهم شهرا واحدا لأجل العدوّ المخذول.

و فیها توفّی مسند العصر شهاب الدین أحمد بن رفیع الدّین إسحاق بن محمد بن المؤیّد الأبرقوهیّ بمکّة فی العشرین من ذی الحجّة. و مولده سنة خمس عشرة و ستمائة بابرقوه من أعمال شیراز، و کان سمع الکثیر و حدّث و طال عمره و تفرّد بأشیاء.

و فیها توفّی الحافظ شرف الدین أبو الحسین علی ابن الإمام أبی عبد اللّه محمد بن أبی الحسین أحمد بن عبد اللّه بن عیسی بن أحمد بن محمد الیونینیّ فی یوم الخمیس حادی عشر شهر رمضان ببعلبکّ. و مولده فی حادی عشر شهر رجب سنة إحدی و عشرین و ستمائة ببعلبک.

و فیها توفّی الأمیر علم الدین سنجر بن عبد اللّه المعروف بأرجواش المنصوریّ نائب قلعة دمشق فی لیلة السبت ثانی عشرین ذی الحجّة و کان شجاعا. و هو الذی حفظ قلعة دمشق فی نوبة غازان و أظهر من الشجاعة ما لا یوصف علی تغفّل کان فیه؛ حسب ما

قدّمنا من ذكره فى أصل ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون ما فعله و كيف كان حفظه لقلعة دمشق. و أمّا أمر التّغفّل الذى كان به:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٩٩

قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك فى تاريخه: حكى لى عنه عبد الغنى الفقير المعروف قال: لمّا مات الملك المنصور قلاوون (أعنى أستاذه) قال لى:

أحضر لى مقرئين يقرءون ختمة للسلطان، فأحضرت إليه جماعة فجعلوا يقرءون على العادة، فأحضر دبوسا و قال: كيف تقرءون للسلطان هذه القراءة! تقرءون عاليا، فضجّوا بالقراءة جهدهم، فلمّا فرغوا منها، قلت: يا خوند فرغت الختمة، فقال: يقرءون أخرى فقرءوها و قفزوا ما أرادوا، فلمّا فرغوا أعلمته، قال ويلك! السماء ثلاثة، و الأرض ثلاثة، و الأيام ثلاثة، و المعادن ثلاثة، و كل ما فى الدنيا ثلاثة، يقرءون أخرى! فقلت: اقرءوها و احمدوا اللّه تعالى على أنّه ما علم أن هذه الأشياء سبعة سبعة، فلمّا فرغوا [من] الثلاثة و قد هلكوا من صراخهم، قال:

دعهم عندك فى التّرسيم إلى بكرة، و رح اكتب عليهم حجّة بالقسامة الشريفة بالله تعالى، و بنعمة السلطان أنّ ثواب هذه الختمات لمولانا السلطان الملك المنصور قلاوون؛ ففعلت ذلك و جئت إليه بالحجّة، فقال: هذا جيّد، أصلح اللّه أبدانكم و صرف لهم أجرتهم. و حكى عنه عدّة حكايات من هذا تدلّ على تغفّل كبير.

قلت: و يلحق أرجواش هذا بعقلاء المجانين فإنّ تدبيره فى أمر قلعة دمشق و قيامه فى قتال غازان له المنتهى فى الشجاعة و حسن التدبير. انتهى.

و فيها توفّى شمس الدين سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير فى سابع عشر ذى القعدة بدمشق، و كان رئيسا فاضلا كاتبا، كتب الإنشاء بدمشق سنين.

و فيها توفّى الشريف نجم الدين أبو نميّ محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٠٠

ابن محمد بن موسى بن عبد اللّه المحض بن موسى [بن عبد اللّه] بن الحسن بن الحسن بن علىّ ابن أبى طالب الحسنىّ المكىّ صاحب مكّة المشرّفة فى يوم الأحد رابع صفر بعد أن أقام فى إمرة مكّة أربعين سنة، و قدم القاهرة مرارا، و كان يقال لو لا أنّه زيدىّ لصلح للخلافة لحسن صفاته.

أمر النيل فى هذه السنة الماء القديم ثلاث أذرع و أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ٧٠٢]

السنة الخامسة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة اثنتين و سبعمائة.

فيها فى أوّل المحرّم قدم الأمير بيبرس الجاشنكير من الحجاز و معه الشريفان حميضة و رميثة فى الحديد فسجنا بقلعة الجبل.

و فيها فى رابع جمادى الآخرة ظهر بالنيل دابّة كلون الجاموس بغير شعر، و أذناها كأذن الجمل، و عيناها و فرجها مثل الناقة، و يغطّى فرجها ذنب طوله شبر و نصف،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٠١

طرفه كذنب السّمك، و رقبتها مثل ثخن التّلّيس المحشوّ تبنا، و فمها و شفتاها مثل الكربال، و لها أربع أنياب [اثنتان فوق اثنتين] فى طول نحو شبر و عرض إصبعين، و فى فمها ثمانية و أربعون ضرسا و سنّا مثل بيادق الشّطرنج، و طول يدها من باطنها شبران و نصف،

و من رکبتها إلی حافرها مثل أظافیر الجمل، و عرض ظهرها قدر ذراعین و نصف، و من فمها إلی ذنبها خمس عشرة قدما، و فی بطنها ثلاث کروش، و لحمها أحمر له ذفرة السّمک، و طعمه مثل لحم الجمل، و ثخانة جلدها أربع أصابع، لا تعمل فیه السّیوف؛ و حمل جلدها علی خمسة جمال فی مقدار ساعة من ثقله، و کان ینقل من جمل إلی جمل و قد حشی تبنا حتّی وصل إلی قلعة الجبل.

و فیها کان بمصر و القاهرة زلزلة عظیمة أخربت عدّة منائر و مبان کثیرة من الجوامع و البیوت حتّی أقامت الأمراء و مباشرو الأوقاف مدّة طویلة ترمّ و تجدّد ما تشعّث فیها من المدارس و الجوامع حتّی منارة الإسکندریّة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۲

و فیها أبطل الأمیر رکن الدین بیبرس الجاشنکیر عید الشهید بمصر، و هو أنّ النصاری کان عندهم تابوت فیه اصبع یزعمون أنّها من أصابع بعض شهدائهم، و أنّ النیل لا یزید ما لم یرم فیه هذا التابوت، فکان یجتمع النصاری من سائر النواحی إلی شبرا، و یقع هناک أمور یطول الشرح فی ذکرها، حتی إنّ بعض النصاری باع

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۳

فی أیّام هذا العید باثنی عشر ألف درهم خمرا من کثرة الناس التی تتوجّه إلیه للفرجة، و کان تثور فی هذا العید فتن و تقتل خلائق. فأمر الأمیر بیبرس رحمه اللّه بإبطال ذلک، و قام فی ذلک قومة عظیمة، فشقّ ذلک علی النصاری، و اجتمعوا بالأقباط الذین أظهروا الإسلام، فتوجّه الجمیع إلی التاج بن سعید الدولة کاتب بیبرس، و کان خصیصا به و أوعدوا بیبرس بأموال عظیمة، و خوّفه من عدم طلوع النیل و من کسر الخراج، فلم یلتفت إلی ذلک و أبطله إلی یومنا هذا.

و فیها توفّی الشیخ کمال الدین أحمد بن أبی الفتح محمود بن أبی الوحش أسد ابن سلامة بن سلیمان بن فتیان المعروف بابن العطّار، أحد کتّاب الدّرج بدمشق فی رابع عشر ذی القعدة. و مولده سنة ستّ و عشرین و ستمائة، و کان کثیر التلاوة محبّا لسماع الحدیث و سمع و حدّث، و کان صدرا کبیرا فاضلا و له نظم و نثر، و أقام یکتب الدّرج أربعین سنة.

و فیها توفّی الشیخ شهاب الدین أحمد ابن الشیخ القدوة برهان الدین إبراهیم ابن معضاد الجعبریّ بالقاهرة؛ و قد تقدم ذکر وفاة والده، و دفن بزاویته خارج باب النصر من القاهرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۴

و فیها توفّی الأمیر فارس الدین ألبکی الساقی أحد ممالیک الملک الظاهر بیبرس، کان من أکابر أمراء الدیار المصریّة، ثم اعتقل إلی أن أفرج عنه الملک المنصور قلاوون و أنعم علیه بإمرة؛ ثم نقله إلی نیابة صفد فأقام بها عشر سنین، و فرّ مع الأمیر قبجق إلی غازان و تزوّج بأخته، ثم قدم مع غازان و لحق بالسلطان، فولّاه نیابة حمص حتی مات بها فی یوم الثلاثاء ثامن ذی القعدة. و کان ملیح الشکل کثیر الأدب ما جلس قطّ بلا خفّ، و إذا رکب و نزل حمل جمداره شاشه، فإذا أراد الرکوب لفّه مرّة واحدة بیده کیف کانت.

و فیها استشهد بوقعة شقحب الأمیر عزّ الدین أیدمر العزّی نقیب الممالیک السلطانیّة [فی أیّام لاچین]، و أصله من ممالیک الأمیر عزّ الدین أیدمر [الظاهری] نائب الشام و کان کثیر الهزل، و إلیه تنسب سویقة العزّی خارج القاهرة بالقرب من جامع ألجای الیوسفیّ.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۵

و فیها استشهد الأمیر سیف الدین أیدمر الشمسی القشّاش، و کان قد ولی کشف الغربیة و الشرقیة جمیعا و اشتدّت مهابته، و کان یعذّب أهل الفساد بأنواع قبیحة من العذاب، منها: أنّه کان یغرس خازوقا بالأرض و یجعل عوده قائما و یرفع الرّجل و یسقطه علیه! و أشیاء کثیرة ذکرناها فی ترجمته فی تاریخنا المنهل الصافی، و لم یجسر أحد من الفلّاحین فی أیّامه أن یلبس مئزرا أسود و لا یرکب فرسا و لا یتقلّد بسیف و لا یحمل عصا مجلّبة حتی و لا أرباب الإدراک، ثم استعفی من الولایة و لزم داره، و خرج لغزوة شقحب فی محفّة إلی وقت القتال لبس سلاحه و رکب فرسه و هو فی غایة الألم، فقیل له: أنت لا تقدر تقاتل، فقال: و اللّه لمثل هذا الیوم أنتظر، و إلّا بأیّ شیء یتخلّص القشّاش من ربّه بغیر هذا! و حمل علی العدوّ و قاتل حتّی قتل و رئی فیه- بعد أن مات- ستّة جراحات.

و فيها أيضا استشهد الأمير أوليا بن قرمان أحد أمراء الظاهريّة و هو ابن أخت قرمان، و كان شجاعا مقداما.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۶

و فيها استشهد أيضا الأمير عزّ الدين أيبك الأستادار، و كان من كبار الأمراء المنصوريّة.

و استشهد الأمير جمال الدين آقوش الشمسى الحاجب. و الأمير سيف الدين بهادر أحد الأمراء بحماة. و الأمير صلاح الدين بن الكامل. و الأمير علاء الدين [على] ابن الجاكى. و الشيخ نجم الدين [أيّوب] الكردىّ. و الأمير شمس الدين سنقر الشمسى [الحاجب]. و الأمير شمس الدين سنقر الكافرى. و الأمير سنقر شاه أستادار بيبرس الجالق. و الأمير حسام الدين علىّ بن باخل. و الأمير لاچين الرومىّ [المنصورى] أستادار الملك المنصور قلاوون و يعرف بالحسام.

قلت: و رأيت أنا من ذريّته الصارمى إبراهيم بن الحسام. و كلّ هؤلاء استشهدوا فى نوبة غازان بشقحب بيد التتار.

و فيها توفّى الملك العادل كتبغا المنصورىّ نائب حماة بها و هو فى الكهولية فى ليلة الجمعة يوم عيد الأضحى. و قد تقدّم ذكره فى ترجمته من هذا الكتاب عند ذكر سلطنته بالديار المصريّة، و ما وقع له حتى خلع و توجّه لنيابة صرخد، ثم نقل إلى نيابة حماة فمات بها.

و فيها توفّى قاضى القضاة تقىّ الدين محمد ابن الشيخ مجد الدين علىّ بن وهب ابن مطيع بن أبى الطاعة القشيرىّ المنفلوطىّ الفقيه المالكىّ ثم الشافعىّ المعروف بابن دقيق العيد قاضى قضاة الشافعيّة بالديار المصريّة. كان إماما عالما، كان مالكيّا ثم انتقل إلى مذهب الشافعىّ. و مولده فى عشرين شعبان سنة خمس و عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۷

و ستمائة، و مات فى يوم الجمعة حادى عشر صفر، و كان تفقّه بأبيه ثم بالشيخ عزّ الدين ابن عبد السلام و غيره، و سمع من ابن المقيّر و ابن رواح و ابن عبد الدئم و غيرهم، و خرّج لنفسه تساعيات، و صار من أئمة العلماء فى مذهبى مالک و الشافعىّ مع جودة المعرفة بالأصول و النحو و الأدب، إلّا أنّه كان قهره الوسواس فى أمر المياه و النّجاسات، و له فى ذلک حكايات و وقائع عجيبة. و روى عنه الحافظ فتح الدين بن سيد الناس، و قاضى القضاة علاء الدين القونوىّ، و قاضى القضاة علم الدين الإخنائى و غيرهم و كان أبو حيّان النحوىّ يطلق لسانه فى حقّ قاضى القضاة المذكور، و قد أوضحنا ذلک فى ترجمته فى المنهل الصافى باستيعاب. و من نظمه قصيدته المشهورة فى مدح النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم التى أوّلها:

يا سائرا نحو الحجاز مشمّرا اجهد فديتک فى المسير و فى السّرى

و إذا سهرت اللّيل فى طلب العلا فحذار ثم حذار من خدع الكرى

و له أيضا:

سحاب فكرى لا يزال هاميا و ليل همّى لا أراه راحلا

قد أتعبتنى همّتى و فطنتى فليتنى كنت مهينا جاهلا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۸

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرّر. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء، و كان الوفاء فى سابع عشرين مسرى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۳]

السنة السادسة من ولاية الملک الناصر محمد بن قلاون الثانية على مصر، و هى سنة ثلاث و سبعمائة.

فيها انتدب الأمراء لعمارة ما خرب من الجوامع بالزّلزلة فى السنة الماضية، و أنفقوا فيها مالا جزيلا.

و فيها كملت عمارة المدرسة الناصريّة ببين القصرين، و نقل الملک الناصر محمد ابن قلاوون أمّه من التّربة المجاورة للمشهد النّفيسىّ

إليها. و موضع هذه المدرسة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۹

الناصريّة كان دارا تعرف بدار سيف الدين بلبان الرشيديّ فاشتراها الملك العادل زين الدين كتبغا و شرع فى بنائها مدرسة، و عمل بوّابتها من أنقاض مدينة عكّا و هى بوّابة كنيسة بها ثم خلع كتبغا، فاشتراها الملك الناصر محمد هذا على يد قاضى القضاة زين الدين علىّ بن مخلوف و أتمّها و عمل لها أوقافا جليلة، من جملتها:

قيساريّة أمير علىّ بالشرابشيين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۰

و الرّبع المعروف بالدهيشة قريبا من باب زويلة، و حوانيت باب الزّهومة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۱

و الحمّام المعروفة بالفخرية بجوار المدرسة الفخرية، و عدّة أوقاف أخرى فى مصر و الشام.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۲

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ كان أصله من مماليك الملك المنصور صاحب حماة، فطلبه منه الملك الظاهر بيبرس هو و أبو خرص [علم الدين سنجر] من الملك المنصور، فسيّرهما إليه فرقّاهما ثم أمّرهما، ثم ولّى الملك الأشرف خليل أيبك هذا نيابة دمشق بعد سنجر الشجاعىّ حتّى عزله الملك العادل كتبغا بمملوكه إغزلوا العادلىّ، و ولى بعد ذلك نيابة صرخد ثم حمص و بها مات فى تاسع عشر ربيع الآخر.

و فيها توفى الأمير ركن الدين بيبرس التّلاوىّ و كان يلى شدّ دمشق، و كان فيه ظلم و عسف، و تولّى عوضه شدّ دمشق الأمير قيران [المنصورى] الدوادارى.

و فيها توفّى القاضى شمس الدين سليمان بن إبراهيم بن إسماعيل الملطىّ ثم الدّمشقىّ الحنفىّ أحد نوّاب الحكم بدمشق و مصر، كان فقيها عالما ديّنا مباركا حسن السّيرة.

و فيها توفّى القان إيل خان معزّ الدين قازان، و قيل غازان، و كلاهما يصح معناه ابن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى خان بن چنكز خان ببلاد قزوين فى ثانى عشر شوال و حمل إلى تربته و قبّته التى أنشأها خارج تبريز. و كان جلوسه على تخت

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۳

الملك فى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، و أسلم فى سنة أربع و تسعين؛ و نثر الذهب و الفضّة و اللؤلؤ على رءوس الناس، و فشا الإسلام بإسلامه فى ممالك التتار، و أظهر العدل و تسمّى محمودا، و كان أجلّ ملوك المغل من بيت هولاكو، و هو صاحب الوقعات مع الملك الناصر محمد بن قلاوون و الذى ملك الشام. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى أصل هذه الترجمة.

و فيها توفّى القاضى فتح الدين أبو محمد عبد اللّه ابن الصاحب عزّ الدين محمد بن أحمد بن خالد بن محمد القيسرانىّ فى يوم الجمعة خامس عشرين شهر ربيع الآخر بالقاهرة، و قد وزر جدّه موفّق الدين خالد للملك العادل نور الدين محمود بن زنكى المعروف بالشهيد، و كانت لديه فضيلة و عنى بالحديث و جمع و ألّف كتابا فى معرفة الصحابة، و كان له نظم و نثر، و خرّج لنفسه أربعين حديثا، و روى عنه الدّمياطىّ من شعره، و أخذ عنه الحافظ فتح الدين ابن سيّد الناس، و البرزالىّ و الذهبىّ.

و من شعره:

بوجه معذّبى آيات حسن فقل ما شئت فيه و لا تحاشى

و نسخة حسنه قرئت فصحّت وها خطّ الكمال على الحواشى

و فيها توفّى القاضى كمال الدين أبو الفتح موسى ابن قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن شهاب الدين محمد بن خلّكان، كان

فاضلا اشتغل فى حياة والده و درس، و كانت سيرته غير مشكورة، و هو كان أكبر الأسباب فى عزل والده، و مات فى شهر ربيع الأوّل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۴

و فيها توفّى الشريف أبو فارس عبد العزيز بن عبد الغنى بن سرور بن سلامة المنوفىّ أحد أصحاب أبى الحجّاج الأقصرىّ. مات فى ليلة الاثنين خامس عشر ذى الحجة بمصر عن مائة و عشرين سنة.

و فيها توفّى الشريف جمّاز بن شيحة [بن هاشم بن قاسم بن مهنّا] أمير المدينة النبويّة مصروفا عن ولايتها، و الأصح وفاته فى القابلة.

و فيها توفّى الإمام المحدّث تاج الدين علىّ بن أحمد بن عبد المحسن الحسينىّ الغرّافى الإسكندرانىّ فى سابع ذى الحجّة.

و فيها توفّى الأمير الوزير ناصر الدين محمد، و يقال ذبيان، الشيخىّ، تحت العقوبة فى سابع ذى القعدة.

و فيها توفّى الشريف شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن الحسين بن محمد الأرموىّ نقيب الأشراف فى تاسع عشر شوّال، و كان فاضلا رئيسا. و قيل وفاته فى الآتية، و هو الأقوى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و عدّة أصابع.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا. و كان الوفاء أوّل أيام النّسىء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۴]

السنة السابعة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة أربع و سبعمائة.

فيها توجّه الأمير بيبرس الجاشنكير إلى الحجاز مرّة ثانية و معه علاء الدين أيدغدى الشّهرزورىّ رسول ملك الغرب، و الأمير بيبرس المنصورىّ الدّوادار، و الأمير بهاء الدين يعقوبا و جماعة كثيرة من الأمراء، و خرج ركب الحاجّ فى عالم كثير من الناس مع الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار زوج بنت الملك الظاهر بيبرس.

و فيها ظهر فى معدن الزّمرّد قطعة زنتها مائة و خمسة و سبعون مثقالا فأخفاها الضامن ثم حملها إلى بعض الملوك، فدفع فيها مائة ألف و عشرين ألف درهم فأبى يبيعها، فأخذها الملك منه غصبا و بعث بها إلى السلطان فمات الضامن غمّا.

و فيها توفّى القاضى فتح الدين أحمد بن محمد بن سلطان القوصىّ الشافعىّ وكيل بيت المال بقوص و أحد أعيانها، كان من الرؤساء و مات بها فى حادى عشر المحرّم.

و فيها توفّى القاضى زين الدين أحمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم بن حنّا فى ليلة الخميس ثامن صفر، و كان فقيها فاضلا متديّنا وافر الحرمة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۶

و فيها توفّى شمس الدين أحمد بن علىّ بن هبة اللّه بن السّديد الإسنائىّ خطيب إسنا و نائب الحكم بها و بأدفو و قوص فى شهر رجب، و كانت قد انتهت إليه رياسة الصعيد، و بنى بقوص مدرسة، و كان قوىّ النفس كثير العطاء مهابا ممدوحا يبذل فى بقاء رياسته الآلاف الكثيرة، يقال إنه بذل فى نيابة الحكم بالصعيد مائتى ألف، و صادره الأمير كراى المنصورىّ و أخذ منه مائة و ستين ألف درهم، فقدم القاهرة و مات بها.

و فيها توفّى الأمير بيبرس الموفّقى المنصورىّ أحد الأمراء بدمشق بها فى يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الآخرة مخنوقا و هو سكران. نسأل اللّه حسن الخاتمة بمنّه و كرمه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۷

و فيها توفّى الأمير الشريف عزّ الدين جمّاز بن شيحة أمير المدينة، و قد تقدّم فى الماضية. و الأصح أنّه فى هذه السنة.

و فيها توفّى الأمير شمس الدين محمد ابن الصاحب شرف الدين إسماعيل بن أبى سعيد بن التّيتىّ الآمدىّ أحد الأمراء و نائب دار العدل بقلعة الجبل، كان رئيسا فاضلا.

و فيها توفّى الأمير مبارز الدين سوار الرومىّ المنصورىّ أمير شكار، و كان من أعيان الأمراء و فيه شجاعة و حشمة و رياسة، و كان معظّما فى الدول.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين بهادر بن عبد اللّه المنصورىّ المعروف بسمز (أعنى سمينا) مقتولا بأيدى عرب الشام بعد أن قتل منهم مقتلة كبيرة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا، و كان الوفاء رابع توت.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۵]

السنة الثامنة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة خمس و سبعمائة.

فيها قدمت هدية الملك المؤيّد هزبر الدين داود صاحب اليمن فوجدت قيمتها أقلّ من العادة؛ فكتب بالإنكار عليه و التهديد.

و فيها استسقى أهل دمشق لقلّة الغيث فسقوا بعد ذلك، و للّه الحمد.

و فيها توفّى خطيب دمشق شرف الدين أحمد بن إبراهيم بن سباع الفزارىّ الفقيه المقرئ النحوى المحدّث الشافعى فى شوّال عن خمس و سبعين سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج‌٨، ص: ٢١٨

و فيها توفّى الحافظ شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن ابن شرف بن الخضر بن موسى الدّمياطىّ الشافعىّ أحد الأئمة الأعلام و الحفّاظ و الثقات. مولده فى سنة ثلاث عشرة و ستمائة بتونة و هى بلدة فى بحيرة تنّيس من عمل دمياط، و قيل فى سنة عشر و ستمائة، و اشتغل بدمياط و حفظ التنبيه فى الفقه، و سمع بها و بالقاهرة من الحافظ عبد العظيم المنذرىّ و أخذ عنه علم الحديث، و قرأ القرآن بالروايات، و برع فى عدّة فنون و سمع من خلائق؛ استوعبنا أسماء غالبهم فى ترجمته فى المنهل الصافى. و رحل إلى الحجاز و دمشق و حلب و حماة و بغداد، و حدّث و سمع منه خلائق مثل اليونينىّ و القونوىّ و المزّىّ

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج‌٨، ص: ٢١٩

و أبى حيّان و البرزالىّ و الذهبىّ و ابن سيّد الناس و خلق سواهم، و صنّف مصنّفات كثيرة ذكرنا غالبها فى المنهل الصافى، [و له كتاب فضل الخيل، و قد سمعت أنا هذا الكتاب بقراءة الحافظ قطب الدين الخيضرىّ فى أربعة مجالس آخرها فى سلخ شعبان سنة خمس و أربعين و ثمانمائة بالقاهرة فى منزل المسمع بحارة برجوان] على الشيخ الإمام العلّامة مؤرّخ الديار المصريّة تقىّ الدين أحمد [بن علىّ بن عبد القادر] المقريزىّ بسماعه جميعه على الشيخ ناصر الدين محمد بن علىّ بن الطّبردار الحرّاوى بسماعه جميعه على الشيخ مؤلّفه الحافظ شرف الدين الدّمياطىّ صاحب الترجمة- رحمه اللّه- و كانت وفاته فجأة بالقاهرة بعد أن صلّى العصر غشى عليه فى موضعه، فحمل إلى منزله فمات من ساعته فى يوم الأحد خامس عشر ذى القعدة.

و من شعره:

روينا بإسناد عن ابن مغفّل حديثا شهيرا صحّ من علّة القدح

بأنّ رسول اللّه حين مسيره لثامنة وافته من ليلة الفتح

و فيها توفّى الملك الأوحد، و قيل الزاهر، تقى الدين شادى ابن الملك الزاهر مجير الدين داود ابن الملك المجاهد أسد الدين شير كوه الصغير ابن الأمير ناصر الدين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج‌٨، ص: ٢٢٠

محمد ابن الملك المنصور اسد الدين شير كوه الكبير ابن شادى بن مروان الأيّوبى فى ثالث صفر و هو يوم ذاك أحد أمراء دمشق.

و فيها توفى المسند أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن أبى بكر الحرّانى الحنبلىّ.

مولده بحرّان سنة ثمانى عشرة و ستمائة، و سمع من ابن روزبة و المؤتمن بن قميرة، و سمع بمصر من ابن الجميزىّ و غيره و تفرّد بأشياء، و كان فيه دعابة و دين، و تلا بمكّة ألف ختمة.

و فيها توفّى قاضى قضاة الشافعيّة بحلب شمس الدين محمد بن محمد بن بهرام بها فى أوّل جمادى الأولى، و كان فقيها فاضلا.

و فيها توفّى الشيخ الإمام شرف الدين أبو زكريّا يحيى بن أحمد بن عبد العزيز الجذامىّ الإسكندرانى المالكىّ شيخ القراءات بها فى هذه السنة، و كان إماما عالما بالقراءات، و له مشاركة فى فنون. رحمه اللّه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرّر، و زاد البحر حتى بلغ ثمانى أذرع و نصفا ثم توقّف إلى ثامن مسرى، ثم زاد حتّى أوفى فى رابع توت. و بلغ ست عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ٧٠٦]

السنة التاسعة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة ست و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج‌٨، ص: ٢٢١

فيها وقع بين الأميرين: علم الدين سنجر البروانىّ و سيف الدين الطشلاقىّ على باب قلعة الجبل مخاصمة بحضرة الأمراء لأجل استحقاقهما فى الإقطاعات، لأنّ الطشلاقىّ نزل على إقطاع البروانىّ، و كان كل منهما فى ظلم و عسف. و البروانىّ من خواصّ بيبرس الجاشنكير، و الطشلاقىّ من ألزام سلّار لأنه خشداشه، كلاهما مملوك الملك الصالح على ابن الملك المنصور قلاوون. و مات فى حياة والده قلاوون. فسطا الطشلاقىّ على البروانىّ و سفه عليه، فقام البروانىّ إلى بيبرس و اشتكى منه فطلبه بيبرس و عنّفه، فأساء الطشلاقىّ فى ردّ الجواب و أفحش فى حقّ البروانىّ، و قال:

أنت واحد منفىّ تجعل نفسك مثل مماليك السلطان! فاستشاط بيبرس غضبا و قام ليضرب، فجرّد الطشلاقىّ سيفه يريد ضرب بيبرس، فقامت قيامة بيبرس و أخذ سيفه ليضربه، فترامى عليه من حضر من الأمراء و أمسكوه عنه، و أخرجوا الطشلاقىّ من وجهه بعد ما كادت مماليك بيبرس و حواشيه تقتله بالسيوف، و فى الوقت طلب بيبرس الأمير سنقر الكمالىّ الحاجب و أمر بنفى الطشلاقىّ إلى دمشق، فخشى سنقر من النائب سلّار و دخل عليه و أخبره، فأرسل سلّار جماعة من أعيان الأمراء إلى بيبرس، و أمرهم بملاطفته حتى يرضى عن الطشلاقىّ و أنّ الطشلاقىّ يلزم داره، فلمّا سمع بيبرس ذلك من الذين حضروا صرخ فيهم و حلف إن بات الطشلاقىّ الليلة بالقاهرة عملت فتنة كبيرة، فعاد الحاجب و بلّغ سلّار ذلك فلم يسعه إلّا السكوت لأنّهما (أعنى بيبرس و سلّار) كانا غضبا على الملك الناصر محمد و تحقّق كلّ منهما متى وقع بينهما الخلف وجد الملك الناصر طريقا لأخذهما واحدا بعد واحد، فكان كلّ من بيبرس و سلّار يراعى الآخر و قد اقتسما مملكة مصر، و ليس للناصر معهما إلّا مجرّد الاسم فى السلطنة فقط. انتهى. و أحرج الطشلاقىّ من وقته و أمر سلّار الحاجب بتأخيره فى بلبيس حتّى يراجع بيبرس فى أمره، فعند

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج‌٨، ص: ٢٢٢

ما اجتمع سلّار مع بيبرس فى الخدمة السلطانية من الغد بدأ بيبرس سلّار بما كان من الطشلاقىّ فى حقّه من الإساءة، و سلّار يسكّنه و لا يسكن بل يشتدّ فأمسك سلار عن الكلام على حقد فى الباطن، و صار السلطان يريد إثارة الفتنة بينهما فلم يتمّ له ذلك. و توجّه الطشلاقى إلى الشام منفيّا.

و فيها قدم البريد على الملك الناصر من حماة بمحضر ثابت على القاضى بأن ضيعة تعرف ببارين بين جبلين فسمع للجبلين فى اللّيل قعقعة عظيمة فتسارع الناس فى الصباح إليهما، و إذا أحد الجبلين قد قطع الوادى و انتقل منه قدر نصفه إلى الجبل الآخر، و المياه فيما

بین الجبلین تجری فی الوادی فلم یسقط من الجبل المنتقل شیء من الحجارة، و مقدار النصف المنتقل من الجبل مائة ذراع و عشر أذرع، و مسافة الوادی الذی قطعه هذا الجبل مائة ذراع، و أن قاضی حماة خرج بالشهود حتی عاین ذلک و کتب به محضرا. فکان هذا من الغرائب.

و فیها وقعت الوحشة بین بیبرس الجاشنکیر و سلّار بسبب کاتب بیبرس التاج ابن سعید الدولة، فإنّه کان أساء السیرة، و وقع بین هذا الکاتب المذکور و بین الأمیر سنجر الجاولی، و کان الجاولی صدیقا لسلّار إلی الغایة؛ فقام بیبرس فی نصرة کاتبه، و قام سلّار فی نصرة صاحبه الجاولی، و وقع بینهما بسبب ذلک أمور؛ و کان بیبرس من عادته أنّه یرکب لسلّار عند رکوبه و ینزل عند نزوله، فمن یومئذ لم یرکب معه و کادت الفتنة أن تقع بینهما، ثم استدرکا أمرها خوفا من الملک الناصر و اصطلحا بعد أمور یطول شرحها؛ و تکلّما فی أمر الوزر و من یصلح لها، فعیّن سلار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۳

کاتب بیبرس التاج بن سعید الدولة المقدّم ذکره تقرّبا لخاطر بیبرس بذلک، فقال بیبرس: ما یرضی، فقال سلّار: دعنی و إیّاه، فقال بیبرس: دونک، و تفرّقا.

فبعث سلّار للتاج المذکور و أحضره فلمّا دخل علیه عبّس وجهه و صاح بإزعاج هاتوا خلعة الوزارة فأحضروها، و أشار إلی تاج الدولة المذکور بلبسها فتمنّع فصرخ فیه و حلف لئن لم یلبسها ضرب عنقه فخاف الإخراق به لما یعلمه من بغض سلار له فلبس التشریف، و کان ذلک یوم الخمیس خامس عشر المحرّم من السنة و قبّل ید سلّار فشّ فی وجهه و وصاه؛ و خرج تاج الدولة بخلعة الوزارة من دار النیابة بقلعة الجبل إلی قاعة الصاحب بها، و بین یدیه النّقباء و الحجّاب، و أخرجت له دواة الوزارة و البغلة فعلّم علی الأوراق و صرّف الأمور إلی بعد العصر ثم نزل الی داره.

و هذا کلّه بعد أن أمسک بیبرس سنجر الجاولی و صادره ثم نفاه إلی دمشق علی إمرة طبلخاناه، و ولّی مکانه أستادارا الأمیر أیدمر الخطیریّ صاحب الجامع ببولاق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۴

و فیها توفّی الصاحب شهاب الدین أحمد بن أحمد بن عطاء اللّه الأذرعیّ الدمشقیّ الحنفی محتسب دمشق و وزیرها، و کان رئیسا فاضلا حسن السّیرة.

و فیها توفّی الأمیر عزّ الدین أیبک بن عبد اللّه الطویل الخازندار المنصوریّ فی حادی عشر شهر ربیع الأوّل بدمشق، و کان دیّنا کثیر البرّ و الصدقات و المعروف.

و فیها توفّی الأمیر بدر الدین بکتاش بن عبد اللّه الفخریّ الصالحیّ النجمیّ أمیر سلاح. أصله من ممالیک الأمیر فخر الدین یوسف بن شیخ الشیوخ، ثم نقل إلی ملک الملک الصالح نجم الدین أیّوب، فترقّی فی الخدم حتّی صار من أکابر الأمراء، و غزا غیر مرّة و عرف بالخیر و علوّ الهمّة و سداد الرأی و کثرة المعروف.

و لمّا قتل الملک المنصور لاچین أجمعوا علی سلطنته فامتنع و أشار بعود السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون، و بعدها ترک الإمرة فی حال مرضه الذی مات فیه.

رحمه اللّه تعالی.

و فیها توفّی الأمیر سیف الدین کاورکا المنصوریّ أحد أعیان الأمراء بالدیار المصریّة.

و فیها توفّی الأمیر سیف الدین بلبان الجوکندار المنصوریّ، و کان ولی نیابة قلعة صفد و شدّ دواوین دمشق ثم نیابة قلعتها، ثم نقل إلی نیابة حمص فمات بها، و کان مشکور السیرة.

و فیها توفّی القاضی بدر الدین محمد بن فضل اللّه بن مجلّی العمریّ الدمشقی أخو کاتب السرّ القاضی شرف الدین عبد الوهاب و

محيى الدين يحيى و قد جاوز سبعين سنة. و هذا أوّل بدر الدين من بنى فضل اللّه، و يأتى ذكر ثان و ثالث، و الثالث هو كاتب السر بمصر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢٥

و فيها توفّى الأمير فارس الدين أصلم الرّدّادىّ فى نصف ذى القعدة، و كان رئيسا حشيما من أعيان الدولة الناصرية.

و فيها توفّى الأمير بهاء الدين يعقوبا الشّهرزورىّ بالقاهرة فى سابع عشر ذى الحجّة، و كان أميرا حشيما شجاعا و هو من حواشى بيبرس الجاشنكير.

و فيها توفّى الطواشى عزّ الدين دينار العزيزى الخازندار الظاهرىّ فى يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الأوّل، و كان ديّنا خيّرا كثير الصدقات و المعروف.

و فيها توفّى ملك الغرب أبو يعقوب يوسف [بن يعقوب] بن عبد الحقّ، وثب عليه سعادة الخصىّ أحد مواليه فى بعض حجره و قد خضّب رجليه بالحنّاء و هو مستلق على قفاه فطعنه طعنات قطع بها أمعاءه، و خرج فأدرك و قتل، و مات السلطان من جراحه فى آخر يوم الأربعاء سابع ذى القعدة، و أقيم بعده فى الملك أبو ثابت عامر ابن الأمير أبى عامر [عبد اللّه] ابن السلطان أبى يعقوب هذا أعنى حفيده. و كان مدّة ملكه إحدى و عشرين سنة.

و فيها توفّى الطّواشى شمس الدين صواب السّهيلى بالكرك عن مائة سنة، و كان مشكور السيرة.

و فيها توفّى الشيخ ضياء الدين عبد العزيز بن محمد بن على الطوسىّ الفقيه الشافعىّ بدمشق فى تاسع عشرين جمادى الأولى، و كان فقيها نحويّا مصنّفا شرح «الحاوى» فى الفقه و «مختصر ابن الحاجب» و غير ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢٦

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عدّة أصابع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع أصابع، و كان الوفاء فى رابع عشر مسرى.

[ما وقع من الحوادث سنة ٧٠٧]

السنة العاشرة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة سبع و سبعمائة.

فيها ورد الخبر عن ملك اليمن هزبر الدين داود بأمور تدلّ على عصيانه، فكتب السلطان و الخليفة بالإنذار، ثم رسم السلطان للأمراء أن يعمل كلّ أمير مركبا يقال لها: جلبة، و عمارة قيّاسة يقال لها: فلوة برسم حمل الأزواد و غيرها لغزو بلاد اليمن.

و فيها عمّر الأمير بيبرس الجاشنكير الخانقاه الرّكنيّة داخل باب النصر موضع دار الوزارة برحبة باب العيد من القاهرة، و وقف عليها أوقافا جليلة و مات قبل فتحها، فأغلقها الملك الناصر فى سلطنته الثالثة مدّة، ثم أمر بفتحها ففتحت.

و فيها عمّر الأمير عزّ الدين أيبك الأفرم الصغير نائب دمشق جامعا بالصالحية، و بعث يسأل فى أرض يوقفها عليه فأجيب إلى ذلك.

و فيها وقع الاهتمام على سفر اليمن و عوّل الأمير سلّار أن يتوجّه إليها بنفسه خشية من السلطان الملك الناصر، و ذلك بعد أن أراد السلطان القبض عليه و على بيبرس الجاشنكير عند ما اتّفق السلطان مع بكتمر الجوكندار، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢٧

فى أصل هذه الترجمة، و أيضا أنه شقّ عليه ما صار إليه بيبرس الجاشنكير من القوّة و الاستظهار عليه بكثرة خشداشيته البرجيّة، و البرجية كانت يوم ذاك مثل مماليك الأطباق الآن، و صار غالب البرجية أمراء، فاشتد شوكة بيبرس بهم بحيث إنّه أخرج الأمير سنجر الجاولى و صادره بغير اختيار سلّار، و عظمت مهابته و انبسطت يده بالتحكّم و انفرد بالركوب فى جمع عظيم، و قصد البرجية فى نوبة بكتمر الجوكندار إخراج الملك الناصر محمد إلى الكرك و سلطنة بيبرس، لو لا ما كان من منع سلّار لسياسة و تدبير كانا فيه.

فلمّا وقع ذلک كلّه خاف سلّار عواقب الأمور من السلطان و من بيبرس و تحيّل فى الخلاص من ذلک بأنه يحجّ فى جماعته، ثم يسير إلى اليمن فيملكها و يمتنع بها، ففطن بيبرس لهذا فدسّ عليه جماعة من الأمراء من أثنى عزمه عن ذلک، ثم اقتضى الرأى تأخير السفر حتى يعود جواب صاحب اليمن.

و فيها حبس الشيخ تقىّ الدين بن تيميّة بعد أمور وقعت له.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيدمر السنانىّ بدمشق، و كان فاضلا و له شعر و خبرة بتفسير المنامات. و من شعره:

تجد النّسيم إلى الحبيب رسولا دنف حكاه رقّة و نحولا

تجرى العيون من العيون صبابة فتسيل فى إثر الغريق سيولا

و تقول من حسد له يا ليتنى: كنت اتّخذت مع الرّسول سبيلا

و فيها توفّى الأمير ركن الدين بيبرس العجمىّ الصالحى المعروف بالجالق، و (الجالق باللّغة التركيّة: اسم للفرس الحادّ المزاج الكثير اللّعب)، و كان أحد البحريّة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۸

و كبير الأمراء بدمشق، و مات فى نصف جمادى الأولى بمدينة الرملة عن نحو الثمانين سنة، و كان ديّنا فيه مروءة و خير. (و جالق بفتح الجيم و بعد الألف لام مكسورة و قاف ساكنة).

و فيها توفّى الأمير الطّواشى شهاب الدين فاخر المنصورىّ مقدّم المماليک السلطانية، و كانت له سطوة و مهابة على المماليک السلطانية بحيث إنّه كان لا يستجرئ أحد منهم أن يمرّ من بين يديه كائنا من كان بحاجة أو بغير حاجة، و حيثما وقع بصره عليه أمر بضربه.

قلت: للّه درّ ذلک الزمان و أهله! ما كان أحسن تدبيرهم و أصوب حدسهم من جودة تربية صغيرهم و تعظيم كبيرهم! حتى ملكوا البلاد، و دانت لهم العباد، و استجلبوا خواطر الرعيّة، فنالوا الرتب السنية. و أما زماننا هذا فهو بخلاف ذلک كلّه، فالمقدّم مؤخّر و الصغير متنمّر، و القلوب متنافرة، و الشرور متظاهرة، و إن شئت تعلم صدق مقالتى حرّک تر. انتهى.

و فيها توفّى الشيخ المعتقد عمر بن يعقوب بن أحمد [السعودى فى جمادى الآخرة].

[و فيها توفّى الشيخ فخر الدين عثمان] بن جوشن السّعودىّ فى يوم الأربعاء من شهر رجب، و كان رجلا صالحا معتقدا.

و فيها توفّى الصاحب تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم بن حنّا، و مولده فى تاسع شعبان سنة أربعين و ستمائة،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۹

و جدّه لأمّه الوزير شرف الدين صاعد الفائزىّ. و كانت له رياسة ضخمة و فضيلة، و مات بالقاهرة فى يوم السبت خامس جمادى الآخرة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ستّ أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۸]

السنة الحادية عشرة من ولاية السلطان الملک الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة ثمان و سبعمائة، و هى التى خلع فيها الملک الناصر المذكور من ملک مصر و أقام بالكرک و تسلطن من بعده بيبرس الجاشنكير حسب ما تقدّم ذكره.

فيها أفرج عن الملک المسعود خضر ابن الملک الظاهر بيبرس البندقدارىّ من البرج بقلعة الجبل، و أسكن بدار الأمير عزّ الدين الأفرم

الكبير بمصر، و ذلك فى شهر ربيع الأوّل.

و فيها كان خروج الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الترجمة من القاهرة قاصدا الحجّ و سار إلى الكرك و خلع نفسه.

و فيها توفّى الشيخ علم الدين إبراهيم بن الرشيد بن أبى الوحش رئيس الأطباء بالديار المصريّة و البلاد الشاميّة، و كان بارعا فى الطبّ محظوظا عند الملوك، و نالته السعادة من ذلك، حتّى إنّه لمّا مات خلّف ثلثمائة ألف دينار غير القماش و الأثاث.

و فيها توفّى الأمير عز الدين أيبك الشجاعىّ الأشقر شادّ الدواوين بالقاهرة فى المحرّم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸ ص: ۲۳۰

و فيها توفّى الأمير علاء الدين ألطبرس المنصورىّ والى باب القلعة و الملقّب بالمجنون المنسوب إليه العمارة فوق قنطرة المجنونة على الخليج الكبير خارج القاهرة، عمّرها للشيخ شهاب الدين العابر و لفقرائه و عقدها قبوا. و فى ذلك يقول علم الدين ابن الصاحب:

و لقد عجبت من الطبرس و صحبه و عقولهم بعقوده مفتونه

عقدوه عقدا لا يصح لأنهم عقدوا لمجنون على مجنونه

و كان ألطبرس المذكور عفيفا ديّنا غير أنه كان له أحكام قراقوشية من تسلطه على النساء و منعهنّ من الخروج إلى الأسواق و غيرها، و كان يخرج أيام الموسم إلى القرافة و ينكّل بهن فامتنعن من الخروج فى زمانه إلا لأمر مهم مثل الحمّام و غيره.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيدمر الرشيدىّ أستادار الأمير سلّار نائب السلطنة بالديار المصرية فى تاسع عشر شوال، و كان عاقلا رئيسا و له ثروة واسعة و جاه عريض.

و فيها توفّى الشيخ المعتقد عبد الغفّار [بن أحمد بن عبد المجيد بن نوح] القوصىّ القائم بخراب الكنائس بقوص و غيرها فى ليلة الجمعة سابع ذى القعدة، و كان له أتباع و مريدون و للناس فيه اعتقاد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸ ص: ۲۳۱

و فيها توفّى ظهير الدين أبو نصر بن الرشيد بن أبى النصر السّامرىّ الدمشقى الكاتب فى حادى عشرين شهر رمضان بدمشق، و مولده سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، كان أوّلا ـ سامريّا ثم أسلم فى أيام الملك المنصور قلاوون، و تنقّل فى الخدم حتّى ولى نظر جيش دمشق إلى أن مات.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة مثل السنة الماضية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸ ص: ۲۳۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۹]

ذكر سلطنة الملك المظفّر بيبرس الجاشنكير على مصر

السلطان الملك المظفّر ركن الدين بيبرس بن عبد اللّه المنصورىّ الجاشنكير، أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البرجيّة، و كان جركسىّ الجنس، و لم نعلم أحدا ملك مصر من الجراكسة قبله إن صحّ أنه كان جركسيّا. و تأمّر فى أيّام أستاذه المنصور قلاوون، و بقى على ذلك إلى أن صار من أكابر الأمراء فى دولة الملك الأشرف خليل بن قلاوون. و لما تسلطن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد قتل أخيه الأشرف خليل صار بيبرس هذا أستادارا إلى أن تسلطن الملك العادل زين الدين كتبغا عزله عن الأستادارية بالأمير بتخاص، و قيل: إنّه قبض على بيبرس هذا و حبسه مدّة، ثم أفرج عنه و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصريّة.

و استمرّ على ذلك حتّى قتل الملك المنصور حسام الدين لاچين فكان بيبرس هذا أحد من أشار بعود الملك الناصر محمد بن

قلاوون إلى الملك. فلمّا عاد الناصر إلى ملكه تقرّر بيبرس هذا أستادارا على عادته و سلّار نائبا، فأقاما على ذلك سنين إلى أن صار هو و سلّار كفيلى الممالك الشريفة الناصرية، و الملك الناصر محمد معهما آلة فى السلطنة إلى أن ضجر الملك الناصر منهما و خرج إلى الحجّ فسار إلى الكرك و خلع نفسه من الملك. و قد ذكرنا ذلك كلّه فى ترجمة الملك الناصر محمد. فعند ذلك وقع الاتّفاق على سلطنة بيبرس هذا بعد أمور نذكرها؛ فتسلطن و جلس على تخت الملك فى يوم السبت الثالث و العشرين من شوّال من سنة ثمان و سبعمائة. و هو السلطان الحادى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۳

عشر من ملوك الترك و السابع ممن مسّهم الرّق، و الأوّل من الجراكسة إن صحّ أنه جركسىّ الجنس، و دقّت البشائر و حضر الخليفة أبو الربيع سليمان و فوّض إليه تقليد السلطنة، و كتب له عهدا و شمله بخطّه، و كان من جملة عنوان التقليد: إنّه من سليمان و إنّه بسم اللّه الرحمن الرحيم. ثم جلس الأمير بتخاص و الأمير قلّى و الأمير لاچين الجاشنكير لاستحلاف الأمراء و العساكر، فحلفوا الجميع و كتب بذلك إلى الأقطار.

و الآن نذكر ما وعدنا بذكره من سبب سلطنة بيبرس هذا مع وجود سلار و آقوش قتّال السّبع و هما أكبر منه و أقدم و أرفع منزلة، فنقول:

لمّا خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصريّة إلى الحجّ ثم ثنى عزمه عن الحج و توجّه إلى الكرك خلع نفسه، فلمّا حضر كتابه الثانى بتركه السلطنة، و قد تقدّم ذكر ذلك فى أواخر ترجمة الناصر بأوسع من هذا، أثبت الكتاب على القضاة.

فلمّا أصبح نهار السبت الثالث و العشرين من شوّال جلس الأمير سلّار النائب بشبّاك دار النيابة بالقلعة و حضر إلى عنده الأمير بيبرس الجاشنكير هذا و سائر الأمراء و اشتوروا فيمن يلى السلطنة، فقال الأمير آقوش قتّال السّبع، و الأمير بيبرس الدّوادار، و الأمير أيبك الخازندار و هم أكابر الأمراء المنصوريّة:

ينبغى استدعاء الخليفة و القضاة و إعلامهم بما وقع، فخرج الطّلب لهم و حضروا و قرئ عليهم كتاب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و شهد عند قاضى القضاة زين الدين بن مخلوف الأميران: عز الدين أيدمر الخطيرىّ و الأمير الحاج آل ملك و من كان توجّه معهم إلى الكرك فى الرسليّة بنزول الملك الناصر عن الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۴

و تركه مملكة مصر و الشام فأثبت ذلك، و أعيد الكلام فيمن يصلح للسلطنة من الأمراء، فأشار الأمراء الأكابر بالأمير سلّار، فقال سلّار: نعم على شرط، كلّ ما أشير به لا تخالفوه، و أحضر المصحف و حلّفهم على موافقته و ألّا يخالفوه فى شىء، فقلق البرجيّة من ذلك و لم يبق إلّا إقامتهم الفتنة، فكفّهم اللّه عن ذلك و انقضى الحلف، فعند ذلك قال الأمير سلّار: و اللّه يا أمراء، أنا ما أصلح للملك و لا يصلح له إلّا أخى هذا، و أشار إلى بيبرس الجاشنكير و نهض قائما إليه، فتسارع البرجيّة بأجمعهم: صدق الأمير سلّار و أخذوا بيد الأمير بيبرس، و أقاموه كرها و صاحوا بالجاويشية فصرخوا باسمه، و كان فرس النوبة عند الشباك فألبسوه تشريف السلطنة الخليفتى، و هى فرجيّة أطلس سوداء و طرحة سوداء و تقلّد بسيفين، و مشى سلّار و الأمراء بين يديه من عند سلّار من دار النيابة بالقلعة و هو راكب، و عبر من باب القلعة إلى الإيوان بالقلعة، و جلس على تخت الملك و هو يبكى بحيث يراه الناس. و ذلك فى يوم السبت المذكور، و لقّب بالملك المظفر. و قبّل الأمراء الأرض بين يديه طوعا و كرها، ثم قام إلى القصر و تفرّق الناس بعد ما ظنّوا كلّ الظنّ من وقوع الفتنة بين السّلّاريّة و البيبرسيّة. و قيل فى سلطنته وجه آخر و هو أنّه لما اشتوروا الأمراء فيمن يقوم بالملك، فاختار الأمراء سلّار لعقله و تؤدته، و اختار البرجيّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۵

بيبرس؛ فلم يجب سلّار إلى ذلك و انفضّ المجلس، و خلا كلّ من أصحاب بيبرس و سلّار بصاحبه، و حسّن له القيام بالسلطنة و خوّفه

عاقبة تركها، و أنه متى ولى غيره لا يوافقوه بل يقاتلونه. و بات البرجية فى قلق خوفا من ولاية سلّار، و سعى بعضهم إلى بعض، و كانوا أكثر جمعا من أصحاب سلّار، و أعدّوا السلاح و تأهّبوا للحرب. فبلغ ذلك سلّار فخشى سوء العاقبة، و استدعى الأمراء إخوته و حفدته و من ينتمى إليه، و قرّر معهم سرا موافقته على ما يشير به، و كان مطاعا فيهم فأجابوه؛ ثم خرج فى شباك النيابة و وقع نحو ممّا حكيناه من عدم قبوله السلطنة و قبول بيبرس الجاشنكير هذا، و تسلطن حسب ما ذكرناه و تمّ أمره و اجتمع الأمراء على طاعته و دخلوا إلى الخدمة على العادة فى يوم الاثنين خامس عشرين شوّال، فأظهر بيبرس التغمّم بما صار إليه. و خلع على الأمير سلار خلعة النيابة على عادته بعد ما استعفى و طلب أن يكون من جملة الأمراء، و ألحّ فى ذلك حتى قال له الملك المظفّر بيبرس:

إن لم تكن أنت نائبا فلا أعمل أنا السلطنة أبدا، فقامت الأمراء على سلّار إلى أن قبل و لبس خلعة النيابة، ثم عيّنت الأمراء للتوجّه إلى النوّاب بالبلاد الشامية و غيرها، فتوجّه إلى نائب دمشق، و هو الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير المنصورىّ، الأمير أيبك البغدادىّ و معه آخر يسمّى شادى و معهما كتاب، و أمرهما أن يذهبا إلى دمشق و يخلّفا نائبه المذكور و سائر الأمراء بدمشق، و توجّه إلى حلب الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدىّ و طيبرس الجمدار و على يليهما كتاب مثل ذلك، و توجّه إلى حماة الأمير سيف الدين بلاط الجوكندار و طيدمر الجمدار، و توجّه إلى صفد عزّ الدين أزدمر الإسماعيلىّ و بيبرس بن عبد اللّه، و توجّه إلى طرابلس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٣٦

عزّ الدين أيدمر اليونسى و أقطاى الجمدار. و خطب له بالقاهرة و مصر فى يوم الجمعة التاسع و العشرين من شوّال المذكور، و توجه الأمراء المذكورون إلى البلاد الشامية.

فلما قرب من سار إلى دمشق خرج النائب آقوش الأفرم و لاقاهما خارج دمشق و عاد بهما، فلما قرأ الكتاب بسلطنة بيبرس كاد أن يطير فرحا لأنه كان خشداش بيبرس، و كان أيضا جاركسىّ الجنس، و كانا يوم ذاك بين الأتراك كالغرباء، و زيّنت دمشق زينة هائلة كما زيّنت القاهرة لسلطنته. ثم أخرج كتاب السلطان بالحلف و فيه أن يحلفوا و يبعثوا لنا نسخة الأيمان، فأجاب جميع الأمراء بالسمع و الطاعة و سكت منهم أربعة أنفس و لم يتحدّثوا بشيء، و هم: بيبرس العلائىّ و بهادر آص و آقجبا الظاهرى و بكتمر الحاجب بدمشق، فقال لهم الأفرم: يا أمراء، كلّ الناس ينتظرون كلامكم فتكلّموا، فقال بهادر آص: نريد الخطّ الذى كتبه الملك الناصر بيده و فيه عزل نفسه، فأخرج النائب خطّ الملك الناصر فرآه بهادر ثم قال:

يا مولانا ملك الأمراء، لا تستعجل فممالك الشام فيها أمراء غيرنا، مثل الأمير قراسنقر نائب حلب، و قبجق نائب حماة، و أسندمر نائب طرابلس و غيرهم، فنرسل إليهم و نتّفق معهم على المصلحة، فإذا شاورناهم تطيب خواطرهم، و ربّما يرون من المصلحة ما لا نرى نحن، ثم قام بهادر المذكور و خرج فخرجت الأمراء كلّهم فى أثره، فقال الأمير أيبك البغدادىّ القادم من مصر للأفرم: لو مسكت بهادر آص لانصلح الأمر على ما نريد! فقال له الأفرم: و اللّه العظيم لو قبضت عليه لقامت فتنة عظيمة تروح فيها روحك، و تغيير الدول يا أيبك ما هو هين! و أنا ما أخاف من أمراء الشام من أحد إلّا من قبجق المنصورىّ، فإنّه ربّما يقيم فتنة من خوفه على روحه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٣٧

قلت: و قبجق هذا هو الذى كان نائب دمشق فى أيّام المنصور لاجين، و توجّه إلى غازان و أقدمه إلى الشام. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه.

و لمّا كان اليوم الثانى طلب الأفرم هؤلاء الأمراء الأربعة و اختلى بهم، و قال لهم: اعلموا أنّ هذا أمر انقضى، و لم يبق لنا و لا لغيرنا فيه مجال، و أنتم تعلمون أنّ كلّ من يجلس على كرسىّ مصر كان هو السلطان و لو كان عبدا حبشيّا، فما أنتم بأعظم من أمراء مصر، و ربّما يبلّغ هذا اليه فيتغيّر قلبه عليكم، و لم يزل يتلاطف بهم حتّى حلفوا له، فلمّا حلفوا حلف باقى الأمراء، و خلع الأفرم على جميع الأمراء و القضاة خلعا سنيّة، و كذلك خلع على الأمير أيبك البغدادىّ و على رفيقه شادى و أعطاهما ألفى دينار و زوّدهما و ردّهما فى أسرع وقت. و كتب معهما كتابا يهنّئ بيبرس بالملك، و يقول: عن قريب تأتيك نسخة الأيمان. و قدما القاهرة و أخبرا الملك

المظفّر بيبرس بذلك، فسرّ و انشرح صدره بذلك: ثمّ إنّ الأفرم نائب الشام أرسل إلى قراسنقر و إلى قبجق شخصا من مماليكه بصورة الحال، فأمّا قرا سنقر نائب حلب فإنّه لمّا سمع الواقعة و قرأ كتاب الأفرم، قال: إيش الحاجة إلى مشاورتنا! أستاذك بعثك بعد أن حلف، و كان ينبغى أن يتأنّى فى ذلك، و أمّا قبجق نائب حماة فإنه لمّا قرأ كتاب الأفرم، قال: لا حول و لا قوّة إلّا بالله العلى العظيم، إيش جرى على ابن أستاذنا حتّى عزل نفسه! و اللّه لقد دبرتم أنحس تدبير، هذه و اللّه نوبة لاچين. ثم قال لمملوك الأفرم: اذهب إلى أستاذك و قل له: الآن بلغت مرادك، و سوف تبصر من يصبح ندمان، و فى أمره حيران! و كذلك لمّا بعث الأفرم لأسندمر نائب طرابلس، فلما قرأ كتابه أطرق رأسه إلى الأرض؛ ثم قال:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٣٨

اذهب لأستاذك و قل له: يا بعيد الذّهن و قليل العلم بعد أن دبرت أمرا، فما الحاجة إلى مشاورتنا! فو اللّه ليكوننّ عليك أشأم التدبير و سيعود وباله عليك، و لم يكتب له جوابا.

و أمّا قراسنقر نائب حلب فإنه أرسل إلى قبجق و إلى أسندمر يعلمهما أنّ الأفرم حلّف عساكر دمشق على طاعة بيبرس، و لا نأمن أن يعمل الأفرم علينا، فهلمّوا نجتمع فى موضع واحد فنتشاور و نرى أمرا يكون فيه المصلحة، فاتّفقوا الجميع على أن يجتمعوا فى حلب عند قراسنقر، و عيّنوا ليلة يكون اجتماعهم فيها.

فأمّا قبجق فإنه ركب إلى الصيد بمماليكه خاصّة، و تصيّد إلى الليل فسار إلى حلب. و أمّا أسندمر أظهر أنّه ضعيف و أمر ألّا يخلّى أحدا يدخل عليه، و فى الليل ركب بمماليكه الذين يعتمد عليهم و قد غيّروا ملابسهم، و سار يطلب حلب. و اجتمع الجميع عند قرا سنقر، فقال لهم قراسنقر: ما تقولون فى هذه القضيّة التى جرت؟ فقال قبجق: و اللّه لقد جرى أمر عظيم، و إن لم نحسن التدبير نقع فى أمور! يعزل ابن أستاذنا و يأخذها بيبرس! و يكون الأفرم هو مدبّر الدولة! و هو على كلّ حال عدوّنا و لا نأمن شرّه، فقالوا: فما نفعل؟ قال: الرأى أن نكتب إلى ابن أستاذنا فى الكرك و نطلبه إلى حلب و نركب معه، فإما نأخذ له الملك، و إما أن نموت على خيولنا! فقال أسندمر: هذا هو الكلام، فحلف كلّ من الثلاثة على هذا الاتّفاق، و لا يقطع واحد منهم أمرا إلّا بمشورة أصحابه، و أنّهم يموت بعضهم على بعض، ثم إنّهم تفرّقوا فى اللّيل كلّ واحد إلى بلده.

و أمّا الأمراء الذين خرجوا من مصر إلى النوّاب بالبلاد الشاميّة بالخلع و بسلطنة بيبرس، فإنهم لمّا وصلوا إلى دمشق قال لهم الأفرم: أنا أرسلت إليهم مملوكى، فردّوا علىّ جوابا لا يرضى به مولانا السلطان. و كان الأفرم أرسل إلى الملك المظفّر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٣٩

بيبرس نسخة اليمين التى حلّف بها أمراء دمشق مع مملوكه مغلطاى، فأعطاه الملك المظفّر إمرة طبلخاناه و خلع عليه، و أرسل معه خلعة لأستاذه الأفرم بألف دينار، و أطلق له شيئا كثيرا كان لبيبرس فى الشام قبل سلطنته من الحواصل و الغلال، فسّر الأفرم بذلك غاية السرور، ثم قال الأميران اللذان وصلا إلى دمشق للافرم:

ما تشير به علينا؟ فقال لهما: ارجعا إلى مصر و لا تذهبا إلى هؤلاء، فإنّ رءوسهم قويّة، و ربّما يثيرون فتنة، فقالا: لاغنى لنا [من] أن نسمع كلامهم، ثم إنّهما ركبا من دمشق و سارا إلى حماة، و دخلا على قبجق و دفعا له كتاب الملك المظفّر، فقرأه ثم قال: و أين كتاب الملك الناصر؟ فأخرجا له الكتاب، فلمّا وقف عليه بكى، ثم قال: من قال إنّ هذا خطّ الملك الناصر؟ و اللّه واحد يكون وكيلا فى قرية ما يعزل نفسه منها بطيبة من خاطره! و لا بدّ لهذا الأمر من سبب، اذهبا إلى الأمير قراسنقر فهو أكبر الأمراء و أخبرهم بالأحوال، فركبا و سارا إلى حلب و اجتمعا بقراسنقر؛ فلمّا قرأ كتاب المظفّر قال: يا إخوتى إنّا على أيمان ابن أستاذنا لا نخونه و لا نحلف لغيره و لا نواطئ عليه و لا نفسد ملكه، فكيف نحلف لغيره! و اللّه لا يكون هذا أبدا و دعوا يجرى ما يجرى، و كلّ شىء ينزل من السماء تحمله الأرض.

و لا حول و لا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم! فخرجا من عنده و سارا إلى طرابلس و دخلا على أسندمر فقال لهما: مثل مقالة قبجق و قرا

سنقر، فخرجا و رکبا و سارا نحو الدیار المصریّة، و دخلا علی الملک المظفر بیبرس و أعلماه بما کان، فضاق صدر المظفّر و أرسل خلف الأمیر سلّار النائب و قصّ علیه القصّة، فقال له سلّار: هذا أمر هیّن و نقدر (أن) نصلح هؤلاء، فقال: و کیف السبیل إلی ذلک؟ قال: تکتب إلی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢۴٠

قرا سنقر کتابا و ترقّق له فی الکلام، و أرسل إلیه تقلیدا بنیابة حلب و بلادها، و أنّه لا یحمل منه الدّرهم الفرد، و کذا لقبجق بحماة، و لأسندمر بطرابلس و السواحل، فقال بیبرس: إذا فرّقت البلاد علیهم ما یساوی ملکی شیئا! فقال له سلّار: و کم [من] ید تقبّل عن ضرورة و هی تستحقّ القطع! فاسمع منّی و أرضهم فی هذا الوقت، فإذا قدرت علیهم بعد ذلک افعل بهم ما شئت؛ فمال المظفّر إلی کلامه و أمر أن یکتب بما قاله سلّار لکلّ واحد علی حدته، فکتب ذلک و أرسله مع بعض خواصّه.

و أمّا أمر الملک الناصر محمد بن قلاوون فإنّ الملک المظفّر لمّا تسلطن و تمّ أمره کتب له تقلیدا بالکرک، و سیّره له علی ید الأمیر آل ملک، و منشورا بما عیّن له من الإقطاعات. و أمّا أمر قرا سنقر فإنّه جهّز ولده محمدا إلی الملک الناصر محمد بالکرک، و علی یده کتابه و کتاب قبجق نائب حماة و کتاب أسندمر نائب طرابلس. و مضمون کتاب قرا سنقر: أنّه یلوم الملک الناصر عن نزوله عن الملک، و کیف وقع له ذلک و لم یشاوره فی أوّل الأمر، ثمّ وعده برجوع ملکه إلیه عن قریب، و أنّه هو و قبجق و أسندمر ما حلفوا للمظفر، و أنّهم مقیمون علی أیمانهم له. و کذلک کتاب قبجق و کتاب أسندمر، فأخذ الأمیر ناصر الدین محمد بن قرا سنقر کتب الثلاثة و سار مسرعا و معه نجّاب خبیر بتلک الأرض، فلم یزالا سائرین فی البریّة و المفاوز إلی أن وصلا إلی الکرک.

و ابن قرا سنقر علیه زیّ العرب، فلمّا وقفا علی باب الکرک سألوهما من أین أنتما؟

فقالا: من مصر، فدخلوا و أعلموا الملک الناصر محمدا بهما و استأذنوه فی إحضارهما، فأذن لهما بالدخول؛ فلمّا مثلا بین یدیه کشف ابن قراسنقر لثامه عن وجهه فعرفه السلطان، و قال له: محمد؟ فقال: لبیّک یا مولانا السلطان، و قبّل الأرض و قال:

لا بدّ من خلوة، فأمر السلطان لمن حوله بالانصراف، فعند ذلک حدّث

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢۴١

ابن قرا سنقر السلطان بما جری من أبیه و قبجق و أسندمر، و أنهم اجتمعوا فی حلب و تحالفوا بأنّهم مقیمون علی الأیمان التی حلفوها للملک الناصر، ثم دفع له الکتب الثلاثة فقرأها، ثم قال: یا محمد، ما لهم قدرة علی ما اتّفقوا علیه، فإنّ کلّ من فی مصر و الشام قد اتّفقوا علی سلطنة بیبرس، فلما سمع ابن قراسنقر ذلک حلف بأنّ کلّ واحد من هؤلاء الثلاثة کفء لأهل مصر و الشام، و مولانا السلطان أخبر بذلک منّی، فتبسّم السلطان و قال صدقت یا محمد، و لکن القائل یقول:

کن جریا إذا رأیت جبانا و جبانا إذا رأیت جریّا

لا تقاتل بواحد أهل بیت فضعیفان یغلبان قویّا

و هذه البلاد کلّها دارت مع بیبرس و لا یتمّ لنا الحال إلّا بحسن التدبیر و المداراة و الصبر علی الأمور. ثم إنّه أنزله فی موضع و أحسن إلیه، و قال له: استرح الیوم و غدا ثم سافر، فأقام یومین ثم طلبه الملک الناصر فی صبیحة الیوم الثالث و أعطاه جواب الکتب، و قال له: سلّم علی أبی (یعنی علی قرا سنقر) و قل له: اصبر، ثم خلع علیه خلعة سنیّة و أعطاه ألف دینار مصریّة، و خلع علی معن النّجاب الذی أتی به أیضا و أعطاه ألف درهم؛ فخرج ابن قرا سنقر و النّجاب معه، و أسرعا فی السیر إلی أن وصلا إلی حلب، فدخل ابن قرا سنقر إلی أبیه و دفع له کتاب الملک الناصر ففتحه فإذا فیه:

بسم اللّه الرحمن الرحیم: حرس اللّه تعالی نعمة المقرّ العالی الأبویّ الشمسیّ و متّعنا بطول حیاته، فقد علمنا ما أشار به و ما عوّل علیه، و قد علمنا قدیما و حدیثا أنّه لم یزل علی هذه الصورة، و أرید منک أنّک تطوّل روحک علیّ، فهذا الأمر ما ینال بالعجلة لأنّک قد علمت انتظام أمراء مصر و الشام فی سلک واحد و لا سیّما الأفرم و من معه من اللئام، فهذه عقدة لا تنحلّ إلّا بالصبر، و إن حضر

إليك أحد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج‌۸، ص: ۲۴۲

من جهة المظفّر و طلب منک اليمين له، فقدّم النيّة أنّک مجبور و مغصوب و احلف.

و لا تقطع كتبک عنى فى كلّ وقت، و عرّفنى بجميع ما يجرى من الأمور قليلها و كثيرها.

و كذلک كتب فى كتاب قبجق و أسندمر، فعرف قرا سنقر مضمون كتابه و سكت.

ثم بعد قليل وصل إلى قرا سنقر من الملک المظفّر بيبرس تقليد بنيابة حلب و بلادها دربست على يد أمير من أمراء مصر. و من مضمون الكتاب الذى من المظفّر إلى قرا سنقر: أنت خشداشى، و لو علمت أنّ هذا الأمر يصعب عليك ما عملت شيئا حتّى أرسلت إليک و أعلمتک به، لأنّ ما فى المنصوريّة أحد أكبر منک، غير أنّه لما نزل ابن أستاذنا عن الملک اجتمع الأمراء و القضاة و كافّة الناس، و قالوا:

ما لنا سلطان إلّا أنت، و أنت تعلم أنّ البلاد لا تكون بلا سلطان، فلو لم أتقدّم أنا كان غيرى يتقدّم [و قد وقع ذلک]! فاجعلنى واحدا منكم و دبّرنى برأيک. و هذه حلب و بلادها دربست لک، و كذا لخشداشيتک: الأمير قبجق و الأمير أسندمر.

و سيّر الملک المظفّر لكلّ من هؤلاء الثلاثة خلعة بألف دينار، و فرشا قماشه بألف دينار، و عشرة رءوس من الخيل. فعند ذلک حلف قراسنقر و قبجق و أسندمر، و رجع الأمير المذكور إلى مصر بنسخة اليمين. فلمّا وقف عليها الملک المظفّر فرح غاية الفرح، و قال: الآن تمّ لى الملک. ثم شرع من يومئذ فى كشف أمور البلاد و إزالة المظالم و النظر فى أحوال الرعيّة.

ثم استهلّت سنة تسع و سبعمائة، و سلطان الديار المصريّة الملک المظفّر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورىّ، و الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان، و نائب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج‌۸، ص: ۲۴۳

السلطنة بديار مصر الأمير سلّار، و نائب الشام الأمير آقوش الأفرم الصغير، و نائب حلب الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورىّ، و نائب حماة الأمير سيف الدين قبجق المنصورىّ، و نائب طرابلس الأمير سيف الدين أسندمر المنصورىّ. ثم فشا فى الناس فى السنة المذكورة أمراض حادّة، و عمّ [الوباء] الخلائق و عزّ سائر ما يحتاج إليه المرضى. ثم توقفت زيادة النيل إلى أن دخل شهر مسرى، و ارتفع سعر القمح و سائر الغلال، و منع الأمراء البيع من شونهم إلّا الأمير عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ الأستادار، فإنّه تقدّم إلى مباشريه ألّا يتركوا عنده سوى مئونة سنة واحدة، و باع ما عداه قليلا قليلا. و الخطيرىّ هذا هو صاحب الجامع الذى بخطّ بولاق. انتهى.

و خاف الناس أن يقع نظير غلاء كتبغا، و تشاءم الناس بسلطنة الملک المظفّر بيبرس المذكور. ثمّ إنّ الخطيب نور الدّين علىّ بن محمد بن الحسن بن علىّ القسطلانىّ خرج بالناس و استسقى، و كان يوما مشهودا، فنودى من الغد بثلاث أصابع، ثم توقّفت الزيادة مدّة، ثم زاد و انتهت زيادة النيل فيه إلى خمس عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا فى سابع عشرين توت، ثم نقص فى أيّام النسىء و جاء النّوروز و لم يوفّ النيل ستّ عشرة ذراعا ففتح خليج السدّ فى يوم الجمعة ثامن توت و هو ثامن عشرين شهر ربيع الأوّل. و ذكر بعضهم أنّه لم يوفّ إلى تاسع عشر بابه، و هو يوم الخميس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج‌۸، ص: ۲۴۴

حادى عشر جمادى الأولى، و ذلک بعد اليأس منه، و هذا القول هو الأشهر.

قال: و انحطّ مع ذلک بعد الوفاء السّعر و تشاءم الناس بطلعة الملک المظفّر بيبرس.

و غنّت العامّة فى المعنى:

سلطاننا ركين و نائبنا دقين

يجينا الماء من أين

يجيبوا لنا الأعرج يجى الماء و يدحّرج

و من يومئذ وقعت الوحشة بين المظفّر و بين عامّة مصر، و أخذت دولة الملك المظفّر بيبرس فى اضطراب، و ذلك أنّه كثر توهّمه من الملك الناصر محمد بن قلاوون، و قصد فى أيّامه كل واحد من خشداشيته أن يترقّى إلى أعلى منزلة، و اتّهموا الأمير سلار بمباطنة الملك الناصر محمد و حذّروا الملك المظفّر منه، و حسّنوا له القبض على سلّار المذكور، فجبن بيبرس عن ذلك. ثم ما زالوا حتّى بعث الأمير مغلطاى إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك ليأخذ منه الخيل و المماليك التى عنده، و تغلّظ فى القول، فغضب الملك الناصر من ذلك غضبا شديدا و قال له: أنا خلّيت، ملك مصر و الشام لبيبرس، ما يكفيه حتّى ضاقت عينه على فرس عندى و مملوك لى و يكرّر الطلب! ارجع إليه و قل له: و اللّه لئن لم يتركنى، و إلّا دخلت بلاد التّتار و أعلمهم أنّى تركت ملك أبى و أخى و ملكى لمملوكى، و هو يتابعنى و يطلب منّى ما أخذته، فجاوه مغلطاى و خشّن له فى القول بحيث اشتدّ غضب الملك الناصر، و صاح به:

ويلك وصلت إلى هنا! و أمر أن يجرّ و يرمى من سور القلعة، فثار به المماليك، يسبّونه و يلعنونه و أخرجوه إلى السّور، فلم يزل به أرغون الدّوادار و الأمير طغاى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۵

إلى أن عفا عنه و حبسه ثمّ أخرجه ماشيا، و عظم ذلك على الملك الناصر و كتب ملطّفات إلى نوّاب البلاد الشامية بحلب و حماة و طرابلس و صفد، ثمّ إلى مصر ممّن يثق به، و ذكر ما كان به من ضيق اليد و قلّة الحرمة، و أنّه لأجل هذا ترك ملك مصر و قنع بالإقامة بالكرك، و أنّ السلطان الملك المظفّر فى كلّ وقت يرسل يطالبه بالمماليك و الخيل التى عنده. ثم ذكر لهم فى ضمن الكتاب: أنتم مماليك أبى و ربيّتمونى فإمّا أن تردّوه عنى و إلّا سرت إلى بلاد التّتار، و تلطّف فى مخاطبتهم غاية التلطّف؛ و سيّر لهم بالكتب على يد العربان فأوصلوها إلى أربابها. و كان قد أرسل الملك المظفّر قبل ذلك يطلب منه المال الذى كان بالكرك و الخيل و المماليك التى عنده.

حسب ما يأتى ذكره فى ترجمة الملك الناصر محمد. فبعث إليه الملك الناصر بالمبلغ الذى أخذه من الكرك فلم يقنع المظفّر بذلك و أرسل ثانيا، و كان الملك الناصر لمّا أقام بالكرك صار يخطب بها للملك المظفّر بيبرس بحضرة الملك الناصر و الملك الناصر يتأدّب معه، و يسكت بحضرة مماليكه و حواشيه. و صار الملك الناصر إذا كاتب الملك المظفّر يكتب إليه: «الملكىّ المظفّرىّ» و قصد بذلك سكون الأحوال و إخماد الفتن، و المظفّر يلحّ عليه لأمر يريده اللّه تعالى حتى كان من أمره ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

و أما النّوّاب بالبلاد الشاميّة فإنّ قرا سنقر نائب حلب كتب إلى الملك الناصر الجواب: بأنّى مملوك السلطان فى كلّ ما يرسم به، و سأل أن يبعث إليه بعض المماليك السلطانية، و كذلك نائب حماة و نائب طرابلس و غيرهما ما خلا بكتمر الجوكندار، فإنّه طرد قاصد الملك الناصر و لم يجتمع به. ثم أرسل الملك الناصر مملوكه أيتمش المحمّدىّ إلى الشام و كتب معه ملطّفات إلى الأمير قطلوبك المنصورىّ و بكتمر الحسامىّ الحاجب بدمشق و لغيرهما، و وصل أيتمش إلى دمشق خفية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۶

و نزل عند بعض مماليك قطلوبك المذكور، و دفع إليه الملطّف؛ فلمّا أوصله إلى قطلوبك أنكر عليه و أمره بالاحتفاظ على أيتمش المذكور ليوصّله إلى الأفرم نائب الشام و يتقرّب إليه بذلك؛ فبلغ أيتمش الخبر فترك راحلته التى قدم عليها و مضى إلى دار الأمير بهادر آص فى اللّيل، فاستأذن عليه فأذن له فدخل إليه أيتمش و عرّفه ما كان من قطلوبك فى حقّه، فطيّب بهادر آص خاطره و أنزله عنده و أركبه من الغد معه إلى الموكب، و قد سبق قطلوبك إلى الأفرم نائب الشام و عرّفه قدوم مملوك الملك الناصر اليه و هروبه من عنده ليلا، فقلق الأفرم من ذلك و ألزم والى المدينة بتحصيل المملوك المذكور، فقال بهادر آص: هذا المملوك عندى و أشار إليه، فنزل عن فرسه و سلّم على الأفرم و سار معه فى الموكب إلى دار السعادة، و قال له بحضرة الأمراء:

السلطان الملک الناصر یسلّم علیک و یقول: ما منکم أحد إلّا و أکل خبز الملک الشهید قلاوون، و ما منکم إلا من إلعامه علیه، و أنتم تربیة الشهید والده، و أنه قاصد الدخول إلی دمشق و الإقامة بها، فإن کان فیکم من یقاتله و یمنعه العبور فعرّفوه، فلم یتمّ هذا القول حتی صاح الکوکندی الزرّاق أحد أکابر أمراء دمشق وا ابن أستاذاه! و بکی، فغضب الأفرم نائب الشام علیه و أخرجه، ثم قال الأفرم: لأیتمش قل له (یعنی الملک الناصر): کیف یجیء إلی الشام أو إلی غیر الشام! کأنّ الشام و مصر الآن تحت حکمک. أنا لمّا أرسل إلیّ السلطان الملک المظفر أن أحلف له ما حلفت حتی سیّرت أقول له: کیف یکون ذلک و ابن أستاذنا باق! فأرسل یقول: أنا ما تقدّمت علیه حتی خلع ابن أستاذنا نفسه، و کتب خطّه و أشهد علیه بنزوله عن الملک فعند ذلک حلفت له، ثم فی هذا الوقت تقول: من یردّنی عن الشام! ثم أمر به الأفرم فسلّم إلی أستاداره. فلمّا کان اللّیل استدعاه و دفع له

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۷

خمسین دینارا و قال له: لا تذکر الخروج من الکرک، و انا أکتب إلی المظفّر و أرجعه عن الطلب، ثم أطلقه فعاد أیتمش إلی الکرک و أعلم الملک الناصر بما وقع.

فأعاده الملک الناصر علی البرید و معه أرکتمر و عثمان الهجّان لیجتمع بالأمیر قرا سنقر نائب حلب و یواعده علی المسیر إلی دمشق، ثم خرج الملک الناصر من الکرک و سار إلی برکة زیزاء فنزل بها.

و أمّا الملک المظفّر بیبرس صاحب الترجمة فإنّه لمّا بلغه أنّ الملک الناصر حبس قاصده مغلطای المقدّم ذکره قلق من ذلک و استدعی الأمیر سلّار و عرّفه ذلک، و کانت البرجیّة قد أغروا المظفّر بیبرس بسلّار و اتّهموه أنّه باطن الملک الناصر و حسّنوا له القبض علیه، حسب ما ذکرناه، فجبن الملک المظفّر من القبض علیه. و بلغ ذلک سلّار فخاف من البرجیّة لکثرتهم و قوّتهم و أخذ فی مداراتهم؛ و کان أشدّهم علیه الأمیر بیکور و قد شرق إقطاعه، فبعث إلیه سلّار بستة آلاف إردب غلّة و ألف دینار فکفّ عنه، ثم هادی خواصّ المظفّر و أنعم علیهم. فلمّا حضر سلّار عند المظفّر و تکلّما فیما هم فیه فاقتضی الرأی إرسال قاصد إلی الملک الناصر بتهدیده لیفرج عن مغلطای. و بینما هم فی ذلک قدم البرید من دمشق بأنّ الملک الناصر سار من الکرک إلی البرج الأبیض و لم یعرف أحد مقصده، فکتب الجواب فی الحال بحفظ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۸

الطّرقات علیه. و اشتهر بالدیار المصریّة حرکة الملک الناصر محمد و خروجه من الکرک فماجت الناس؛ و تحرّک الأمیر نوغای القبجاقیّ، و کان شجاعا مقداما حادّ المزاج قویّ النفس، و کان من ألزام الأمیر سلّار النائب، و تواعد مع جماعة من الممالیک السلطانیة أن یهجم بهم علی السلطان الملک المظفّر إذا رکب و یقتله. فلمّا رکب المظفّر و نزل إلی برکة الجبّ استجمع نوغای بمن وافقه یریدون الفتک بالمظفّر فی عوده من البرکة، و تقرّب نوغای من السلطان قلیلا قلیلا و قد تغیّر وجهه و ظهر فیه أمارات الشرّ، ففطن به خواصّ المظفر و تحلّقوا حول المظفر، فلم یجد نوغای سبیلا إلی ما عزم علیه، و عاد الملک المظفّر إلی القلعة فعرّفه ألزامه ما فهموه من نوغای و حسّنوا له القبض علیه و تقریره علی من معه، فاستدعی السلطان الأمیر سلّار و عرّفه الخبر، و کان نوغای قد باطن سلّار بذلک، فحذّر سلّار الملک المظفّر و خوّفه عاقبة القبض علی نوغای و أنّ فیه فساد قلوب جمیع الأمراء، و لیس الرأی إلّا الإغضاء فقط. و قام سلار عنه فأخذ البرجیّة بالإغراء بسلّار و أنّه باطن نوغای، و متی لم یقبض علیه فسد الحال. و بلغ نوغای الحدیث فواعد أصحابه علی اللحاق بالملک الناصر، و خرج هو و الأمیر مغلطای القازانی و تقطای الساقی و نحو ستین مملوکا وقت المغرب عند غلق باب القلعة فی لیلة الخمیس خامس عشر جمادی الآخرة من سنة تسع و سبعمائة المذکورة. و قیل فی أمر نوغای و هروبه وجه آخر: قال الأمیر بیبرس الدّوادار فی تاریخه: تسحّب من الدیار المصریّة إلی الکرک المحروس سیف الدین نوغای القفجاقیّ أحد الممالیک السلطانیّة و سیف الدین تقطای الساقی و علاء الدین مغلطای القازانیّ، و توجّه معهم من الممالیک السلطانیة بالقلعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۹

مائة و ستة و ثلاثون نفرا، و خرجوا طلبا واحدا بخيلهم و هجنهم و غلمانهم و تركوا بيوتهم و أولادهم. انتهى.

و قال غيره: لمّا ولى الملك المظفر بيبرس السلطنة بقى سلّار هو الملك الظاهر بين الناس و الملك المظفّر بيبرس من وراء حجاب، فلمّا كان فى بعض الأيام دخل على الملك المظفّر أميران: أحدهما يسمّى نوغاى و الآخر مغلطاى فباسا الأرض بين يديه و شكوا له ضعف أخبازهما، فقال لهما المظفّر: اشكوا إلى سلّار فهو أعلم بحالكما منى، فقالا: خلّد اللّه ملك مولانا السلطان، أهو مالك البلاد أم مولانا السلطان! فقال: اذهبا إلى سلّار، و لم يزدهما على ذلك، فخرجا من عنده و جاءا إلى سلّار و أعلماه بقول الملك المظفّر، فقال سلّار: و اللّه يا أصحابى أبعدكما بهذا الكلام، و أنتما تعلمان أنّ النائب ما له كلام مثل السلطان. و كان نوغاى شجاعا و عنده قوّة بأس، فأقسم بالله لئن لم يغيّروا خبزه ليقيمنّ شرّا تهرق فيه الدماء، ثم خرجا من عند سلّار. و فى الحال ركب سلّار و طلع إلى عند الملك المظفّر و حدّثه بما جرى من أمر نوغاى و مغلطاى، و قال: هذا نوغاى يصدق فيما يقول، لأنّه قادر على إثارة الفتنة، فالمصلحة قبضه و حبسه فى الحبس، فاتّفقوا على قبضه. و كان فى ذلك الوقت أمير يقال له أنس فسمع الحديث، فلمّا خرج أعلم نوغاى بذلك، فلمّا سمع نوغاى الكلام طلب مغلطاى و جماعة من مماليك الملك الناصر، و قال لهم: يا جماعة، هذا الرجل قد عوّل على قبضنا، و أمّا أنا فلا أسلّم نفسى إلّا بعد حرب تضرب فيه الرّقاب، فقالوا له:

على ما ذا عوّلت؟ فقال: عوّلت على أنّى أسير إلى الكرك إلى الملك الناصر أستاذنا، فقالوا له: و نحن معك فحلف كلّ منهم على ذلك، فقال نوغاى، و كان بيته خارج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۰

باب النصر: كونوا عندى وقت الفجر الأوّل راكبين و أنتم لابسون و تفرّقا، فجهّز نوغاى حاله فى تلك الليلة و ركب بعد الثّلث الأخير مع مماليكه و حاشيته، ثم جاءه مغلطاى القازانى بمماليكه و معه جماعة من مماليك السلطان الملك الناصر و الكلّ ملبسون [على ظهر الخيل]. ثم إنّ نوغاى حرّك الطبلخاناه حربيّا و شقّ من الحسينيّة فماجت الناس و ركبوا من الحسينية و أعلموا الأمير سلّار، فركب سلار و طلع إلى القلعة و أعلم السلطان بذلك.

قال ابن كثير: و كان ذلك بمباطنة سلّار مع نوغاى. فلمّا بلغ المظّفر ذلك قال على إيش توجّها! فقال سلّار: على نباح الجراء فى بطون الكلاب، و اللّه ما ينظر فى عواقب الأمور و لا يخاف آثار المقدور؛ فقال المظفر: إيش المصلحة؟ فاتفقوا على تجريد عسكر خلف المتسحّبين فجرّد فى أثرهم جماعة من الأمراء صحبة الأمير علاء الدين مغلطاى المسعوديّ، و الأمير سيف الدين قلّى فى جماعة من المماليك، فساروا سيرا خفيفا قصدا فى عدم إدراكهم و حفظا لسلطانهم و ابن سلطانهم الملك الناصر محمد ابن قلاوون فلم يدركوهم، و أقاموا على غزّة أياما و عادوا إلى القاهرة.

و قال صاحب نزهة الألباب: و جرّد السلطان الملك المظفّر وراءهم خمسة آلاف فارس صحبة الأمير أخى سلّار، و قال له المظفّر: لا ترجع إلّا بهم و لو غاصوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۱

فى البحر! و كان فيهم الأمير شمس الدين دباكوز و سيف الدين بجاس و جنكلى ابن البابا و كهرداش و أيبك البغداديّ و بلاط و صاروجا و القرمانى و أمير آخر، و هؤلاء الأمراء هم خيار عسكر مصر فساروا. و كان نوغيه قد وصل إلى بلبيس و طلب واليها و قال له: إن لم تحضر لى فى هذه الساعة خمسة آلاف دينار من مال السلطان و إلّا سلخت جلدك من كعبك [إلى أذنك]، ففى الساعة أحضر الذهب، و كان نوغيه قد أرصد أناسا يكشفون له الأخبار، فجاءوا له و ذكروا أنّ عسكرا عظيما قد وصل من القاهرة و هم سائقون؛ فلمّا سمع نوغيه ذلك ركب هو و أصحابه و قالوا لوالى بلبيس قل للامراء الجائين خلفى أنا رائح على مهل حتى تلحقونى، و أنا أقسم بالله العظيم لئن وقعت عينى عليهم لأجعلنّ عليهم يوما يذكر إلى يوم القيامة! و لم يبعد نوغيه حتى وصل أخو سلّار و هو الأمير سمك و معه العساكر، فلاقاهم والى بلبيس و أخبرهم بما جرى له مع نوغيه و قال لهم: ما ركب إلا من ساعة، فلما سمعوا

بذلك ساقوا إلى أن وصلوا إلى مكان بين الخطّارة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٥٢

و السعيدية، فإذا بنوغاى واقف و قد صفّ رجاله ميمنة و ميسرة و هو واقف فى القلب قدّام الكلّ، فلما رآهم سمك أرسل إليه فارسا من كبار الحلقة، و سار إليه الفارس و اجتمع بنوغيه و قال له: أرسلنى سمك إليك و هو يقول: السلطان الملك المظفّر يسلّم عليك و يقول لك: سبحان اللّه! أنت كنت أكبر أصحابه، فما الذى غيّرك عليه؟

فإن كان لأجل الخبز فما يأكل الخبز أحد أحقّ منك، فإن عدت إليه فكلّ ما تشتهى يفعله لك. فلمّا سمع نوغيه هذا الكلام ضحك و قال: إيش هذا الكلام الكذب! لمّا أمس سألته أن يصلح خبزى بقرية واحدة ما أعطانى، و أنا تحت أمره، فكيف يسمح لى اليوم بما أشتهى و أنا صرت عدوّه! فخلّ عنك هذا الهذيان، و مالكم عندى إلا السيف، فرجع الرسول و أعلم سمك بمقالته، ثم إنّ نوغيه دكس فرسه و تقدّم إلى سمك و أصحابه و قال له: إن هؤلاء الذين معى أنا الذى أخرجتهم من بيوتهم و أنا المطلوب، فمن كان يريدنى يبرز لى و هذا الميدان! فنظرت الأمراء بعضهم إلى بعض، ثم قال: يا أمراء، ما أنا عاص على أحد، و ما خرجت من بيتى إلا غبنا، و أنتم أغبن منى، و لكن ما تظهرون ذلك، و هأنتم سمعتم منى الكلام فمن أراد الخروج إلىّ فليخرج و إلا احملوا علىّ بأجمعكم، و كان آخر النهار، فلم يخرج اليه أحد فرجع إلى أصحابه و نزل سمك فى ذلك المكان. فلما أمسى الليل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٥٣

رحل نوغيه بأصحابه و سار مجدّا ليله و نهاره حتى وصل قطيا، فوجد واليها قد جمع العربان لقتاله، لأنّ البطاقة وردت عليه من مصر بذلك، و العربان الذين جمعهم الوالى نحو ثلاثة آلاف فارس؛ فلما رآهم نوغاى قال لأصحابه: احملوا عليهم و بادروهم حتى لا يأخذهم الطّمع فيكم (يعنى لقلّتهم) و تأتى الخيل التى وراءكم، فحملوا عليهم و كان مقدّم العرب نوفل [ابن حابس] البياضى، و فيهم نحو الخمسمائة نفر بلبوس، فحملت الأتراك أصحاب نوغاى عليهم و تقاتلا قتالا عظيما حتى ولّت العرب، و انتصر نوغيه عليهم هو و أصحابه، و ولّت العرب الأدبار طالبين البرّيّة، و لحق نوغيه والى قطيا فطعنه و ألقاه عن فرسه و أخذه أسيرا. ثم رجعت الترك من خلف العرب و قد كسبوا منهم شيئا كثيرا.

و أمّا سمك فإنه لم يزل يتبعهم بعساكر مصر منزلة بعد منزلة حتى وصلوا إلى قطيا فوجدوها خرابا، و سمعوا ما جرى من نوغيه على العرب، فقال الأمراء: الرأى أننا نسير إلى غزّة و نشاور نائب غزّة فى عمل المصلحة، فساروا إلى غزّة فلاقاهم نائب غزّة و أنزلهم على ظاهر غزّة و خدمهم، فقال له سمك: نحن ما جئنا إلّا لأجل نوغاى، و أنّه من العريش سار يطلب الكرك، فما رأيك؟ نسير إلى الكرك أو نرجع إلى مصر؟

فقال لهم نائب غزة: رواحكم إلى الكرك ما هو مصلحة، و أنتم من حين خرجتم من مصر سائرون وراءهم و رأيتموهم فى الطريق فما قدرتم عليهم، و قد وصلوا إلى الكرك و انضمّوا إلى الملك الناصر، و الرأى عندى أنكم ترجعون إلى مصر و تقولون للسلطان ما وقع و تعتذرون له، فرجعوا و أخبروا الملك المظفّر بالحال فكاد يموت غيظا، و كتب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٥۴

من وقته كتابا للملك الناصر فيه: إنّ ساعة وقوفك على هذا الكتاب و قبل وضعه من يدك ترسل لنا نوغاى و مغلطاى و مماليكهما، و تبعث المماليك الذين عندك و لا تخلّ منهم عندك سوى خمسين مملوكا، فإنك اشتريت الكلّ من بيت المال، و إن لم تسيرهم سرت إليك و أخذتك و أنفك راغم! و سيّر الكتاب مع بدوىّ إلى الملك الناصر.

و أمّا نوغاى فإنه لما وصل إلى الكرك وجد الملك الناصر فى الصيد، فقال نوغيه لمغلطاى: انزل أنتها هنا و أسير أنا للسلطان، و ركب هجينا و أخذ معه ثلاثة مماليك و سار إلى ناحية عقبة أيلة، و إذا بالسلطان نازل فى موضع و عنده خلق كثير من العرب و الترك، فلما رأوا نوغيه و قد أقبل من صدر البرّيّة، أرسلوا إليه خيلا فكشفوا خبره، فلما قربوا منه عرفه مماليك السلطان فرجعوا و

أعلموا السلطان أنه نوغاى، فقال السلطان: اللّه أكبر! ما جاء هذا إلّا عن أمر عظيم، فلّما حضر نزل و باس الأرض بين يدى الملك الناصر و دعا له، فقال له الملك الناصر: أراك ما جئت لى فى مثل هذا الوقت إلى هذا المكان إلا لأمر؟ فحدثنى حقيقة أمرك، فأنشأ نوغيه يقول:

أنت المليك و هذه أعناقنا خضعت لعزّ علاك يا سلطانى

أنت المرجّى يا مليك فمن لنا أسد سواك و ما لك البلدان

فى أبيات أخر، ثم حكى له ما وقع له منذ خرج الملك الناصر من مصر إلى يوم تاريخه، فركب الملك الناصر و ركب معه نوغيه و عادا إلى الكرك، و خلع عليه و على رفقته و أنزلهم عنده و وعدهم بكلّ خير.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٥٥

ثم إنّ الملك الناصر جمع أمراءه و مماليكه و شاورهم فى أمره، فقال نوغيه:

من ذا الذى يعاندك أو يقف قدّامك و الجميع مماليكك! و الذى خلق الخلق إذا كنت أنت معى وحدى ألتقى بك كلّ من خرج من مصر و الشام! فقال السلطان:

صدقت فيما قلت، و لكن من لم ينظر فى العواقب، ما الدهر له بصاحب. انتهى.

و قال ابن كثير فى تاريخه: وصل المتوجّهون إلى الكرك إلى الملك الناصر فى الحادى و العشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فقبلهم الناصر أحسن قبول، و كان حين وصلوا إلى قطيا أخذوا ما بها من المال، و وجدوا أيضا فى طريقهم تقدمة لسيف الدين طوغان نائب البيرة فأخذوها بكمالها و أحضروا الجميع بين يدى الملك الناصر محمد، و لمّا وصلت إليه الأمراء المذكورون أمر الملك الناصر بالخطبة لنفسه، ثم كاتب النوّاب فاجتمعوا و أجابوه بالسمع و الطاعة. و لما عاد الأمراء من غزّة إلى مصر اشتدّ خوف السلطان الملك المظفّر و كثر خياله من أكثر عسكر مصر، فقبض على جماعة تزيد على ثلثمائة مملوك، و أخرج أخبازهم و أخباز المتوجّهين مع نوغيه إلى الكرك لمماليكه، و تحلّقوا عليه البرجيّة و شوّشوا فكره بكثرة تخيّله بمخامرة العسكر المصرىّ عليه، و ما زالوا به حتّى أخرج الأمير بينجار و الأمير صارم الدين الجرمكىّ فى عدّة من الأمراء مجرّدين، و أخرج الأمير آقوش الرومىّ بجماعته إلى طريق السّويس ليمنع من عساه يتوجّه من الأمراء و المماليك إلى الملك الناصر. ثم قبض الملك المظفّر على أحد عشر مملوكا و قصد أن يقبض على آخرين فاستوحش الأمير بطرا فهرب، فأدركه الأمير جركتمر بن بهادر رأس نوبة فأحضره فحبس؛ و عند إحضاره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٥٦

طلع الأمير ألديكز السّلاح دار بملطّف من عند الملك الناصر محمد، و هو جواب الكتاب الذى كان أرسله الملك المظفر للملك الناصر يطلب نوغيه و أصحابه. و قد ذكرنا معناه و ما أغلظ فيه و أفحش فى الخطاب للملك الناصر، و كان فى وقت وصول كتاب المظفّر حضر إلى الملك الناصر الأمير أسندمر نائب طرابلس كأنّهما كان على ميعاد، فأخذ الناصر الكتاب و أسندمر إلى جانبه، و عليه لبس العربان، و قد ضرب اللّثام فقرأ الناصر الكتاب، ثم ناوله إلى أسندمر فقرأه و فهم معناه، ثم أمر الملك الناصر الناس بالانصراف و بقى هو و أسندمر، و قال لأسندمر: ما يكون الجواب؟

فقال له أسندمر: المصلحة أن تخادعه فى الكلام و تترقّق له فى الخطاب حتى نجهّز أمرنا و نستظهر، فقال له السلطان: اكتب له الجواب مثل ما تختاره، فكتب أسندمر:

«المملوك محمد بن قلاوون يقبّل اليد العالية المولوية السلطانيّة المظفّريّة أسبغ اللّه ظلّها، و رفع قدرها و محلّها، و ينهى بعد رفع دعائه، و خالص عبوديته و ولائه أنه وصل إلىّ المملوك نوغيه و مغلطاى و جماعة من المماليك، فلمّا علم المملوك بوصولهم أغلق باب القلعة و لم يمكّن أحدا منهم يعبر إليه، و سيّرت إليهم ألومهم على ما فعلوه، و قد دخلوا على المملوك بأن يبعث و يشفع فيهم، فأخذ المملوك فى تجهيز تقدمة لمولانا السلطان و يشفع فيهم، و الذى يحيط به علم مولانا السلطان أنّ هؤلاء من مماليك السلطان،

خلّد اللّه ملكه، و أنّ الذى قيل فيهم غير صحيح، و إنما هربوا خوفا على أنفسهم، و قد استجاروا بالمملوک، و المملوک يستجير بظلّ الدولة المظفّريّة، و المأمول ألّا يخيّب سؤاله و لا يكسر قلبه، و لا يردّه فيما قصده. و فى هذه الأيام يجهّز المملوک

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٥٧

تقدمة مع المماليک الذين طلبهم مولانا السلطان، و أنا ما لى حاجة بالمماليک فى هذا المكان، و إن رسم مولانا ما لک الرّقّ أن يسيّر نائبا له ينزل المملوک بمصر و يلتجئ بالدولة المظفريّة و يحلق رأسه و يقعد فى تربة الملک المنصور.

و المملوک قد وطّن نفسه على مثل هذا؛ و قد قال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم اللّه وجهه: «ما أقرب الراحة من التعب و البؤس من النّعم و الموت من الحياة». و قال بعضهم: إيّاک و ما يسخط سلطانک، و يوحش إخوانک؛ فمن أسخط سلطانه فقد تعرّض للمنيّة، و من أوحش إخوانه فقد تبرّأ عن الحرية.

و المملوک يسأل كريم العفو و الصفح الجميل! و اللّه تعالى قال فى كتابه الكريم و هو أصدق القائلين: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

و المملوک ينتظر الأمان و الجواب. أنهى المملوک ذلک».

فلمّا قرأ الملک المظفّر الكتاب خفّ ما كان عنده، و كان سلّار حاضرا فقال له سلّار: ما قلت لک إنّ الملک الناصر ما بقيت له قدرة على المعاندة! و قد أصبح ملک الشام و مصر طوع يدک، و لكن عندى رأى: و هو أن تسيّر إلى الأفرم بأن يجعل بآله من الأمراء، فإنّهم ربّما يهربون إلى بلاد التّتار فاستصوب المظفّر ذلک، و كتب إلى الأفرم فى الحال بالغرض، فلمّا وصل الكتاب إلى الأفرم اجتهد فى ذلک غاية الاجتهاد.

و أخذ الملک الناصر فى تدبير أمره، و بينما المظفّر فى ذلک ورد عليه الخبر من الأفرم بخروج الملک الناصر من الكرک، فقلق المظفّر من ذلک و زاد توهّمه و نفرت قلوب جماعة من الأمراء و المماليک منه و خشوا على أنفسهم و اجتمع كثير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٥٨

من المنصوريّة و الأشرفية و الأويراتيّة و تواعدوا على الحرب، و خرج منهم مائة و عشرون فارسا بالسلاح، و ساروا على حميّة إلى الملک الناصر، فخرج فى أثرهم الأمير بينجار و الصارم الجرمكىّ بمن معهم، و قاتلوا المماليک و جرح الجرمكىّ بسيف فى خدّه سقط منه إلى الأرض، و مضى المماليک إلى الكرک و لم يستجرئ أحد أن يتعرّض إليهم؛ فعظم بذلک الخطب على الملک المظفّر، و اجتمع عنده البرجيّة و قالوا: هذا الفساد كلّه من الأمير سلّار، و متى لم تقبض عليه خرج الأمر من يدک، فلم يوافق على ذلک و جبن من القبض على سلّار لشوكته و لاضطراب دولته، ثم طلب الملک المظفّر الأمير سلّار و غيره من الأمراء و استشارهم فى أمر الملک الناصر، فاتّفق الرأى على خروج تجريدة لقتال الملک الناصر.

و أمّا الملک الناصر فإنّه أرسل الأمير أيتمش المحمّدىّ الناصرىّ إلى الأمير قبجق نائب حماة، فأحال الأمير قبجق الأمر على الأمير قرا سنقر نائب حلب، فاجتمع أيتمش بقرا سنقر فأكرمه و وافق على القيام مع الملک الناصر، و دخل فى طاعته و أعلن بذلک، و هو أكبر المماليک المنصوريّة، و واعد الملک الناصر على المسير إلى دمشق فى أوّل شعبان. ثم كتب قرا سنقر إلى الأفرم نائب الشام يحثّه على طاعة الملک الناصر و يرغّبه فى ذلک و يحذّره مخالفته؛ و أشار قراسنقر على الملک الناصر أنه يكاتب الأمير بكتمر الجوكندار نائب صفد، و الأمير كراى المنصورىّ نائب القدس. ثم عاد أيتمش إلى أستاذه الملک الناصر و أخبره بكلّ ما وقع، فسرّ الملک الناصر بذلک هو و كلّ من عنده

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٥٩

غاية السرور، و تحقّق كلّ أحد من حواشى الملک الناصر بإتمام أمره. و كان نوغيه منذ قدم على الملک الناصر بالكرک لا يبرح يحرّضه على المسير إلى دمشق حتّى إنّه ثقل على الملک الناصر من مخاشنته فى المخاطبة بسبب توجّهه إلى دمشق، و غضب منه و

قال له: ليس لى بك حاجة، ارجع حيث جئت، فترك نوغاى الخدمة و انقطع و حقد له الملك الناصر ذلك حتّى قتله بعد عوده إلى الملك بمدّة حسب ما يأتى ذكره من كثرة ما وبّخه نوغيه المذكور، و أسمعه من الكلام الخشن.

و لمّا قدم أيتمش بالأجوبة على الملك الناصر قوى عزم الملك الناصر على الحركة؛ ثم إنّ الملك الناصر أيضا أرسل مملوكه أيتمش المحمدى المذكور إلى الأمير بكتمر الجوكندار نائب صفد حسب ما أشار به قرا سنقر، فسار أيتمش إليه و اجتمع بالأمير محمد بن بكتمر الجوكندار، فجمع محمد المذكور بين أيتمش و بين أبيه ليلا- فى مقابر صفد، فعتبه أيتمش على ردّه أوّلا- قاصد السلطان الملك الناصر فاعتذر له بكتمر بالخوف من بيبرس و سلّار كما كان وقع له مع الناصر أوّلا بالديار المصريّة حين اتّفقا على قبض بيبرس و سلّار و لم يتمّ لهم ذلك، و أخرج بكتمر بسبب ذلك من الديار المصريّة، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه. انتهى. ثم قال له بكتمر: و لو لا- ثقتى بك ما اجتمعت عليك، فلمّا عرّفه أيتمش طاعة الأمير قراسنقر و الأمير قبجق و الأمير أسندمر أجاب بالسمع و الطاعة، و أنّه على ميعاد النوّاب إلى المضى إلى الشام، و عاد أيتمش إلى الملك الناصر بجواب بكتمر فسرّ به غاية السرور.

و أمّا السلطان الملك المظفّر بيبرس هذا فإنّه أخذ فى تجهيز العساكر إلى قتال الملك الناصر محمد حتّى تمّ أمرهم و خرجوا من الديار المصريّة فى يوم السبت تاسع شهر رجب و عليهم خمسة أمراء من مقدّمى الألوف، و هم: الأمير برلغى الأشرفىّ، و الأمير جمال الدين آقوش الأشرفى نائب الكرك كان، و الأمير عزّ الدين أيبك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۰

البغدادىّ، و الأمير سيف الدين طغريل الإيغانىّ، و الأمير سيف الدين الدكز السلاح دار، و معهم نحو ثلاثين أميرا من أمراء الطبلخاناه بعد ما أنفق فيهم الملك المظفّر، فأعطى برلغى عشرة آلاف دينار، و أعطى لكل مقدّم ألفى دينار، و لكلّ من الطبلخاناه ألف دينار، و لكلّ واحد من مقدّمى الحلقة ألف درهم، و لكل واحد من أجناد الحلقة خمسمائة درهم، و نزلوا بمسجد التّبن خارج القاهرة و لم يتقدّموا، ثم عادوا بعد أربعة أيّام إلى القاهرة. و كان الباعث على عودهم أن كتب آقوش الأفرم نائب الشام وردت على الملك المظفّر: تتضمّن وصول الملك الناصر إلى البرج الأبيض، ثم عاد إلى الكرك فاطمأنّ الملك المظفر و أرسل إلى برلغى و من معه من المجرّدين بالعود فعادوا بعد أربعة أيام. فلم يكن إلا أيّام و ورد الخبر ثانيا بمسير الملك الناصر محمد من الكرك إلى نحو دمشق، فتجهّز العسكر المذكور فى أربعة آلاف فارس و خرجوا من القاهرة فى العشرين من شعبان إلى العبّاسة. فورد البريد من دمشق بقد أيتمش المحمّدى من قبل الملك الناصر بمشافهة إلى الأفرم ذكرها للمظفّر. ثم إنّ الأفرم بعد قدوم أيتمش بعث الأمير علاء الدين أيدغدى شقير الحسامىّ، و الأمير جوبان لكشف خبر الملك الناصر، و أنهما توجّها من الشام إلى جهة الكرك، فوجدا الملك الناصر يتصيّد و أنّه عوّق أيتمش عنده، فسرّ المظفّر بذلك، و كان الأمر بخلاف ذلك، و هو أن أمرهما: أنّه لمّا سيّرهما الأفرم لكشف خبر الملك الناصر قدما على الملك الناصر، و دخلا تحت طاعته، و عرّفاه أنهما جاءا لكشف خبره و حلفا له على القيام بنصرته سرّا، و عادا إلى الأفرم بالجواب المذكور. و كان الناصر هو الذى أمرهما بهذا القول، فظنّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۱

الأفرم أنّ أخبارهما على الصدق، فكتب به إلى المظفّر. ثم إنّ الأفرم خاف أن يطرق الملك الناصر دمشق على غفلة فجرّد إليه ثمانية أمراء من أمراء دمشق، و هم:

الأمير سيف الدين قطلوبك المنصورىّ، و الأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبىّ الحاجب، و الأمير جوبان، و الأمير كجكن، و الأمير علم الدين سنجر الجاولى و غيرهم ليقيموا على الطّرقات لحفظها على من يخرج من الشام و غيره إلى الملك الناصر. و كتب إلى الملك المظفّر يستحثّه على إخراج عساكر مصر لتجتمع عنده مع عساكر دمشق على قتال الملك الناصر، و أنّه قد جدّد اليمين للمظفّر و حلّف أمراء دمشق ألّا يخونوه و لا ينصروا الملك الناصر. فلمّا قرأ المظفّر كتاب الأفرم اضطرب و زاد قلقه.

ثم ورد عليه كتاب الأمير برلغى من العبّاسة بأنّ مماليك الأمير آقوش الرومىّ تجمّعوا عليه و قتلوه و ساروا و معهم خزائنه إلى الملك

الناصر، و أنّه لحق بهم بعض أمراء الطبلخاناه فى جماعة من مماليك الأمراء و قد فسد الحال، و الرأى أن يخرج السلطان بنفسه.

فلمّا سمع الملك المظفّر ذلك أخرج تجريدة أخرى فيها عدّة أمراء أكابر، و هم:

الأمير بجاس و بكتوت و كثير من البرجيّة، ثم بعث إلى برلغى بألفى دينار و وعده بأنه عازم على التوجّه إليه بنفسه.

فلمّا ورد كتاب الملك المظفر بذلك و بقدوم التجريدة إليه عزم على الرحيل إلى جهة الكرك، فلمّا كان الليل رحل كثير ممّن كان معه يريدون الملك الناصر، فثنى عزمه عن الرحيل ثانيا، و كتب إلى المظفّر يقول: بأنّ نصف العسكر سار إلى الملك الناصر و خرج عن طاعة الملك المظفّر، ثم حرّض الملك المظفّر على الخروج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۲

بنفسه. و قبل أن يطلع الفجر من اليوم المذكور وصل إلى القاهرة الأمير بهادر جك بكتاب الأمير برلغى المذكور و طلع إلى السلطان، فلمّا قضى الملك المظفّر صلاة الصبح تقدّم إليه بهادرجك و عرّفه بوصول أكثر العسكر إلى الملك الناصر و ناوله الكتاب، فلمّا قرأه بيبرس تبسّم و قال: سلّم على الأمير برلغى، و قل له لا تخش من شىء، فإنّ الخليفة أمير المؤمنين قد عقد لنا بيعة ثانية و جدّد لنا عهدا، و قد قرئ على المنابر، و جدّدنا اليمين على الأمراء، و ما بقى أحد يجسر أن يخالف ما كتب به أمير المؤمنين! ثم دفع إليه العهد الخليفتى و قال: امض به إليه حتى يقرأه على الأمراء و الجند ثم يرسله إلىّ، فإذا فرغ من قراءته يرحل بالعساكر إلى الشام و جهّز له بألفى دينار أخرى، و كتب جوابه بنظير المشافهة، فعاد بهادر جك إلى برلغى.

فلمّا قرأ عليه الكتاب و انتهى إلى قوله: و أنّ أمير المؤمنين ولّانى تولية جديدة و كتب لى عهدا و جدد لى بيعة ثانية، و فتح العهد فإذا أوّله: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فقال برلغى: و لسليمان الريح! ثم التفت إلى بهادر جك و قال له، قل له: يا بارد الذقن، و اللّه ما بقى أحد يلتفت إلى الخليفة، ثم قام و هو مغضب. و كان سبب تجديد العهد للملك المظفّر هذا أنّ الأفرم نائب الشام لمّا ورد كتابه على المظفّر أنه حلّف الأمراء بدمشق ثانيا، و بعث بالشيخ صدر الدين محمد ابن عمر [ابن مكّى بن عبد الصمد الشهير بابن] المرحّل إلى الملك المظفّر فى الرسليّة، صار صدر الدين يجتمع به هو و ابن عدلان و صار الملك المظفّر يشغل وقته بهما، فأشارا عليه بتجديد العهد و البيعة و تحليف الأمراء، و أنّ ذلك يثبت به قواعد ملكه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۳

ففعل الملك المظفّر ذلك، و حلف الأمراء بحضور الخليفة، و كتب له عهدا جديدا عن الخليفة أبى الربيع سليمان العباسىّ. و نسخة العهد:

«إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ من عبد اللّه و خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أبى الربيع سليمان بن أحمد العبّاسىّ لأمراء المسلمين و جيوشها، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ و إنّى رضيت لكم بعبد اللّه تعالى الملك المظفّر ركن الدين نائبا عنى لملك الديار المصرية و البلاد الشاميّة، و أقمته مقام نفسى لدينه و كفاءته و أهليّته و رضيته للمؤمنين، و عزلت من كان قبله بعد علمى بنزوله عن الملك، و رأيت ذلك متعيّنا علىّ، و حكمت بذلك الحكّام الأربعة؛ و اعلموا، رحمكم اللّه، أنّ الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالف عن سالف و لا كابر عن كابر؛ و قد استخرت اللّه تعالى و ولّيت عليكم الملك المظفّر، فمن أطاعه فقد أطاعنى، و من عصاه فقد عصانى، و من عصانى فقد عصى أبا القاسم ابن عمّى صلّى اللّه عليه و سلّم. و بلغنى أنّ الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شقّ العصاة على المسلمين و فرّق كلمتهم و شتّت شملهم و أطمع عدوّهم فيهم، و عرّض البلاد الشاميّة و المصريّة إلى سبى الحريم و الأولاد و سفك الدماء، فتلك دماء قد صانها اللّه تعالى من ذلك. و أنا خارج إليه و محاربه إن استمرّ على ذلك، و أدافع عن حريم المسلمين و أنفسهم و أولادهم لهذا الأمر العظيم، و أقاتله حتّى يفىء إلى أمر اللّه تعالى، و قد أوجبت عليكم يا معاشر المسلمين كافّة الخروج تحت لوائى اللّواء الشريف، فقد أجمعت الحكّام على وجوب دفعه و قتاله إن استمرّ على ذلك، و أنا مستصحب معى الملك المظفّر فجهّزوا أرواحكم و السلام».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۴

و قرئ هذا العهد على منابر الجوامع بالقاهرة، فلمّا بلغ القارئ إلى ذكر الملك الناصر صاحت العوامّ: نصره اللّه نصره اللّه! و كررت ذلك. و قرأ، فلمّا وصل إلى ذكر الملك المظفّر صاحوا: لا، ما نريده! و وقع فى القاهرة ضجّة و حركة بسبب ذلك.

انتهى.

ثم قدم على الملك المظفّر من الشام على البريد الأمير بهادر آص يحثّ الملك المظفر على الخروج إلى الشام بنفسه، فإن النوّاب قد مالوا كلّهم إلى الملك الناصر، فأجاب أن لا يخرج، و احتجّ بكراهيته للفتنة و سفك الدماء، و أنّ الخليفة قد كتب بولايته و عزل الملك الناصر فإن قبلوا و إلّا ترك الملك. ثم قدم أيضا الأمير بلاط بكتاب الأمير برلغى، و فيه أن جميع من خرج معه من أمراء الطبلخاناه لحقوا بالملك الناصر و تبعهم خلق كثير، و لم يتأخر غير برلغى و آقوش نائب الكرك و أيبك البغدادىّ، و ألدكز و الفتّاح، و ذلك لأنّهم خواصّ الملك المظفّر.

و أمّا الملك الناصر فإنّه سار من الكرك بمن معه فى أوّل شعبان يريد دمشق بعد أمور وقعت له؛ نذكرها فى أوائل ترجمته الثالثة. فلمّا سار دخل فى طاعته الأمير قطلوبك المنصورىّ و الحاج بهادر و بكتمر الحسامىّ حاجب حجّاب دمشق و علم الدين سنجر الجاولى. و صار الملك الناصر يتأنّى فى مسيره من غير سرعة حتّى يتبيّن ما عند أمراء دمشق الذين أخرجهم الأفرم لحفظ الطرقات قبل ذلك، فكتبوا أمراء دمشق المذكورون إلى الأفرم أنّه لا سبيل لهم إلى محاربة الملك الناصر، و أرادوا بذلك إمّا أن يخرج بنفسه فيقبضوه أو يسير عن دمشق إلى جهة أخرى فيأتيهم بقيّة الجيش و كان كذلك. فإنّه لما قدم كتابهم عليه بدمشق شارع بين الناس مجيء الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۵

الناصر من الكرك فثارت العوامّ و صاحوا. نصر اللّه الملك الناصر! و تسلّل عسكره من دمشق طائفة بعد طائفة إلى الملك الناصر، و انفرط الأمر من الأفرم و اتّفق الأمير بيبرس العلائى و الأمير بيبرس المجنون بمن معهما على الوثوب على الأفرم و القبض عليه، فلم يثبت عند ما بلغه ذلك، و استدعى علاء الدين [علىّ] بن صبيح، و كان من خواصّه و خرج ليلا و توجّه إلى جهة الشّقيف، فركب قطلو بك و الحاجّ بهادر عند ما سمعا خبر الأفرم، و توجّها إلى الملك الناصر، و كانا كاتباه بالدخول فى طاعته قبل ذلك، فسّر بهما و أنعم على كل واحد منهما بعشرة آلاف درهم؛ و قدم على الناصر أيضا الجاولى و جوبان و سائر من كان معهم، فسار بهم الملك الناصر حتى نزل الكسوة، و خرج إليه بقيّة الأمراء و الأجناد. و قد عمل له سائر شعار السلطنة من السناجق الخليفتيّة و السلطانيّة و العصائب و الجتر و الغاشية، و حلف العساكر و سار يوم الثلاثاء ثانى عشر شعبان يريد مدينة دمشق، فدخلها من غير مدافع بعد ما زيّنت له زينة عظيمة، و خرج جميع الناس إلى لقائه على اختلاف طبقاتهم حتى صغار الكتّاب، و بلغ كراء البيت من البيوت التى بميدان الحصى إلى قلعة دمشق للتفرّج على السلطان من خمسمائة درهم إلى مائة درهم، و فرشت الأرض بشقاق الحرير الملوّنة، و حمل الأمير قطلوبك المنصورىّ الغاشية، و حمل الأمير الحاج بهادر الجتر، و ترجّل الأمراء و العساكر بأجمعهم و مشوا بين يديه حتّى نزل بالقصر [الأبلق]؛ و فى وقت نزوله قدم مملوك الأمير قرا سنقر نائب حلب لكشف الخبر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۶

و أنّ قراسنقر خرج من حلب و قبجق خرج من حماة فخلع عليه و كتب لهما بسرعة الحضور إليه. ثم كتب إلى الأفرم أمانا و توجّه به علم الدين سنجر الجاولى، فلم يثق بذلك لما كان وقع منه فى حقّ الناصر لمّا قدم عليه تنكز، و طلب يمين السلطان فحلف السلطان له و بعث إليه نسخة الحلف. و كان قبل ذلك بعث الملك الناصر خازنداره و تنكز مملوكه إلى الأفرم هذا صحبة عثمان الركاب يستدعيه إلى طاعته بكلّ ما يمكن، ثم أمره الملك الناصر إن لم يطع يخشّن له فى القول، و كذلك كتب فى المطالعة التى على يد تنكز: أوّلها وعد و آخرها وعيد، فلمّا قرأ الأفرم الكتاب المذكور اسودّ وجهه من الغضب، ثم التفت إلى تنكز و قال: أنت و أمثالك

الذين حمّقوا هذا الصبىّ حتى كتب لى هذا الكتاب، ويلك! من هو الذى وافقه من أمراء دمشق على ذلك! و كان الناصر قد كتب له فى جملة الكلام أنّ غالب أمراء البلاد الشاميّة أطاعونى، و كان الأفرم لما حضر إليه تنكز قبل أن يقرأ الكتاب جمع أمراء دمشق ثم قرا الكتاب، فلمّا وصل إلى ذلك، قال الأفرم، قل لى: من هو الذى أطاعه حتى أقبض عليه و أرسله إلى مصر؟ فنظر أمراء دمشق بعضهم إلى بعض و أمعن الأفرم فى الكلام؛ فقام الأمير بيبرس المجنون و قال: ما هذا الكلام مصلحة، تجاوب ابن استاذك بهذا الجواب! و لكن لاطفه و قل له: أنت تعلم أنّنا متّبعون مصر و ما يبرز منها، فإن أردت الملك فاطلبه من مصر، و لا تبتلش بنا و ارجع عنّا، و ذكر له أشياء من هذا النّمط؛ فقال الأفرم: أنا ما أقول هذا الكلام، و ليس له عندى إلّا السيف إن جاءنا! ثم طلب الأفرم تنكز فى خلوة و قال له: سر إلى أستاذك و قل له: يرجع، و إلّا يسمع الملك المظفّر فيمسكك و يحبسك، فتبقى تمنّى أن تشبع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٦٧

الخبز! و لا ينفعك حينئذ أحد، فإن كان لك رأى فاقبض على نوغيه و من معه و سيّرهم للملك المظفّر، فإن فعلت ذلك يصلح حالك، و لا تفعل غير هذا تهلك. و كتب له كتابا بمعنى هذا و دفعه إلى تنكز، فلم يخرج تنكز من دمشق إلى أثناء الطريق حتى خرج فى أثره جماعة من أمراء دمشق إلى طاعة الناصر. و كان كلام الأفرم لتنكز أكبر الأسباب لخروج الملك الناصر من الكرك إلى دمشق، فلما قدم الناصر دمشق و كتب الأمان للافرم فتخوف الأفرم مما كان وقع منه من القول لمّا قدم عليه تنكز و طلب الحلف. انتهى.

و قال بيبرس فى تاريخه: و أرسل السلطان إلى الأفرم رسلا بالأمان و الأيمان، و هما الأميران عزّ الدين أيدمر الزّردكاش و الأمير سيف الدين جوبان. و قال غيره: بعث إليه السلطان نسخة الحلف مع الأمير الحاج أرقطاى الجمدار، فما زال به حتى قدم معه هو و ابن صبيح، فركب السلطان إلى لقائه حتى قرب منه نزل كلّ منهما عن فرسه، فاعظم الأفرم نزول السلطان له و قبل الأرض، و كان الأفرم قد لبس كامليّة و شدّ وسطه و توشّح بنصفيه (يعنى أنه حضر بهيئة البطالين من الأمراء) و كفنه تحت إبطه، و عند ما شاهدته الناس على هذه الحالة صرخوا بصوت واحد: يا مولانا السلطان، بتربة والدك الملك الشهيد قلاوون لا تؤذه و لا تغيّر عليه! فبكى سائر من حضر، و بالغ السلطان فى إكرامه و خلع عليه و أركبه و أقرّه على نيابة دمشق، فكثر الدعاء له و سار إلى القصر. فلما كان من الغد أحضر الأفرم خيلا و جمالا و ثيابا بمائتى ألف درهم تقدمة إلى السلطان الملك الناصر. و فى يوم الجمعة ثانى عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٦٨

شعبان خطب للملك الناصر بدمشق و انقطع منها اسم المظفّر، و صليت الجمعة بالميدان فكان يوما مشهودا؛ و فى ذلك اليوم قدم الأمير قراسنقر نائب حلب، و الأمير قبجق نائب حماة، و الأمير أسندمر كرجى نائب طرابلس، و تمر السّاقى نائب حمص، فركب السلطان إلى لقائهم و ترجّل إلى قراسنقر و عانقه و شكر الأمراء و أثنى عليهم؛ ثم قدم الأمير كراى المنصورىّ نائب القدس و الأمير بكتمر الجو كندار نائب صفد، ثم قدّم كلّ من الأمراء و النوّاب تقدمته بقدر حاله ما بين ثياب أطلس و حوائص ذهب و كلفتاة زركش و خيول مسرجة، فى عنق كل فرس كيس فيه ألف دينار و عليه مملوك، و عدّة بغال و جمال بخاتىّ و غير ذلك. و شرع الملك الناصر فى النفقة على الأمراء و العساكر الواردة عليه مع النوّاب. فلما انتهت النفقة قدم بين يديه الأمير كراى المنصورىّ على عسكره إلى غزّة فسار إليها، و صار كراى يمدّ فى كلّ يوم سماطا عظيما للمقيمين و الواردين عليه، فأنفق فى ذلك أموالا جزيلة من حاصله، و اجتمع عليه بغزّة عالم كثير و هو يقوم بكلفهم و يعدهم عن السلطان بما يرضيهم.

و أما الملك المظفّر فإنه قدم عليه الخبر فى خامس عشرين شعبان باستيلاء الملك الناصر على دمشق بغير قتال، فعظم ذلك على الملك المظفّر و أظهر الذلّة، و خرجت عساكر مصر شيئا بعد شىء تريد الملك الناصر حتى لم يبق عنده بالديار المصرية سوى خواصّه من الأمراء و الأجناد.

و أمّا الأمير برلغى و من معه من الأمراء صار عساكرهم تتسلّل واحدا بعد واحد حتى بقى برلغى فى مماليكه و جماعة من خواصّ

الملک المظفّر بیبرس، فتشاور برلغی مع جماعته حتی اقتضی رأیه و رأی آقوش نائب الکرک اللّحاق بالملک الناصر أیضا،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۹

فلم یوافق علی ذلک البرجیة، و عاد أیبک البغدادیّ و بکتوت الفتّاح و قجقار ببقیة البرجیة إلی القاهرة، و صاروا مع الملک المظفّر بیبرس، و سار برلغی و آقوش إلی الملک الناصر فیمن بقی من الأمراء و العساکر، فاضطربت القاهرة لذلک.

و کان الملک المظفّر قد أمّر فی مستهلّ شهر رمضان سبعة و عشرین أمیرا ما بین طبلخاناه و عشرات، منهم من ممالیکه: صدیق و صنقیجی و طوغان و قرمان و إغزلو و بهادر؛ و من الممالیک السلطانیة سبعة و هم: قراجا الحسامیّ و طرنطای المحمّدی و بکتمر الساقی و بهادر قبجاق و انکبار و طشتمر أخو بتخاص و لاچین؛ و ممن عداهم جرکتمر بن بهادر و حسن بن الردادی، و نزلوا الجمیع إلی المدرسة المنصوریة لیلبسوا الخلع علی جاری العادة، و اجتمع لهم النقباء و الحجّاب و العامّة بالأسواق ینتظرون طلوعهم القلعة، و کلّ منهم بقی لابس الخلعة، فاتّفق أن شخصا من المنجّمین کان بین یدی النائب سلّار، فرأی الطالع غیر موافق، فقال: هذا الوقت رکوبهم غیر لائق، فلم یلتفت بعضهم و لبس و رکب فی طلبه، فاستبردوهم العوامّ و قالوا:

لیس له حلاوة، و لا علیه طلاوة؛ و صار بعضهم یصیح و یقول: یا فرحة لا تمّت.

ثم أخرج الملک المظفّر عدّة من الممالیک السلطانیة إلی بلاد الصعید و أخذ أخبازهم، و ظنّ الملک المظفّر أنه ینشئ له دولة، فلما بلغه مسیر برلغی و آقوش نائب الکرک إلی الملک الناصر سقط فی یده و علم زوال ملکه، فإن برلغی کان زوج ابنته و أحد خواصّه و أعیان دولته، بحیث إنّه أنعم علیه فی هذه الحرکة بنیّف و أربعین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۰

ألف دینار مصریّة، و قیل: سبعین ألف دینار. و ظهر علیه اختلال الحال، و أخذ خواصّه فی تعنیفه علی إبقاء سلّار النائب و أنّ جمیع هذا الفساد منه، و کان کذلک.

فإنّه لما فاتته السلطنة و قام بیبرس فیها حسده علی ذلک و دبّر علیه، و بیبرس فی غفلة عنه، فإنّه کان سلیم الباطن لا یظنّ أنّ سلّار یخونه. ثم قبض الملک المظفّر لیلة الجمعة علی جماعة من العوامّ، و ضربوا و شهّروا لإعلانهم بسبّ الملک المظفّر بیبرس؛ فما زادهم ذلک إلّا طغیانا! و فی کلّ ذلک تنسب البرجیة فساد الأمور لسلّار، فلمّا أکثر البرجیة الإغراء بسلّار قال لهم الملک المظفّر: إن کان فی خاطرکم شیء فدونکم و إیاه إذا جاء سلّار للخدمة؛ و أما أنا فلا أتعرّض له بسوء قطّ، فاجتمعت البرجیّة علی قبض سلار إذا حضر الخدمة فی یوم الاثنین خامس عشره، فبلغ سلّار ذلک، فتأخّر عن حضور الخدمة و احترس علی نفسه، و أظهر أنّه قد توعّک، فبعث الملک المظفّر یسلّم علیه و یستدعیه لیأخذ رأیه، فاعتذر بأنه لا یطیق الحرکة لعجزه عنها.

فلمّا کان یوم الثلاثاء سادس عشر رمضان استدعی الملک المظفّر الأمراء کلّهم و استشارهم فیما یفعل، فأشار الأمیر بیبرس الدّوادار المؤرّخ و الأمیر بهادر آص بنزوله عن الملک و الإشهاد علیه بذلک کما فعله الملک الناصر، و تسیّر إلی الملک الناصر بذلک و تستعطفه و تخرج إلی إطفیح بمن تثق به و تقیم هناک حتی یرد جواب الملک الناصر علیک، فأعجبه ذلک و قام لیجهّز أمره، و بعث بالأمیر رکن الدین بیبرس الدّوادار المذکور إلی الملک الناصر محمد یعرّفه بما وقع. و قیل: إنّه کتب إلی الملک الناصر یقول مع غیر بیبرس الدوادار: و الذی أعرّفک به أنّی قد رجعت أقلّدک بغیک، فإن حبستنی عددت ذلک خلوة، و إن نفیتنی عددت ذلک سیاحة، و إن قتلتنی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۱

کان ذلک لی شهادة؛ فلمّا سمع الملک الناصر ذلک، عیّن له صهیون علی ما نذکره.

و أمّا ما کتبه المظفّر علی ید بیبرس الدوادار یسأله فی إحدی ثلاث: إمّا الکرک و أعمالها، أو حماة و بلادها، أو صهیون و مضافاتها.

ثم اضطربت أحوال المظفّر و تحیّر و قام و دخل الخزائن و أخذ من المال و الخیل ما أحبّ، و خرج من یومه من باب الإسطبل فی

مماليكه و عدّتهم سبعمائة مملوك، و معه من الأمراء: الأمير عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ الأستادار، و الأمير بكتوت الفتّاح و الأمير سيف الدين قجماس و الأمير سيف الدين تاكز فى بقية ألزامه من البرجيّة، فكأنّما نودى فى الناس بأنّه خرج هاربا، فاجتمع العوامّ، و عند ما برز من باب الإسطبل صاحوا به و تبعوه و هم يصيحون عليه بأنواع الكلام، و زادوا فى الصياح حتّى خرجوا عن الحدّ، و رماه بعضهم بالحجارة. فشقّ ذلك على مماليكه و همّوا بالرجوع إليهم و وضع السيف فيهم فمنعهم الملك المظفّر من ذلك، و أمر بنثر المال عليهم ليشتغلوا بجمعه عنه، فأحرج كلّ من المماليك حفنة من الذهب و نثرها، فلم يلتفت العامّة لذلك و تركوه و أخذوا فى العدو خلفه و هم يسبّون و يصيحون، فشهر المماليك حينئذ سيوفهم و رجعوا إلى العوامّ فانهزموا منهم. و أصبح الحرّاس بقلعة الجبل فى يوم الأربعاء سابع عشر شهر رمضان يصيحون باسم الملك الناصر، و أسقط اسم الملك المظفّر بإشارة الأمير سلّار بذلك، فإنّه أقام بالقلعة و مهّد أمورها بعد خروج المظفّر إلى إطفيح. و فى يوم الجمعة تاسع عشره خطب على منابر القاهرة و مصر باسم الملك الناصر، و أسقط اسم الملك المظفّر بيبرس هذا و زال ملكه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۲

و أمّا الملك المظفّر فإنّه لما فارق القلعة أقام بإطفيح يومين ثم اتّفق رأيه و رأى أيدمر الخطيرى و بكتوت الفتّاح إلى المسير إلى برقة و قيل بل إلى أسوان، فأصبح حاله كقول القائل:

موكّل ببقاع الأرض يذرعها من خفّة الرّوع لا من خفّة الطّرب

و لمّا بلغ مماليك الملك المظفّر هذا الرأى عزموا على مفارقته. فلمّا رحل من إطفيح رجع المماليك عنه شيئا بعد شيء إلى القاهرة، فما وصل المظفّر إلى إخميم حتّى فارقه أكثر من كان معه، فعند ذلك انثنى عزمه عن التوجّه إلى برقة، و تركه الخطيرىّ و الفتّاح و عادا نحو القاهرة. و بينما هو سائر قدم عليه الأميران: بيبرس الدّوادار و بهادر آص من عند الملك الناصر ليتوجّه إلى صهيون بعد أن يدفع ما أخذه من الخزائن، فدفع المظفّر المال بأجمعه إلى بيبرس الدّوادار، فأخذ بيبرس المال و سار به فى النيل إلى الملك الناصر و هو بقلعة الجبل، و قدم بهادر آص فى البرّ بالملك المظفّر و معه كاتبه كريم الدين أكرم، و سأل المظفّر فى يمين السلطان مع من يثق به، فحلف له الملك الناصر بحضرة الأمراء و بعث إليه بذلك مع أيتمش المحمّدى؛ فلمّا قدم عليه أيتمش بالغ المظفّر فى إكرامه و كتب الجواب بالطاعة و أنّه يتوجّه إلى ناحية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۳

السّويس، و أنّ كريم الدين يحضر بالخزانة و الحواصل التى أخذها، فلم يعجب السلطان ذلك، و عزم على إخراج تجريدة إلى غزّة ليردّوه، و أطلع على ذلك بكتمر الجوكندار النائب و قراسنقر نائب دمشق و الحاج بهادر و أسندمر نائب طرابلس.

فلمّا كان يوم الخميس الذى قبض فيه الملك الناصر على الأمراء- على ما سيأتى ذكره مفصّلا فى أوّل ترجمة الملك الناصر الثالثة إن شاء اللّه تعالى- جلس بعض المماليك الأشرفيّة خارج القلعة، فلمّا خرج الأمراء من الخدمة قال: و أىّ ذنب لهؤلاء الأمراء الذين قبض عليهم! و هذا الذى قتل أستاذنا الملك الأشرف، و دمه الآن على سيفه، قد صار اليوم حاكم المملكة (يعنى عن قراسنقر)، فقيل هذا لقراسنقر، فخاف على نفسه و أخذ فى عمل الخلاص من مصر، فالتزم للسلطان أنّه يتوجّه و يحصّل الملك المظفّر بيبرس هو و الحاج بهادر نائب طرابلس من غير إخراج تجريدة فإن فى بعث الأمراء لذلك شساعة، فمشى ذلك على السلطان و رسم بسفرهما، فخرج قراسنقر و معه سائر النوّاب إلى ممالكهم، و عوّق السلطان عنده أسندمر كرجى و قد استقرّ به فى نيابة حماة، و سار البقية. ثم جهّز السلطان أسندمر كرجى لإحضار المظفّر مقيّدا. و اتّفق دخول قراسنقر و الأمراء إلى غزّة قبل وصول المظفّر إليها؛ فلمّا بلغهم قربه ركب قراسنقر و سائر النوّاب و الأمراء و لقوه شرقىّ غزّة و قد بقى معه عدّة من مماليكه و قد تأهّبوا للحرب، فلبس الأمراء السلاح ليقاتلوهم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۴

فأنكر المظفّر على مماليكه تأهّبهم للقتال و قال: أنا كنت ملكا، و حولى أضعافكم ولى عصبة كبيرة من الأمراء، و ما اخترت سفك

الدماء! و ما زال بهم حتّی کفّوا عن القتال، و ساق هو بنفسه حتّی بقی مع الأمراء و سلّم نفسه إلیهم؛ فسلّموا علیه و ساروا به إلی معسکرهم و أنزلوه بخیمة، و أخذوا سلاح ممالیکه و وکّلوا بهم من یحفظهم؛ و أصبحوا من الغد عائدین بهم معهم إلی مصر، فأدرکهم أسندمر کرجی بالخطّارة فأنزل فی الحال المظفّر عن فرسه و قیّده بقید أحضره معه، فبکی و تحدّرت دموعه علی شیبته، فشقّ ذلک علی قراسنقر و ألقی الکلفتاة عن رأسه إلی الأرض و قال: لعن اللّه الدنیا، فیا لیتنا متنا و لا رأینا هذا الیوم! فترجّلت الأمراء و أخذوا کلفتاته و وضعوها علی رأسه. هذا مع أنّ قراسنقر کان أکبر الأسباب فی زوال دولة المظفّر المذکور! و هو الذی جسّر الملک الناصر حتّی کان من أمره ما کان.

ثم عاد قراسنقر و الحاج بهادر إلی محلّ کفالتهما، و أخذ بهادر یلوم قراسنقر کیف خالف رأیه! فإنّه کان أشار علی قراسنقر فی اللّیل بعد القبض علی المظفّر بأن یخلّی عن المظفّر حتّی یصل إلی صهیون، و یتوجّه کلّ منهما إلی محلّ ولایته، و یخیفا الملک الناصر بأنّه متی تغیّر عمّا کان وافق الأمراء علیه بدمشق قاموا بنصرة المظفّر و إعادته إلی الملک، فلم یوافق قراسنقر، و ظنّ أنّ الملک الناصر لا یستحیل علیه و لا علی المظفّر. فلمّا رأی ما حلّ بالمظفر ندم علی مخالفة بهادر. و بینما هما فی ذلک بعث أسندمر کرجی إلی قراسنقر مرسوم السلطان بأن یحضر صحبة المظفّر إلی القلعة، و کان عزم الناصر أن یقبض علیه: ففطن قراسنقر بذلک و امتنع من التوجّه إلی مصر، و اعتذر بأنّ العشیر قد تجمّعوا و یخاف علی دمشق منهم، و جدّ فی السیر و عرف أنّه ترک الرأی فی مخالفة بهادر! فقدم أسندمر بالمظفّر إلی القلعة فی لیلة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۵

الأربعاء الرابع عشر من ذی القعدة، فلمّا مثل المظفّر بین یدی السلطان قبّل الأرض، فأجلسه و عنّفه بما فعل به و ذکّره بما کان منه إلیه، و عدّد ذنوبه، و قال له: تذکر و قد صحت علیّ یوم کذا بسبب فلان! و رددت شفاعتی فی حقّ فلان! و استدعیت بنفقة فی یوم کذا من الخزانة فمنعتها! و طلبت فی وقت حلوی بلوز و سکّر فمنعتنی، ویلک! و زدت فی أمری حتّی منعتنی شهوة نفسی، و المظفّر ساکت. فلما فرغ کلام السلطان قال له المظفّر: یا مولانا السلطان، کلّ ما قلت فعلته، و لم یبق إلّا مراحم السلطان، و إیش یقول المملوک لأستاذه! فقال له:

یا رکن، أنا الیوم أستاذک! و أمس تقول لما طلبت إوزّا مشویّا: إیش یعمل بالإوزّ! الأکل هو عشرون مرّة فی النهار! ثم أمر به إلی مکان و کان لیلة الخمیس، فاستدعی المظفّر بوضوء و قد صلّی العشاء. ثم جاء السلطان الملک الناصر فخنق بین یدیه بوتر حتی کاد یتلف، تم سیّبه حتی أفاق و عنّفه و زاد فی شتمه، ثم خنقه ثانیا حتی مات و أنزل علی جنویة إلی الإسطبل السلطانیّ فغسل و دفن خلف قلعة الجبل، و ذلک فی لیلة الجمعة خامس عشر ذی القعدة سنة تسع و سبعمائة. و کانت أیام المظفّر هذا فی سلطنة مصر عشرة أشهر و أربعة و عشرین یوما لم یتهنّ فیها من الفتن و الحرکة.

و کان المظفّر لمّا خرج من مصر هاربا قبل دخول الملک الناصر. قال بعض الأدباء:

تثنّی عطف مصر حین وافی قدوم الناصر الملک الخبیر

فذلّ الجشنکیر بلا لقاء و أمسی و هو ذو جأش نکیر

إذا لم تعضد الأقدار شخصا فأوّل ما یراع من النّصیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۶

و قال النّویریّ فی تاریخه: و لمّا وصلوا بالمظفّر بیبرمن إلی السلطان الناصر أوقفه بین یدیه و أمر بدخوله الحمّام، و خنق فی بقیة من یومه و دفن بالقرافة و عفّی أثر قبره مدّة، ثم أمر بانتقاله إلی تربته بالخانقاه التی أنشأها فنقل إلیها. و کان بیبرس هذا ابتدأ بعمارة الخانقاه و التربة داخل باب النصر موضع دار الوزارة فی سنة ست و سبعمائة، و أوقف علیها أوقافا جلیلة، و لکنّه مات قبل تمامها، فأغلقها الملک الناصر مدّة ثم فتحها. انتهی کلام النّویریّ.

و کان الملک المظفّر ملکا ثابتا کثیر السکون و الوقار، جمیل الصفات، ندب إلی المهمّات مرارا عدیدة، و تکلّم فی أمر الدولة مدّة سنین، و حسنت سیرته، و کان یرجع إلی دین و خیر و معروف، تولّی السلطنة علی کره منه، و له أوقاف علی وجوه البرّ و الصدقة، و عمّر ما هدم من الجامع الحاکمی داخل باب النصر، بعد ما شعّثته الزلازل. و کان من أعیان الأمراء فی الدولة المنصوریّة قلاوون أستاذه، ثم فی الدولة الأشرفیة خلیل، و الدولة الناصریة محمد بن قلاوون.

و کان أبیض اللون أشقر مستدیر اللّحیة، و هو جارکسیّ الجنس علی ما قیل.

و لم یتسلطن أحد من الجراکسة قبله و لا بعده إلی الملک الظاهر برقوق؛ و قیل إنه کان ترکیّا، و الأقوی عندی أنه کان جارکسیّا، لأنه کان بینه و بین آقوش الأفرم نائب الشام مودّة و محبّة زائدة، و قیل قرابة، و کان الأفرم جارکسیّ الجنس. انتهی.

و استولی السلطان الملک الناصر علی جمیع تعلّقاته، و استقدم کاتبه کریم الدین أکرم بن المعلّم بن السدید، فقدم علی الملک الناصر بأموال المظفّر بیبرس و حواصله،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۷

فقرّبه السلطان و أثنی علیه و وعده بکلّ جمیل إن أظهره علی ذخائر المظفّر بیبرس.

فنزل کریم الدین إلی داره و تتبع أموال بیبرس و بذل جهده فی ذلک، ثم انتمی کریم الدین إلی طغای و کستای و أرغون الدّوادار الناصریة، و بذل لهم مالا کثیرا حتی صاروا أکبر أعوانه، و حموه من أستاذهم الملک الناصر، ثم قدم من کان مع المظفّر بیبرس من الممالیک و معهم الهجن و الخیل و السلاح، و مبلغ مائتی ألف درهم و عشرین ألف دینار، و ستون بقجة من أنواع الثیاب، فأخذ السلطان جمیع ذلک، و فرّق الممالیک علی الأمراء ما خلا بکتمر الساقی لجمال صورته و طوغان الساقی و قراتمر.

ثم استدعی الملک الناصر القضاة و أقام عندهم البیّنة بأن جمیع ممالیک المظفّر بیبرس و سلّار، و جمیع ما وقفاه من الضّیاع و الأملاک اشتری من بیت المال. فلمّا ثبت ذلک ندب السلطان جمال الدین آقوش الأشرقیّ نائب الکرک، و کریم الدین أکرم لبیع ترکة المظفّر بیبرس و إحضار نصف ما یتحصّل، و دفع النصف الآخر لابنة المظفّر زوجة الأمیر برلغی الأشرفیّ، فإنّ المظفّر لم یترک من الأولاد سواها، فشدّد کریم الدین الطلب علی زوجة المظفّر و ابنته حتی أخذ منهما جواهر عظیمة القدر، و ذخائر نفیسة؛ ثم تابع موجود المظفّر فوجد له شیئا کثیرا.

السنة التی حکم فی أوّلها الملک المظفّر بیبرس الجاشنکیر علی مصر إلی شهر رمضان، ثم حکم فی باقیها الملک الناصر محمد بن قلاوون، و هی سنة تسع و سبعمائة، علی أن الملک المظفّر بیبرس حکم من السنة الماضیة أیاما.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۸

فیها (أعنی سنة تسع و سبعمائة) کانت الفتنة بین السلطان الملک الناصر محمد ابن قلاوون و بین الملک المظفّر بیبرس. حسب ما تقدّم ذکره مفصّلا حتی خلع المظفّر و أعید الناصر.

و فیها کانت الفتنة أیضا بالمدینة النبویة بین الشریف مقبل بن جمّاز بن شیحة و بین [کبیش ابن] أخیه منصور بن جمّاز، و کان مقبل قدم القاهرة فولّاه المظفّر نصف إمرة المدینة شریکا لأخیه منصور، فتوجّه إلیها فوجد منصورا بنجد و قد ترک ابنه کبیشة بالمدینة، فأخرجه مقبل فحشد کبیشة و قاتل مقبلا حتی قتله، و انفرد منصور بإمرة المدینة.

و فیها کتب السلطان الملک الناصر لقرا سنقر نائب الشام بقتال العشیر.

و فیها أظهر خربندا ملک التّتار الرّفض فی بلاده و أمر الخطباء ألّا یذکروا فی خطبهم إلّا علیّ بن أبی طالب و ولدیه و أهل البیت.

و فیها حجّ بالناس من القاهرة الأمیر شمس الدین إلدکز السلاح دار و لم یحجّ أحد من الشام لاضطراب الدولة.

و فیها توفّی الأمیر الوزیر شمس الدین سنقر الأعسر المنصوریّ بالقاهرة فی شهر ربیع الأوّل و دفن خارج باب النصر بعد ما استعفی و لزم داره مدّة.

و فيها توفى قاضى القضاة شرف الدين أبو محمد عبد الغنى بن يحيى [بن محمد بن أبى بكر] بن عبد اللّه بن نصر [بن محمد] بن أبى بكر الحرّانىّ الحنبلىّ فى ليلة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۹

الجمعة الرابع و العشرين من شهر ربيع الأوّل و دفن بالقرافة. و مولده بحرّان فى سنة خمس و أربعين و ستمائة، و سمع الحديث و تفقّه و قدم مصر فباشر نظر الخزانة و تدريس الصالحيّة ثم أضيف إليه قضاء الحنابلة، فباشره و حمدت سيرته.

و فيها توفّى الشيخ نجم الدين محمد بن إدريس بن محمد القمولىّ الشافعىّ بقوص فى جمادى الأولى، و كان صالحا عالما بالتفسير و الفقه و الحديث.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين طغريل بن عبد اللّه الإيغانىّ بالقاهرة فى عاشر شهر رمضان، و كان من كبار الأمراء و أعيان الديار المصريّة.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار فى سابع شهر رمضان بالقاهرة، و كان من أعيان أمراء مصر.

و فيها توفّى متملّك تونس من بلاد الغرب الأمير أبو عبد اللّه محمد المعروف بأبى عصيدة بن يحيى الواثق ابن محمد المستنصر ابن يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص فى عاشر شهر ربيع الآخر. و كانت مدّة ملكه أربع عشرة سنة و أربعة أشهر، و تولّى بعده الأمير أبو بكر بن أبى يزيد عبد الرحمن بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الواحد المدعوّ بالشهيد، لأنّه قتل ظلما بعد ستة عشر يوما من ملكه، و بويع بعده أيضا أبو البقاء خالد بن يحيى بن إبراهيم.

و فيها توفّى الوزير التاج أبو الفرج بن سعيد الدولة فى يوم السبت ثانى شهر رجب، و كان عند الملك المظفّر بيبرس بمكانة عظيمة، و لمّا تسلطن بيبرس قرّره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۰

مشيرا، فكانت تحمل إليه فوطة العلامة فيمضى منها ما يختاره، و يكتب عليه «عرض» فإذا رأى المظفّر خطّه علّم و إلّا فلا، و لم يزل على ذلك حتى بعث إليه الأمير آقوش الأفرم نائب الشام يهدّده بقطع رأسه فامتنع. و كان الأفرم صار يدبّر غالب أمور الديار المصريّة و هو بدمشق، لأنه كان خشداش المظفّر بيبرس و خصيصا به و القائم بدولته، و المعاند للناصر و غيره من نوّاب البلاد الشاميّة، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى ترجمة الملك المظفّر بيبرس.

و فيها توفّى الشيخ القدوة العارف بالله تعالى تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عطاء اللّه السّكندرىّ المالكىّ الصوفى الواعظ المذكّر المسلّك بالقاهرة فى جمادى الآخرة و دفن بالقرافة، و قبره معروف بها، يقصد للزيارة. و كان رجلا صالحا عالما يتكلّم على كرسىّ و يحضر ميعاده خلق كثير، و كان لوعظه تأثير فى القلوب، و كان له معرفة تامّة بكلام أهل الحقائق و أرباب الطريق، و كان له نظم حسن على طريق القوم، و كانت جنازته مشهودة حفلة إلى الغاية. و من شعره قصيدة أوّلها:

يا صاح إنّ الركب قد سار مسرعا و نحن فعود ما الذى أنت صانع

أ ترضى بأن تبقى المخلّف بعدهم صريع الأمانى و الغرام ينازع

و هذا لسان الكون ينطق جهرة بأنّ جميع الكائنات قواطع

و فيها توفّى القاضى عزّ الدين عبد العزيز ابن القاضى شرف الدين محمد [بن فتح الدين عبد اللّه بن محمد بن أحمد بن خالد] بن القيسرانىّ أحد كتّاب الدّرج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۱

و مدرس الفخرية فى ثامن صفر بالقاهرة، و دفن عند والده بالقرافة، و كان من أعيان الموقّعين هو و والده و جدّه، و مات و له دون الأربعين سنة، و كان له فضيلة و نظم و نثر. و من شعره فى ردّ جواب:

جاء الكتاب و من سواد مداده مسك و من قرطاسه الأنوار

فتشرّف الوادى به و تعطّرت أرجاؤه و أنارت الأقطار

قلت و أين هذا من قول البارع جمال الدين محمد بن نباتة المصرىّ، حيث يقول فى هذا المعنى:

أفديه من ملك يكاتب عبده بأحرفه اللّاتى حكتها الكواكب

ملكت بها رقّى و أنحلنى الأسى فهأنذا عبد رقيق مكاتب

و الشيخ علاء الدين علىّ بن محمد [ابن عبد الرحمن] العبىّ رحمه اللّه:

أهلتنى لجواب ما كان ظنّى أجاوب

لكنّنى عبد رقّ مدبّر و مكاتب

و فيها توفّى القاضى بهاء الدين عبد اللّه ابن نجم الدين أحمد بن على ابن المظفّر المعروف بابن الحلّى ناظر ديوان الجيش المنصور، و استقرّ عوضه القاضى فخر الدين صاحب ديوان الجيش.

و فيها توفّى الأديب إبراهيم بن علىّ بن خليل الحرّانى المعروف بعين بصل. كان شيخا حائكا أناف على الثمانين، و كان عامّيا مطبوعا، و قصده ابن خلّكان و استنشده من شعره فقال: أمّا القديم فلا يليق إنشاده، و أمّا نظم الوقت الحاضر فنعم، و أنشده بديها:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۲

و ما كلّ وقت فيه يسمح خاطرى بنظم قريض رائق اللفظ و المعنى

و هل يقتضى الشرع الشريف تيمّما بترب و هذا البحر يا صاحبى معنا

فقال له ابن خلّكان. أنت عين بصر، لا عين بصل. انتهى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم تأخّر و تأخّرت الزيادة إلى أن دخل شهر مسرى و وقع الغلاء و استسقى الناس، فنودى بزيادة ثلاث أصابع، ثم توقّفت الزيادة و نقص فى أيام النّسىء، ثم زاد حتى بلغ فى سابع عشرين توت خمس عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا، و فتح خليج السدّ، بعد ما كان الوفاء فى تاسع عشر بابه، بعد النّوروز بتسعة و أربعين يوما. و كان مبلغ الزيادة فى هذه السنة ستّ عشرة ذراعا و إصبعين. و كان ذلك فى أوائل سلطنة المظفّر بيبرس الجاشنكير. فتشاءم الناس بكعبه و أبغضته العامّة.

انتهى الجزء الثامن من النجوم الزاهرة، و يليه الجزء التاسع، و أوّله:

ذكر عود الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملك مصر ثالث مرّة

تنبيه: التعليقات الخاصة بالأماكن الأثريّة على اختلاف أنواعها، و المدن و القرى القديمة و غيرها مع تعيين و تحديد مواضعها هى من وضع حضرة الأستاذ محمد رمزى بك المفتش بوزارة المالية سابقا و عضو المجلس الأعلى لإدارة حفظ الآثار العربية. كالتعليقات السابقة فى الأجزاء الماضية. فنسدى إليه جزيل الشكر و نسأل اللّه جلّت قدرته أن يجزيه خير الجزاء عن خدمته للعلم و أهله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۳

استدراكات على بعض تعليقات وردت فى الجزء السابع من هذا الكتاب لحضرة الأستاذ محمد رمزى بك

زاوية الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر

بما أن الشرح الخاصّ بوصف هذه الزاوية الوارد فى صفحة ۳۸۴ من الجزء السابع من هذه الطبعة جاء غير واف فأضيف إليه ما يأتى:

ذكرت فى التعليق السابق لهذه الزاوية أنها اندثرت، و الصواب أنها خربت لأنه لا يزال يوجد من مبانيها بقايا بابها و الحائط الشمالى الشرقى و الحائط الذى فيه المحراب. و مكانها اليوم أرض مشغولة بالمقابر. و علاوة على ما سبق ذكره فى التعليق السابق فإن هذه

الزاویـة واقعة فی الشـمال الغربی لجامع السادات الوفائیة علی بعد مائتی متر منه و یجاورها قاعة بها ضـریح الشـیخ أبی السـعود بن أبی العشائر رحمه اللّه.

الحد الذی کان ینتهی عنده النیل علی شاطئه الشرقی تجاه مدینتی مصر القدیمة و القاهرة وقت فتح العرب لمصر

بیّنت فی الاسـتدراک الخـاصّ بقنطرة عبـد العزیز بن مروان الوارد فی صـفحة ۳۸۷ من الجزء السـابع من هـذه الطبعـة موقع فم الخلیج المصری، و النقطة التی کان یأخذ منها میاهه من النیل وقت فتح العرب لمصر. و قد فاتنی أن أبیّن لقرّاء النجوم الزاهرة الحد الذی کان ینتهی عنـده النیل علی شاطئه الشـرقی تجاه مـدینتی مصـر القدیمة و القاهرة فی ذاک الوقت، و لهذا أسـتدرک ما فاتنی إتماما للفائدة المطلوبة من التعلیقات فأقول:

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج‌۸، ص: ۲۸۴

یستفاد مما ذکره المقریزی فی خططه عند الکلام علی ساحل النیل بمدینة مصر (ص ۳۴۳ ج ۱) و علی المنشأة (ص ۳۴۵ ج ۱) و علی أبواب مدینة مصـر (ص ۳۴۷ ج ۱) و علی منظرة المقس (ص ۳۸۰ ج ۱) و علی ظواهر القـاهرة المعزیّـة (ص ۱۰۸ ج ۲) و علی برّ الخلیج الغربی (ص ۱۱۳ ج ۲) و علی اللوق (ص ۱۱۷ ج ۲) و علی المقس (ص ۱۲۱ ج ۲) و علی بولاق (ص ۱۳۰ ج ۲) و علی قنطرة السد (ص ۱۴۶ ج ۲) و علی قنطرة باب البحر (ص ۱۵۱ ج ۲) و علی جزیرة الفیل (ص ۱۸۵ ج ۲)، و علی صناعة مصر (ص ۱۹۷ ج ۲) و علی المیدان الناصـری (ص ۲۰۰ ج ۲)، و یسـتفاد أیضـا مما ورد فی حوادث سـنة ۶۸۰ ه المـذکورة فی کتـاب النجوم الزاهرة لابن تغری بریـد (ص ۳۰۷ ج ۷) و مما هو مبیّن علی خریطـة الحملة الفرنسـیة الموضوعة سـنة ۱۸۰۰؛ یسـتفاد من کلّ ما سـبق ذکره، و من المباحث التی أجریتها أن شاطیء النیل الشرقی الأصلی القدیم تجاه مدینة مصر و القاهرة کان وقت فتح العرب لمصر واقعا فی الأمکنة التی تعرف الیوم بالأسماء الآتیة:

کان النیل بعـد أن یمرّ علی سـکن ناحیة أثر النّبیّ جنوبی مصـر القـدیمة یسـیر إلی الشـمال بجوار شارع أثر النبی إلی أن یتلاقی بسـکة حدید حلوان عند محطة المدابغ، فیسـیر النیل بجواز هذه السـکة إلی أن یتقابل بشارع ماری جرجس فیسیر محاذیا له من الجهة الغربیة مارّا تحت قصـر الشـمع (الکنیسة المعلقة بمصـر القدیمة) و جامع عمرو، ثم یسیر محاذیا لشارع سیدی حسن الأنور إلی نهایته ثم یسیر شمالا إلی النقطـة التی یتقابل فیها شارع السـد البرانی بسـکة المذبـح، ثم یسـیر بعد ذلک متّجها فی طریقه إلی الشـمال فیمر فی حارة المغربی بجنینة قامیش فشارع بنی الأزرق بجنینة لاظ فشارع جنان الزهری فشارع الشیخ عبد اللّه فحارة البیر قدار فشارع البلاقسة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج‌۸، ص: ۲۸۵

فشارع عماد الدین إلی نهایته البحریة، ثم ینعطف النیل مائلا إلی الشـرق و یسـیر بجوار شارع الملکة نازلی حتی یصل إلی میدان باب الحدیـد، و من هناک ینعطف إلی الشـمال الشـرقی مارا بمیـدان محطـة مصـر، ثم یمر بجوار محطـة کوبری اللیمون من الجهة البحریة الغربیة، ثم یسیر فی شارع غمرة بطول مائتی متر، ثم یسـیر إلی الشـمال محادیا لمخازن بضائع محطة مصـر من الجهة الشرقیة، ثم یسیر محاذیا لشارع مهمشة من الجهة الغربیة، ثم یسیر بعد ذلک محاذیا لجسر السکة الحدیدیة الذاهبة إلی الإسکندریة من الجهة الشرقیة. و عنـد وصول النیل إلی نقطـة واقعـة علی هذه السـکة تجاه عزبة الخمایسة یمیل إلی الغرب حتی یصل إلی سـکن ناحیة منیة السـیرج، و هناک یسیر غربی سـکن هـذه الناحیـة، ثم یسـیر إلی الشـمال بـدوران خفیف إلی الغرب حتی یتقابل مع مجراه الحالی عند فم الترعة الإسماعیلیة.

هذا هو خط سیر الشاطئ الأصلیّ القدیم للنیل تجاه مدینتی مصر و القاهرة فی سـنة ۲۰ ه ۶۴۱ م أی وقت فتـح العرب لمصـر. و بعد ذلـک طرح البحر عـدة مرّات و لـذلک انتقـل الشـاطئ الأصـلی المـذکور من مکانه القـدیم السابق ذکره إلی مکانه الحالی من مصر القدیمة إلی روض الفرج.

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنَادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرَّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةِ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّى بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.


www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹